منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

لينا هويان الحسن

سلطانات الرمل

سيرة أشهر جميلات بادية الشام

رواية

twitter @mjanen٢٣

لمزيد من الكتب والروايات تفضلوا بزيارة
مدونة الحب في غرفة الإنعاش
تابعونا عبر تويتر mjanen23@
فيس بوك 3abeth

twitter @mjanen٢٣

سلطانـــــات الرمل

لينـــا هويـــان الحسن

روايـــــة

twitter @mjanen٢٣

سلطانـــــات الرمـل

لينا هويـــان الحسن

روايـــة

تصميم الغلاف والإخراج: باسم صباغ

التدقيق اللغوي : ثابت عباس

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

التوزيع في سورية:

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

دمشق. ص.ب/٩٨٣٨/

هاتف/ فاكس ٠٠٩٣١١/٦١٣٣٨٥٦

جوال ٠٠٩٦٣ ٩٤٤/٢٦٦٦٨١

البريد الالكتروني addar@mamdouhdwan.net

elhamadwan@gamil.com

جميع الحقوق محفوظة لدار ممدوح عدوان©

لا يجوز نقل أو اقتباس أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب

بأي وسيلة كانت دون إذن خطي مسبق من الدار

twitter @mjanen٢٣

إلى

«شُمُّ الأنوف.. من الطراز الأولِ»

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

لازال قصر ابن وردان، يقرأ كلمات السراب حوله ويتحداني.. كيف أجعل البادية التي هي أخت الصحراء مقروءةً مطبوعةً في سطور منتظمة، وأوراق ناعمة.

أجول مثل بدوي يلوب في فراغ الكثبان يؤنسه حفيف ذاكرة ووقع حوافر المغيرات.

بفضل الغوايات تركض الخيول هناك، وتكون المغيرات صبحاً وظهراً وعصراً، مغيرات في كل وقت، عبر طيات الزمن على سرير الصحراء المبسوط على ناصية تاريخ عتيق.. ترسم حدوده آفاق تصقل عريها المستقيم، الصافي المستفيض، ودائماً لها معنى الصمت.

أغافل النسيان في رواحه ومجيئه وأندس بين بضع خرافات، مع الزمن، ستكفي لأن تكسو جسدها بحراشف الأسطورة.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

«تطلعتُ صوب الصحراء، فوجدتها منبسطة تمتد نحو ألف وخمسمائة ميل حتى البساتين التي تحيط بدمشق. وهبَّت نسمة صحراوية حولي فتراءى إليَّ ذلك القصر المهجور في سورية الذي زاره "لورنس». وكان العرب يعتقدون أن أميراً بناه ليكون القصر الصحراوي لمملكته، زعموا أن طينه معجون بعصير الزهر. وتذكرت كيف قاد الدليل "لورنس» من غرفة إلى غرفة ليشمّ الروائح الفواحة كالكلاب. كان يقول: هذه رائحة الياسمين، وهذه رائحة البنفسج، وهذه رائحة الورد. أخيراً دعاه أحدهم وقال: شمَّ أطيب رائحة، ثم قاده إلى نافذة متهدمة تهب عليها رياح الصحراء وقال: هذه هي الأفضل، إنها دون نكهة».

❖ ولفريدِ تِسيغر

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

الجـــــــــزء الأول

twitter @mjanen٢٣

١٢

twitter @mjanen٢٣

«حمـــــــرا الموت»

«كان أحمد ذا قدرة جبارة. ويُعدُّ عملاقاً - إذ يبلغ طوله ستة أقدام، وسيماً وشجاعاً ونادر المثال وكنا نسمع عنه الأحاديث التي تصفه بالاتزان بين البدو وتقول : «آه» عليك أن تري أحمد الموالي.. مظهره وحده يجعل ثلاثين شخصاً يفرُّون من أمامه، كان عمود رمحه بطول ستة عشر قدماً وفي جسمه آثار لجروح قديمة متعددة»..

❖ الليدي. آن بلنت/ في كتابها «قبائل بدو الفرات»

«تزامنت فترة ازدهار مملكة الموالي مع الحقبة التي أغلق البرتغاليون فيها البحر الأحمر، فصار على تجارة الهند أن تبحث لنفسها عن طريق بري يقود إلى الغرب، وما لبث أن وجدته في عانة، النقطة المركزية في شبكة طرق قوافل واسعة الانتشار، التي التقت فيها طرق البصرة وبغداد والموصل، وانطلقت منها إلى حلب وطرابلس ودمشق.
وكانت عانة مركز سلطان أبي ريشة الجمركية، المنفصلة عن الجمارك التركية في الطيبة - بالنسبة لحلب - والسخنة - بالنسبة لدمشق وحمص وطرابلس - أما رسوم السفن التي كانت تمخر الفرات نزولاً، فكان الأبوريشة يجبونها في مكان يقع بين بيرهجك وقلعة جعبر، اعترف

twitter @mjanen٢٣

الأتراك بدولة الموالي، وعينوا حاكم الأبوريشة بيكاً على سنجقي دير الرحبة وسلمية وعانة والحديثة، ورصدوا له مبلغاً مالياً سنوياً وقدموا الهدايا الشرفية المألوفة عند تعيينه»..

❖ أوبنهايم «البدو. ج١»

الزمان لن يُخفق في تذكرها حين يهطل التاريخ، لأنه يستطيع الآن أن يسمع ما رآه يوماً. لا لصاً يقدر على اختلاسها من خزائن الأمس ولا سكيراً يمكنه أن يعبث بسرابها الضخم.. أي أزل ذاك الذي اكتسحته «حمرا» وأدهشتنا نحن الفانون؟!..

البعض قال إنها كانت ساحرة حرقت حافر حمار وحش وسحقته واكتحلت به، هكذا قالوا عن سر نظرتها الذبّاحة، جسدها كان خالياً من الشعر مثل مرآة، بنات عمها قُلْنَّ أنها صنعت خلطة من مخ أرنبة ومرارتها، تحول دون إنبات الشعر المنتوف. وحمت بشرتها البيضاء القرنفلية من النمش الذي تسببه شمس الصحراء بمرهم، قيل أنها كانت تصنعه من مرارة ذئب مخلوطة بالورس. ومن دم أفعى وزيت نبتة صحراوية صنعت ما يجعل شعرها طويلاً كثيفاً لا يمكن لأنثى أخرى أن تنافسها بطول جدائلها. وانتقمت لأمها التي ماتت مقهورة بسبب زوجة أبيها الثانية، بأن جعلتها تبول على بول ذئب فعقمت.

twitter @mjanen٢٣

وحين هزل صقر اسمه «المختلس» كان لأبيها، عالجته وجعلته يسمن بعد أن ألقمته على يدها لحم هدهد حي غير مذبوح ولحم قنفذ منقوع بالخل، فسمُنَ وعاد يرافق أباها في صيده، لم تكن تحب الغزلان ولا الحبارى ولا القطا. كانت تحب الطيور الحرة وتعرف كيف تعاملها، لهذا - كما قيل - كان لها سطوة على الرجال.

أنثى، تعرف كيف ترفع البرقع عن وجه الجارح، تبعد وجهها عن رأسه، فأول شيء يفعله هذا الطائر حين يفتح عينيه، ينظر إلى العيون، ينظر إلى عينيك مباشرة، فضولي ونبيل، يتصفح الوجوه ككائن حر بالمطلق. يهوى العيون التي تحمل بريقاً مجلوباً من تاريخ سحيق.

كانت تعرف أن الرجال الحقيقيين مثل الصقور، لايحبون الدخان والغبار والحائط والباب والأجمة والمرأة الحائض، حين تقلع عن زيارة طير أبيها في «الربْعة» كان الجميع يحزر بأنها حائض.

«حمرا»، كانت رشيقة كغزالة، متنبهة كثعلبة، وشريرة كعفريتة، فخورة كملكة، إلى أن تأتي اللحظة المناسبة وتعلن عن حقيقتها بغتة واقفة مثل كوبرا.

للجمال عند أهل الصحراء منطق، وأكثر من شرط، وأسرار كثيرة. لا يكفي أن يكون فاتناً، لابد أن يكون جارحاً أو ضارياً..

عذوبة الملامح يجب أن تسرّب مرارة غير مفهومة، كذلك لابد للجمال أن يكون هادئا لا ينبس ببنت شفة وأن يكون حرّاقاً بشكل

twitter @mjanen٢٣

ما، أيضاً يريدونه مسيطراً، ويخلّف الحسرة أينما حلّ.

وتحدث الحياة في صحراء مبسوطة مثل قماشة حرير ذهبي يفردها تاجر أمام امرأة ثرية.

الصحراء: المكان الذي يعطيك حرية إلى حدّ العصيان.

في ذلك الزمن لم تكن الظباء خرافة كما الآن، ولم تكن الصحارى مشقوقة بإسفلت الطرقات أو مشوهة بأعمدة كهرباء.

قبل سنين طويلة حين كانت الذاكرة ترتسم بخطى ذئب كان هنالك البدو، أبناء الصحراء الخام. البدو لم يلعبوا الشطرنج ولا الكوتشينة ولا البليياردو.. هنالك لعبة واحدة فقط: القدر.

فيما السراب السيد ذو الشوارب في الصحراء يلحس كل قشدة الأرض ويحولها إلى أكاذيب رائعة الغواية.

«فارس على حصان أبيض، فارس الأحلام».

ربما البدويات هنَّ اللواتي سربن هذا الحلم إلى باقي إناث الأرض، كذلك جميعنا نعرف أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً.

هكذا عشقت «حمرا» ابنة شيخ عشيرة «طي»، أحمد بيك الأبوريشة أمير قبيلة «الموالي»، واحداً من أشهر محاربي الصحراء، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أحمد، كان قد لُقّب بالبيك تودداً من باشا حلب لخاطر ضمان سير القوافل بين الشام والعراق وتأمينها من تعدّي القبائل، كان يتقاضى مبلغاً سنوياً من والي حلب لقاء حمايته قراها من طغيان

twitter @mjanen٢٣

العشائر الأخرى، ولقاء ذلك أخذ أيضاً بضعة قرى إقطاعاً له..

كانت «حمرا» جميلة و ذكية، أي خطراً صافياً يمشي على قدمين، ومثلما فعلت «سعدا» ابنة الزيناتي خليفة يوم عشقت عدو أبيها، «مرعي» ابن الأمير «حسن» أمير بني هلال، وقعت «حمرا» بغرام البيك وأنجزت رسم فارسها على الرمل، فيما الشعراء الجوالون يتناقلون سيرته ومآثره، والسراب يمر محملاً بالأحلام ببراءة عابر سبيل.

مع أحد أولئك الشعراء، أرسلت «حمرا» في طلبه دون أن يرفَّ لها جفن. ضد القدر، ضد المنطق، لا فرق، لا يهم، كانت تريده بكل ما أوتيت من شغف ومكر وثبات أعصاب.

وعلى الدروب المتيقظة، التي أتثها الامتداد، مشت «حمرا»، وفي عينيها نظرة عميقة واسعة، كصياد أرسل صقره يجلب له الطريدة بعد أن يفقأ عينيها.

صبرت «حمرا» ججفف انتظارها تحت شمس غرامها الساطعة. هناك.. فقط الصبر شيء متاح، ولا بد من إتقانه لحد أن يكون «صبراً جميلاً».

كان على حامل رسالة «حمرا» الشفهية إلى «أحمد بيك»، أن يعبر تلك المسافة المترعة بالقبائل المتحاربة، نزولاً من الشمال حيث قبيلتا «طي» و«شمر»، إلى الجنوب حيث يخترق خط التلغراف أعالي الفرات واصلاً بغداد، نصبته الحكومة التركية خصيصاً لمراقبة

twitter @mjanen٢٣

قبيلة «العنزة»، وعليه أن يجتاز المراكز العسكرية التي بناها الأتراك على بقايا الثكنات الرومانية، التي أنشأها الروم في بلاد مابين النهرين لمراقبة البدو وكبح جماحهم...

ووصلت أشهر رسالة حب في تاريخ البدو، قصفته «حمرا» برسالة حبها وبادلها الفتنة عن بعد، وجهز «أحمد» بيك الأبو ريشة أربعين فارساً يعدون وراءه في أشهر رحلة عرفتها البادية لجلب عروس.

يقال بأنه وضع شرطاً لمن يريد مرافقته من الرجال أن يكون لذقنه شعر يقف فيه المشط، وكان يقصد بذلك أن يضمنهم من المقاتلين الناضجين. لكن فتىً يافعاً من القبيلة كان يرغب بأن يكون ضمن رجال تلك الغزوة، ولم تكن لحيته قد نبتت بعد، فكان أن غرز أسنان المشط بلحم إحدى وجنتيه، ووقف بين يدي «أحمد» بيك بوجنة دامية، يريد الذهاب، وكان له ما أراد.

لم يكن سهلاً بالمطلق انتزاع ابنة باشا عشيرة «طي» التي كانت تعيش مرتحلة من الخابور إلى ماوراء دجلة وصولاً جبل حمرين، وكانت في وقت سابق مكلفة بحماية الطريق من ماردين إلى الموصل وفرضت رسوم مرور على المسافرين بأراضيها، وشغل مشايخها منصب «بيك سنجار». تقدم قبيلة «شمر» شق قبيلة «طي» إلى مجموعتين: جزءٌ اقتصر وجوده على منطقة القبيلة الأصلية حول جبل سنجار، وجزءٌ أصبح في ضواحي أربيل في الجانب الآخر من دجلة، و«حمرا» كانت من الجزء الأول الذي يمضي الصيف بين خط سكة الحديد وأرض

twitter @mjanen٢٣

الجغجغ وصولاً إلى جدول دمير قابو، والشتاء عند أقدام جبل سنجار، تتوزع مراعيهم شرق وجنوب شرقي نصيبين. وهنالك كانت «حمرا» تنتظر.

في عزِّ الظهيرة غزا قومها، وبلغ منزل أبيها المرفوع على أحد عشر عاموداً، كل عبيد أبيها قتلهم البيك وجندل واحداً من أشقائها وعقيد حرب قومها، وأخذ «حمرا» معه مكرساً بذلك حقيقة أن الحب كلمة مكتوبة على أسلحة المحاربين وتيجان الملوك وعلى روائع سرديات الزمن، وعلى كل أشكال الحياة المتألقة، يوجد للحب أثر من دم.

كانت يومها ترتدي الجوخ الأحمر، وكان الوقت ربيعاً، من ذلك النوع الذي يسميه البدو ربيع «الطفحة»، حين لا يتوافر مرعى خصب في المنخفضات وحدها بل يملأ الشعاب و المنحدرات. وتفعلها الأرض وترتجف من الوريد إلى الوريد، وتبزغ شقائق النعمان لتقهر شحوب البوادي وعزلة لونها الغباري المضلل وتقول لكل عابر: اقرأني قبل أن أتلاشى ويهيم جنوني الأحمر على أجنحة الريح، احفظني مطرزة، مخيطة بهدب عينيك مثل ومضات نار أصيلة.

كما أرادت «حمرا» جاء البيك على فرسه البيضاء الشهيرة ليختطفها وسط الدماء والدموع ونحيب الأمهات اللواتي ثكلتهن «حمرا» بسبب خفقة قلب.

تحت أنظار القدر والعشيرة غادرت «حمرا» مع فارسها. ومنذ ذلك اليوم أصبح اسمها ««حمرا الموت».

twitter @mjanen٢٣

في تلك الليلة بالذات ألقى أحمد بيك سلاحه ليتفرغ للحب، وحين جذبته تلك الرائحة التي انبعثت من بين فخذيها تأكد من تلك الخرافات التي سمع الناس يحكونها عنها، إنها ساحرة بشكل ما، وإلا كيف لأنفه أن يشم رائحة مدوخة من عضو ناعم كما لو أنه لطفلة، وأخيراً رأى ذلك الزنار المجدول من الصوف بعقد غريبة. يقال إنها تمائم فتاكة مضفورة بالزنار، وأنه مشغول من شعر ذنب ضبعة، ضربته «حمرا» بالصوف وموّهته عن العين المجردة، وصنعت زنارها الذي لا يقدر على فكه إلا رجل اصطفاه القدر لها. بيسر فكه البيك بأسنانه ورماه جانباً وهي تومض رقيقة مذعنة إلى أن هبت ريح نشوة حادة استقبلها جسدها الحار، والبيك يضاجع «حمرا» حتى طلوع الفجر.

«فوجئنا في اليوم الثاني من وصولنا إلى نصيبين بقدوم مجموعة تضم زهاء عشرين بدوياً إلى مخيمنا، فقد كان رجال الباشا الذين رافقونا من دير الزور إلى هنا قد أرسلوا إلى سيدهم يخبرونه بعزمي على زيارته، فأرسل الشيخ هذه المجموعة من الفرسان لترافقني في طريقي إليه
وكان على رأس هذه الكوكبة من الفرسان صبي رائع الجمال في الثانية عشرة من عمره، هو الابن الثاني للشيخ، كان الفتى يحمل مثل رفاقه رمحاً طوله خمسة أمتار مما

twitter @mjanen٢٣

يجعله يضاهي أربع مرات قامة البطل الصغير نفسه، وثبّت الفرسان رماحهم في الأرض في صمت أمام خيمتي وحيوني بالطريقة الاحتفالية المعروفة»..

❖ أوبنهايم ١٨٨٩

«حمرا» كانت تعرف عن الصقور أشياء كثيرة.

كانت تكثر حمل صقر زوجها في الشتاء ليلاً، وتطعمه قبل يوم صيده بيوم واحد فرخ حمام شرب خلاً صرفاً، وتدهن منسره بزنجبيل مدقوق مع سرة حصان، وتوصي عبد زوجها: «قبيل إطلاقه على الفريسة، ألقمه قطعة لحم منقوعة بالخمر ذلك يدفعه على الإقدام أكثر».

وتعرف أنه يمكن للطير أن يغادر صاحبه بلحظة حنين عاصفة للبرية، الصقر ليس جارحاً غادراً، لكنه يمتلك ذاكرة، في الربيع يراقبونه جيداً يدللونه لأن رائحة الربيع مغرية. قد يحلق وراء طريدة وفجأة يشتهي عباب الوطن وشبقاً إلى السفاد، قد يرحل نهائياً. لهذا جعلت «حمرا» الكافور في مائه لتبتر شهوة الحب لديه فينسى الأنثى.

كان «أحمد» بيك يفضل الصقر الذي يحوم على سمت رأس صاحبه، يرى في ذلك علامة الأمان والتعلق بصاحبه، فعلى الصقور أن

twitter @mjanen٢٣

تحبّك لتظل رفيقة أيامك.. وليست كل الصقور سواء، إنها مثل الخيول لها علامات الجمال والنبل التي تميزها: «أن يكون العظمان اللذان عند الفخذين مستويين معتدلين غير مختلفين. والعرقان اللذان في أصل الجناحين نافران ترى ضربهما أبدا، الجارح الفطين والذي لا يضيع فريسته هو الذي يحرك ذنبه قبل الصبح».

حتى ذرق الصقر كانت «حمرا» تعرف دلالته، ذرق الطير السليم يجب أن يكون متصلا غير منقطع.. وإذا لمحت فيه الدود تنقع اللحم بماء مع حب رمان حامض ثم تطعمه. وإذا كان لا يهدأ على دكته ينزل ويصعد فإنه يعاني من البواسير، تحقنه بزيت الكتان أو تولج في دبره زيت البطم، إن رأته يرفع رجلاً ويضع أخرى نافشاً ريشه تعلم أن به برداً، وإن رأته فاغر الفم، يلهث، لسانه بارز، وجاحظ العين، منضم الريش والجناحين، تعلم أنه مصاب بالحمى، فتقطر في منخره ماءً فيه كافور أو ماء الورد أو البنفسج، وتدهن بها رأسه ثم تطعمه لحوم فراخ بعد إلقاء أجوافها وتحسير ريشها، أيضا يمكن للصقور أن تصاب بعدوى القمل، «حمرا» كانت تدهنها بمغلي الحنظل البارد تنفخها أسفل رقبته وتحت جناحه. تلاعب طيورها، تحب فيها الغموض المستفز في عيونٍ سوادها حارّ عميق، تلمح حزن الصقور في أسرها. الفرح لا يجتمع مع الجمال، والجمال مع الحزن، مشهد يتاح للعين،

twitter @mjanen٢٣

يربكنا في الغالب ويتركنا متحسرين نادمين على أشياء لم نعرفها قط.

❖ ❖ ❖

للبياض درجات.. ولجمال النساء هندسات.

في رأي أهل الصحراء على الأسماء أن تشبههم، أن تكون مثلهم. وللأسماء لديهم شروط، وظاهرة قلب الأسماء أو تعديلها أو تغييرها ليست موجودة إلا عندهم. فيحدث أن يسمُّون طفلة «نسمة» وإذا ما كبرت قليلاً وأثبتت أنها صعبة الطباع ولا تشبه النسيم بشيء فإنهم يبدِّلون اسمها ويصبح «عنوداً».

مباشرون وصريحون عندما يختارون أسماء الإناث: فهدة، زبدة، نجمة، فضة، زينة، ثريا..

البيك سمى ابنته الصقيلة البشرة والبيضاء الشفافة مثل مرآة، التي أنجبتها «حمرا الموت»: «مراية».

بعد سنوات قليلة ماتت «حمرا» بداء غامض، وبلهفة سرى خبر موتها بين العشائر، لم يبكوها، لكن فجعوا وصمتوا.

عاد «أحمد» بيك إلى أحضان زوجته الأولى التي كانت قد أنجبت له ستة من الذكور. لكنها لم تحظَ به ليلة واحدة عقب اليوم الذي دخلت فيه «حمرا» حياتها كزوجة ثانية وكضرّة مُرّة.

ماتت «حمرا» دون أن يعرف أحد السر الذي جعل البيك لا يرى في

twitter @mjanen٢٣

الدنيا غيرها.

الحسناوات دائمات الحضور بين العرب، وعقب وجود «حمرا» في بيت البيك برزت منافسة لها. كانت واحدة من بنات عم زوجها، بدأت الفتاة التي لم تكد تتجاوز السابعة عشرة من عمرها بمناورة «حمرا» عن بعد. في حفلات الزفاف والأعراس تغني الفتاة عن خصال أمير عشيرتها، وعقيد حربها، وتذكر مناقبه في القتال ومآثره في الحروب وسوق الغنائم لأهله. ظن الجميع أن تلك الفتاة الجميلة والتي تصغر «حمرا» بعشر سنوات قادرة على سلب قلب البيك.

يبدو أن «حمرا» لم تنتظر حدوث ذلك، ففي ليلة كان فيها القمر بدراً كاملاً، نهضت الفتاة وهي تصرخ متألمة، حار أهلها بأمرها، كانت تضع يدها على بطنها وتصيح: «سكين.. سكين في بطني».. لم يطلع الصبح إلا والفتاة كانت جثة هامدة.

النساء كن على يقين أن «حمرا» فعلت شيئاً ما، لكنهن لذن بالصمت خوفاً من أذاها. و عقب موت الفتاة لم تجرؤ امرأة على النظر صوب البيك، إلى أن توفيت «حمرا الموت»، وبدا السراب مثل كذبة عزلاء.. ويختل مزاج الصحراء لأدنى صوت يخرج من حنجرة قُبَّرة.. وهات صبرك يا «ذيب».. الغزالة جعلت عليك النوم حراماً.

في الفسحة بين الصحراء وظلالها، حرب صغيرة تضع أوزارها..

twitter @mjanen٢٣

الفــــرس «رفعه»

الشمس والهواء والسماء هناك تتحالف في وجه منطقك وتتوصل أناملها إلى تشكيل كل شيء.. السراب، ووسط سيوف الزمن اللامعة تعثر على إثارة الحياة، إنها تتوجد وعليك أنتَ أن تجد لها كل المبررات التي تسوِّغ لهاثك خلفها..

«الرثوعي» كان حصاناً أدهم مثل عتمة ليل شتوية، يملكه رجل اسمه فيصل، شيخ لواحدة من عشائر العنزة، وفي بقعة ليست ببعيدة هنالك فرس اسمها «رفعة» وسيمة، حسناء، ضامرة الخصر مثل امرأة، دقيقة الخطم رفيعة الشفتين لحد أن صاحبها «طراد الزبن» شيخ بني صخر كان يشرّبها الماء من القدح الصغير الذي يشرب فيه، مرّ على بلوغها عامين ويرفض مالكها «طراد» تشبيتها.

كان «فيصل» يقول: من يحضر لي الفرس «رفعة» أزوجه الفتاة التي يريدها.

«طراد» الناحل الذي له وجه صقر، مثل أي بدوي حين يغار على أنثاه، لم يرض لفرسه رفعة أن يقفز عليها إلا أكثر أحصنة الصحراء

twitter @mjanen٢٣

نقاءً و أصالة. وأخيراً اختار لها «الرثوعي». لكن هنالك مشكلة، ثمة عداوة قديمة بين قبيلة العنزة وبني صخر، «طراد» الذي كان مقاتلاً شهيراً بين العرب، كان عنيداً مثل صخرة، أرسل إلى «فيصل» صاحب «الرثوعي» يعرض عليه عروضاً مغرية لتشبيتها طمعاً بالحصول على مهرتها.

وفي الربيع الثالث على بلوغ «رفعة»، قرر «طراد» قراراً فيه غاية المخاطرة والجرأة، سرى ليلاً صوب الشمال إلى البادية الشامية وصباحاً قبيل الفجر وصل بيت «فيصل» صاحب «الرثوعي»، كان أهل البيت نياماً. بهدوء وصمت ربط فرسه بالواسط، والواسط هو العمود الذي يتوسط الربعة أي مضافة الرجال وعادة حين يربط بدوي فرسه في ذلك العمود بالذات، يكون بذلك إشارة واضحة لاستجارة وطلب كبير، لفّ «طراد» نفسه بعباءته ونام في أحد أركان الربعة.

استيقظ «فيصل» صاحب البيت ورأى الفرس على تلك الحال والضيفَ غارقاً بالنوم. سأل خادمه الذي كان يحضر القهوة فأخبره أنه استفاق ووجد الفرس وصاحبها على تلك الحال.

كان البدو حين يصفون «رفعة» يقولون: «مالها ناجز» أي لا شبيهة لها، فتنة تلك الفرس الخرافية لم تفت «فيصل» وراودته الشكوك بأن ضيفه هو بذاته «طراد الزبن».

حين استفاق صاحب «رفعة» وجلس بمظهر المطمئن سأله «فيصل»:

twitter @mjanen٢٣

ـ هذه رفعة وأنت «طراد»؟!..

ـ كله؟..

ـ ألله لا يرحم أبوك..

قال ذلك «فيصل» وقد سحب رمحاً قصيراً يسميه البدو «شلفة» وقال مهدداً:

ـ براس الشلفة أذبحك وآخذها..

ـ إذن أنا داخل عليك، قال «طراد» ذلك وهو يشير إلى الفرس المربوطة بعمود الواسط.

ـ ما الذي أتى بك وتعرف أني «أتوعدك»؟!..

ـ لن أحل رسنها من الواسط إلا إذا لقحت من «الرثوعي»..

ـ إذن تعاهدني بالله أن لا تلد إلا بالمكان الذي تشبَّت فيه.

ـ أعاهدك والله.

أحضر «فيصل» وجهاء عشيرته وذبح خروفاً وعقب الغداء شهّد الحضور على العهد الذي قطعه «طراد».

في صباح اليوم التالي قصدوا واحدة من الفياض الخصبة القريبة من مضارب العشيرة وخيموا هناك بانتظار أن تلقح «رفعة»، في المرة الثانية حين أقبل «الرثوعي» صوب «رفعة» أعرضت عنه، وتأكد «طراد» أن فرسه لقحت. غادر كلٌّ إلى أهله بانتظار ذات الموعد بعد سنة في الفيضة ذاتها.

بعد عودته ذبح «طراد» جزوراً ودعا أبناء عشيرته للعشاء في اليوم

twitter @mjanen٢٣

نفسه وأعلن أن رفعة لقحت من «الرثوعي».

الشمس المتخثرة تعبر سطح الأرض، ومثل نبوءات حلم يخرج السراب وعن بعد يمنحك عربوناً لتلتزم بملاحقة آثار خطوه.

البادية لا تتقن دبلوماسية انتقال الفصول، في الشتاء تنام نوم المومياءات الأزلية، بعد عشرين كانون الثاني ثمة سبع ليال يسمونها «سبع سم»، ثم تليها سبع دموية يسمونها «سبع دم»، ومن عمق الشتاء تستيقظ وتبدأ بالتحرك، تبدأ بالبريق وتطير بذرة ربيعها وتنبض شرايينها النائمة وتنفخ الدفء في أمعائها، وتلفح الأفاعي والعقارب بلطفها، و تستفيق الزواحف وتخرج من سباتها وجحورها، ويسمون تلك الأيام «طلوع الخبايا» يرشق دفئها بطن الأرض وتعطي أمانها للزواحف بأسرها، وبسرعة تتقد الشمس ويهجم الصيف بحره وقسوته وتتحول البادية إلى سهول واسعة مستوية متشابهة المشاهد.. أفق رهيب وصمت لا تخوم له، الشمس مثل الصحراء أنثى.

يحبون الطلَّ، يطفئ ظمأ الغزلان وبقر الوحش، ويقولون بأن القمر يرسله، يعدوّن الضباب من عمل الجن ويظنون أنه يسمع مثل البشر ويخاف الثعالب.. حتى الخيول تكره الضباب وتعشق الربيع.

في الربيع التالي عاد «طراد» مع «رفعة» لتلد في ذات الفيضة كما وعد «فيصل» صاحب «الرثوعي».

وضعت فرسه مهرة دهماء بنجمة بيضاء على جبهتها، وغرّتها تصل أنفها، خلال ذلك لاحت له عن بعد «شلفة» فيصل على ظهر

twitter @mjanen٢٣

«الرثوعي» قادماً يلوّح بسلاحه، يومها قال له: «براس الشلفة» يعني أنه سيبارزه ويأخذ «رفعة» ومهرتها بعد أن يرديه.

«فيصل» كان مع سربة خيل من قومه، و«طراد» وحيداً مع فرسه التي وضعت لتوها، لكز «رفعة» و راحت عضلاتها تحيل المسافات إلى هباء وكأنها موشومة بريح، حين بلغ تخوم ديرته كانت المهرة الدهماء تلحق بأمها على مسافة لا تزيد عن الخمسة أمتار، طوال مدة المطاردة لم تقصر عن أمها. يومها كان «طراد» قد قال لنفسه: إذا لم تلحق مهرة «رفعة» بأمها فليهنأ بها «فيصل»، لكن المهرة استطاعت اللحاق بأمها وأصبحت من نصيب «طراد».

يومها ذبح «طراد» جزوراً ودعى رجال القبيلة ليحكي لهم ما حدث وكيف المهرة لحقت بأمها وخلفت وراءها «الرثوعي» بذاته وعلى ظهره «فيصل» دون أن يقوى على اللحاق بها.

خوفاً على مهرته «الدهماء» من العين الحاسدة، سماها «خَرْما» كلمة رديفة للقبح والتشوه عند العرب.

يحتفي «طراد» بفرسه الجديدة وتدور القهوة على الضيوف ويندلق البنّ من ثغر الدلة المزموم.. غامضاً وجديداً وسلساً مثل طراوة النسيان.

وفي الخارج تلك الأرض البطحاء الفسيحة تدلق عسلها السرابي وتهمس من وراء الصدى: جاءت الغزالة.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

«قطنة»

«كانت لا تشبه أيَّ امرأة أخرى رأيتها في حياتي، كانت أنثى مثل أنثى أي حيوان، ثمة شيء فيها حاد وموجع مثل حدّ السيف»..

❖ **الأمير أمين أرسلان/ الذي رأى «قطنة» مرتين في عمان**

«كان هذا من جيل مضى، ولكن الذين عرفوا «قطنة»، وتحدثوا معها من بني صخر والسردية كثيرون، وكثيرون هم الذين مات آباؤهم وإخوتهم «منشان عيون «قطنة»» عندما التهبت فتوتها البهية، وروت الصحراء بالدماء من تدمر حتى حدائق بغداد»..

❖ الكاتب والرحالة الأمريكي/ ويليام ب. سيبروك

يقيناً عندما يشذِّب العرب أنوفهم فإنهم لن يروا النجوم مجدداً، كانوا ينظرون بأنوفهم. يتلألأون طاغون جريئون معسولون، في أنوفهم دهشة الأصول والسراب حولهم يلفّق بطباشير كذبه شتى الحكايا، تطفو مثل زبد فوق ذؤابة الأفق.

twitter @mjanen٢٣

يحكى أن «ابن الكنج» شيخ قبيلة السردية في بادية الأردن غزا الجزيرة الفراتية في سنة محل، رافقه أكثر من خمسمئة فارس ونهب الأعلاف من مخزن للأتراك، خلال ذلك بلغ ضفاف الفرات. وكان بياض القطن قد سيطر على محيط النهر.

بدوي على ظهر فرسه يقف على مشارف الفرات، ما الذي فتنه أكثر شيء؟!.. إنه القطن، جمالٌ في مكانه الصائب.

عند الفرات اصطبغ كل شيء بلون الهوى، الماء يسابق رغباته، وأشجار الطرفاء تنصب الأعشاش مثلما تخبئ الكمائن لشتى أنواع الطيور. لكن القطن وحده أثار دهشة «ابن الكنج»، ورأى أن القطن شطحة من شطحات الطبيعة، كان لأول مرة في حياته يبصر تلك الزهرة النقية.

عاد إلى ديرته مفتونا بذلك البياض، حدَّث زوجته التي كانت حاملاً عن جمال القطن وبعد عدة شهور ولدت طفلة بيضاء كالقطن، فسماها ابن الكنج: «قطنة».

يومها في الخارج كان الربيع بدأ، وشقائق النعمان تتشمم طريقها إلى السماء.. للريح هناك رهافة غبار الطلع، وعنوة ينفخ ريحه «الحظ» في ظهر الكلمات فتبدل أماكنها ويحدث ما يحدث...

والسراب يمزج الخدعة بخدعة، وعن بعد يتحكم بانطباعاتك

twitter @mjanen٢٣

حوله، يخلط الورق والتواريخ والأيام وأخيراً يبلغك يقينٌ، يقول لك: أن لا شيء نعرفه يشبه السراب غير الحب.

❖ ❖ ❖

«ومن الأحداث المشهورة بشكل خاص الحرب التي اندلعت، بسبب وقوع «طراد بن الزبن» في غرام الفتاة الجميلة «قطنة»، أخت متعب شيخ السردية. وقد وصف بالتفصيل هذه الحرب كل من شوماخر وموزيل»

❖ أوبنهايم. «البدو. ج ٢»

عصفة ريح تكفي لتؤرجح السراب ولك أن تتوقع احتمالات كذبته القادمة في عمق الحقيقة التي تتسع لكل القتلى الذين تسببت بموتهم «قطنة» من بني صخر والسردية والرولة من العنزة.

حين بلغت «قطنة» الخامسة عشرة كان والدها ابن الكنج قد مات وتركها في عهدة شقيقها الأكبر «متعب»، وبدأ صيت حسنها يجتاح الصحراء، وحين بلغت العشرين كانت أينما مشت سحلت وراءها العيون.. وكأن الزمن ذاته يقول لك: اصغ قبل أن تنظر، فالجمال قد يخضلك بالعمى ويغافلك وحش القدر الخرافي وتتلوى وتتشابك المصائر تحت دواليب السراب..

twitter @mjanen٢٣

في ذلك الوقت كانت الصحراء تضج بتحركات القبائل وكثرة النزاعات بينها، كان بنو صخر والسردية والسرحان والعيسى والفحيلية يجمعهم حلف يسمى حلف «أهل الشمال» وهذا الحلف كان في حال قتال دائمة مع عشائر «عنزة» التي قدمت مهاجرة من نجد واصطدمت بقبائل البادية الشامية مثل قبيلة الموالي في ديرة الشمبل، وقبيلة شمر في الجزيرة الفراتية، فاضطرت «العنزة» إلى بسط نفوذها على جنوب الشام وأصبحت الحرب سجالاً دامياً بين «العنزة» وحلف أهل الشمال..

ذات مرة و بغياب «متعب» مع خيرة الفرسان عن المضارب، غزتهم عشيرة «الرولة» من «عنزة» ونهبتهم وخلّفت واحداً من أشقاء «قطنة» قتيلاً، وعشرة مدافعين آخرين.

بعد انتهاء الغزو علا صوت عويل النساء وبزغت «قطنة» على ظهر ناقة بيضاء مغطاة بحرير أحمر و قد ضفّرت ليرات الذهب مع شعرها ووراءها خادمتها على ناقة حمّلتها كل ذهبها وحريرها، ساقت الناقة تشق طريقها بين الرجال الذين ظلوا في المخيم، وتخاذلوا وقصروا عن اللحاق بالغزو الذي راح ضحيته خيرة من شبان القبيلة، والعربية حين تفعل ذلك كأنها تسلم نفسها للعدو لإلحاق المزيد من العار بقومها إذا ما رأت فيهم جبناً أو خوفاً.

وخرجت من فمها كلمات قصيدة شهيرة لا زالت تحفظها الصحراء، تُذلّ فيها أبناء قومها الذين تأخروا عن اللحاق بالغزو وأخذ

twitter @mjanen٢٣

الثأر للقتلى. وسربلتهم بالعار الذي يلحق براكبي عتاق الخيل، وحاملي حدب السيوف القابعين بالمضارب، يبكون ويندبون مثل النساء.

على أثر تلك الحادثة ذاع صيتها أكثر وراح يتقدم لها الخاطبون من أنحاء مختلفة من البوادي والصحارى.. خرافتها كانت بحجم خرافة، أن تولد «هيلينا الطروادية» في الصحراء.

الصحراء ذلك المكان الذي اختلسه الأدباء ليحركوا عليه أبطال قصصهم الرومانسية، زارها الجواسيس ليعرف التاريخ شيئاً اسمه الاستشراق، وللأنبياء سيرة أخرى مع الصحارى: إنه الوحي.

أما «قطنة»..

فيما السراب ذئباً ينام بإحدى مقلتيه.. ما زالت البوادي ترتجل حكايتها، وثمة معادلة هناك تقول: الحسناوات يشعلن الحروب ويكُنَّ سبباً بالسلام. وبعض أشكال الحب تشبه الخمر وقد صُنع من عنب الثعلب.

«قطنة» عَشقت..

حدث وأن اختار قلبُها الرجلَ الناحل ذاته الذي خاطر بحياته لتقفيز «الرثوعي» على فرسه «رفعة»، «طراد بن زبن» شيخ بني صخر، أحد الذين رأوه وَصَفَهُ بقولهِ: «له جسم نمر نصف جائع».

يحكى أنها رأته وحدها مرتين فقط، أول مرة جلس صامتاً أمامها وراح يرسم بإصبعه على الرمل خطوطا متشابكة عابثة. ونهض

twitter @mjanen٢٣

لا فرحاً ولا حزيناً ولا قاسياً ولا رقيقاً، لكن صامتاً مثل ليلٍ شتائي غير منتهٍ. رغم أنها لم تسمع صوته في تلك الليلة، عرفت «قطنة» أن «كل صوت سواه صدى يتلاشى»، في المرة الثانية كانت ترتجف، وضحك هو، ثم قام ومضى.

في اليوم التالي قصد شقيقها «متعب الكنج»، الذي لا يكن المودة مطلقا لـ«طراد» بسبب الفرس «رفعة» التي كان يريدها له. رفض «متعب» تزويج «قطنة» لـ«طراد» وعمد إلى تقليدٍ بدوي صارم يؤكد الرفض المطلق «اذهب، ولا ترجع» ذلك لما ابتعد «طراد» حوالي خمسين خطوة عن البيت رفع «متعب» مسدسه وأطلق ثلاث طلقات نحو السماء، رسالة على الطريقة البدوية تقول: «إذا عدت ستقتل» خلالها لم يلتفت «طراد»، أكمل دربه قاصداً شيخ مشايخ قبائل الأردن وهو رجل لا يرد «متعب» له طلباً، لكن متعباً كان أسرع منه حين أعطى كلمته لشيخ عشيرة «الرولة» أكبر عشائر عدوتهم اللدودة «عنزة»، وعرفت الصحراء أشهر مهر دفع لعروس.

كان مهر «قطنة» يتضمن، خمسمائة ناقة بيضاء وثلاثين بندقية وستين حمل جمل من الحبوب وسروجاً وبسطاً، أي ما يعادل تقريباً نصف ثروة قبيلة.

الجميع ظنوا أن «قطنة» ستكون سبباً للسلام بين عشيرتين متحاربتين منذ عهود طويلة. منذ ذلك الزمن الذي جاءت فيه قبيلة العنزة من نجد وزاحمت السردية التي كانت على قدر كبير من

twitter @mjanen٢٣

الصولة والجولة في حوران والمناطق المحاذية لها جنوباً، فالسردية كانت قد امتلكت حق مرافقة قوافل الحج، وحاز شيوخها امتيازاتٍ كثيرة، منها لقب شيخ حوران، لكن «عنزة» سلبتها مكانتها في نهاية القرن الثامن عشر. وبين وقت وآخر كانت تعلو صيحة حرب السردية «شمّا بنجه» مقابل نخوات «عنزة» الكثيرة. وانتقل حق مرافقة قافلة الحجيج إلى «العنزة». رغم أن زعماء السردية حافظوا أول الأمر على لقب شيخ حوران وتلقي عباء شرفية وأسلحة خلال الاحتفالات السنوية بتجديد منحهم اللقب، وقدموا بالمقابل فرساً إلى والي دمشق تعهداً بتقديم القوات والإمدادات وقت الحرب، بالمقابل واصلوا أخذ الخوة من قرى النقرى والجولان وعجلون ومعان والسلط وبعض قبائل جبال حوران، لكن حقوقهم تلك أضاعتها سنين القرن التاسع عشر، إلى أن وصل بهم الحال ليصبحوا ممحوقين بين قبيلة «الرولة» من «عنزة» و «بني صخر» الذين تحالفوا معهم في وجه الرولة.

فراراً أيها السراب المتكر بثياب غزالة.. بلا لجام ومهاميز، غادر صورك العطشى حيث لا ممرّ، لا طريق، وغازل «البخت» لعله يفتح لك درباً تمرق منه حافياً..

زُفت «قطنة»، كان صوف خروف أبيض مبقع بدم بكارتها معلقاً على عمود خيمة عرسها، و «طراد» في قلبها.

في ليلة دُخلتها عوت الذئاب وجاوبتها الكلاب، وعرفت «قطنة» أن الحرب قادمة. وعقب زفافها بأيام عثر العبد الذي يعد القهوة على

twitter @mjanen٢٣

حيّة ميتة ممددة في وسط البيت، وحزرت «قطنة» بأن خسارة كبيرة ستنال مال زوجها.

في تلك الليلة بالذات، أغار «طراد الزبن» على ظهر فرسه الشهيرة «رفعة» مع خيالته من «بني صخر» على عشيرة الشيخ «سطام» زوج «قطنة» وخلف القتلى وراءه، وساق الكثير من إبلهم وهو يصيح: «منشان عيون قطنة» ونشبت الحرب بين القبيلتين.

في تلك الليلة فجراً صاحت الثعالب مثل بنات آوى، وعرفت «قطنة» أن المناحات قادمة لا محال.

أرض متورطة سلفاً بلعب التاريخ. والسراب هناك هو الحاكم الذي داس أبداً على رفات الماضي، فيما الفراغ مثل ضباب لا مرئي يمشي، يتشابك مع الدروب، ليصنع حيرتك، وأنت تقف على مفترق لأكثر من درب ترابي عتيق شقّه يوماً حدس وحسب، وكل الدروب مشغولة وفق منطقهم اللامبالي بالاتجاهات والمسارات، لا قانون لوجهاتهم.

بعض الدروب تسلكها رغم أنه ثمة ما يلوح يؤكد أنها دروب مخادعة، لكنك تستمر في خطئك، جمال فريد ذلك الخطأ الذي يظل يذكرك بكل ما هو عابر.

خلال أقل من سنة مات الكثيرون «منشان عيون قطنة» وأنجبت «قطنة» طفلة كارثية الجمال سموها: «عنقا».

ليس هنالك ما هو أصعب من كره النساء للنساء، إنه البغض

twitter @mjanen٢٣

بعينه. انصبَّ الكره الأعمى على «قطنة». كرهتها النساء وتربصن بها كلما خرجت من خدرها ورافقن خطوها وهن يهمسن بخفوتٍ أقسى اللعنات. و دعونها: حُرْمة دِما، وحُرْمة «حمرا». تسمع كل ذلك وتلوذ بكبريائها بصمت، تتجاهل همسهن الغاضب وتكمل طريقها.

صباح يوم انتفش ذيل حصان زوجها وعرفت أنه ذاهب إلى حرب قد لا يعود منها، وعقب مذبحة أخرى فعلها «طراد» بحق عشيرة الزوج خرجت «قطنة» إلى النساء اللواتي تجمَّعن أمام خيمتها وقد ارتدت الحرير الأحمر القاني وهي تصيح بهن بثقة: «انظرن ، أنا هي الحرمة الـ«حمرا» حرمة الدِما، انظرن كم هي فاتنة»، خلال ذلك عاد زوجها من الحرب، كان جريحا في كتفه ومضمداً، رأى جرأة «قطنة» وحزن نساء عشيرته، كان لا فرار من العقاب، سحبها إلى المحرم ومزق الحرير وانهال بالخيزران على ظهرها العاري. اغتسلت بدمها ولم تصدر منها أنة وجع، خرج وقد اختلط دم جرحه بدماء ظهرها.

بعد أيام حدثت حرب أخرى هزمهم فيها «طراد» هزيمة مذلة، وهجمت النساء إلى منزل «قطنة»، وتلك المرة لم تسكت، واجهتهن بالشتائم، وخلال ذلك قالت ما لا يغتفر: «تنجبن غنماً ليذبحهم «طراد»، اذهبن إلى «طراد»، واستلقين على ظهوركن لتنجبن الرجال»، قالت ذلك وجثت أمام «سطام» وعرضت حنجرتها لسيفه.

بعض البشر كانوا - في أغلب الظن - مصنوعين من الأنوف، أنوفهم تصلصل، ترن، تعصف، لا تأفل. موعظة حقيقية تعلمك معنى

twitter @mjanen٢٣

أن ترفع أنفك وتنفث نرجسيتك مثل ماء سيل عجول ناعمة مهددّة، مزودة بطبائع الجارفين، إضافة إلى أنها نحت بارز في الصخر.

لم يطاوعه قلبه، لم يستطع أن يقرب حدَّ سيفه من عنق طالما قبله متلذذاً، لكنه طلقها. ويممت وجهها صوب العراء.

في ذات الليلة أخَذَت الماء والخبز وعلى ظهر «ذَلول»(*) اتجهت إلى ديار بني صخر حيث «طراد». كان الوقت ربيعاً من النوع الذي يسميه البدو ربيع «الصفارى» حيث لا تنمو إلا الأزهار الصفراء، وبعد منتصف الليلة الثانية أناخت «ذلولها» عند أول خيمة بلغتها عند أطراف المخيم. كانت عطشى وجائعة. الخيمة كانت لراعي غنم فقير بلع دهشته من امرأة فاتنة على «ذلول» تأتي في منتصف الليل.

كانت تشرب الماء، حين تيقن الراعي أنها «قطنة» بذاتها، جمالها لم يكن يخفى على أحد، ذبح لها جديا صغيرا ووضعه بالقدر وسألها: «هل أذهب وأخبر طراد»؟!.. أحنت له برأسها وغادرها وهو يقول لها بأن «طراد» وراء التل التالي و إذا ما تأخر عليها فلتتولى أمر اللحم وتأكل ما طاب لها من الأكل.

هرع إلى «طراد»، وعندما وصل إليه طلب أن تكون البشرى ناقتين وفرساً وعشرة مواعز وعشرين شاة..

قال «طراد» قولاً شهيراً تحفظه الصحراء كلها: «إن كانت

(*) الذلول: ناقة الركوب.

twitter @mjanen٢٣

«قطنة» قد تركت سطام من تلقاء نفسها أعطيك ثلاثة أضعاف ما طلبت، أما إذا تركته رغما عنها عماني الله إذا نظرت إلى وجهها».

لما رجع الراعي كانت «قطنة» تقرب أول قطعة من لحم الجدي إلى فمها، هتف الراعي بلهفة السؤال: «قولي يا«قطنة» بأنك تخليت عن سطّام من تلقاء نفسك»، لم يفت «قطنة» الحديث الذي دار بين الراعي و«طراد»، قبّلت قطعة لحم كانت تهم بأكلها امتناناً للراعي وألقتها على الرمل، كان الراعي آخر من رآها.

في ذلك الفجر بالذات بَرَحَ عن شماله قطيع غزلان إلى يمينه والعرب يتشاءمون من قطيع الغزلان البارح... وتمضي آلهة الصحراء عارية، أشباح اللات والعزى ومناة من طين وكبرياء.

مطلقٌ هو الحب، والكلمات هناك ليست حُليّاً، إنما كائنات من روح ودم تلبس حرير مصبوغ بالعاطفة.

خرجت «قطنة» إلى «ذلولها» وغادرت على ظهره دون ماء أو زاد واتجهت صوب عتمة الصحراء.. الصمت التائه في وهاد الزمن.. حيث لا طرقات أو لافتات، فقط دروب افتراضية.. دروب يمكن أن تتمحي بعد أن تعبرها، أو درب حرون يقودك عبر انحناءات لطيفة إلى الصرامة بعينها.. ويمكن للدروب هناك أيضاً أن تتقاطع مع بعضها بشكل متحمس فتقف هناك لتمزقك الحيرة باحتقار فخور، ودروب تحدثك عن كل ما هو عابر. السراب مبتلّ بلعاب الشمس والأفق المرشوش بالأوهام يعلن عن بزوغ زهرة فريدة..

twitter @mjanen٢٣

أيضاً.. هنالك أشياء لا يقولها الذئب لأحد، تحديداً للغزالة، لا يخبرها كم أن الصبر يقضمه ليلاً وهو جائع وتتبدى له الغزالة كحلم، أيضاً يستمع لقرقرات معدته الفارغة يصمت جوعه إلى أن تلوح الغزالة، ولأن ذاكرته يحفظها بين أسنانه، يقتل الغزالة.

❖ ❖ ❖

«ومن المعروف أن أصل الخيول الإنكليزية الكريمة كافة يرجع إلى ثلاثة جياد عربية نقلت إلى إنجلترا في القرن الثامن عشر وهي بايرلي تورك ودارلي أرابين وجودولفين بارب.. وقد كان هذا الحصان من سلالة «معنقي» وقد أرسله توماس دارلي - وهو مندوب للمؤسسة التجارية الإنجليزية في حلب - سنة ١٧٠٥ م إلى أخيه السيد بروستر دارلي الذي لقب «فارس ألدبي بارك» وقد نشأت في هذا القرن في عدة بلدان أوروبية إسطبلات حكومية وخاصة للخيول العربية، إلا أنها كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى التهجين مع خيول عربية أصيلة»..

❖ أوبنهايم

«خَرْما» الفرس الدهماء مهرة الفرس «رفعة» والحصان «الرثوعي» انتزعها «فيصل» من ««طراد بن زبن» في حرب تواجهت فيها القبيلتان.

طعن «فيصل» غريمه وأوقعه أرضاً، صاح به «طراد»: «ياخيّال،

twitter @mjanen٢٣

امنع»، من عادة العرب في الغزو والحرب أنه يمكن للمطعون أن يطلب روحه دون أن يكون في ذلك انتقاصاً من رجولته و يعود القرار للطاعن، يومها اكتفى «فيصل» بانتزاع الفرس «خرما» وترك لـ«طراد روحه، وجرياً على عادة العرب، عندما يستولي البدو خلال معركة على خيول لقبيلة أخرى فإنهم يبعثون رسولاً منهم يتمتع بحصانة أكيدة في تلك الحال إلى القبيلة الأخرى ليستفسر عن نسب الخيول المسلوبة.

«فيصل» أرسل رسوله إلى «طراد» وتقصى تماماً عن نسب «خرما»، ولاحقاً أنجبت «خرما» مهرة تشبه الفرس «رفعة» وتوفرت فيها ميزة يعشق البدو توفرها بأفراسهم، فقد كان لون شفتها العليا فاتحاً مع لون داكن لبقية رأسها، أرسلها «فيصل» - كما يقتضي العرف البدوي - إلى «طراد» الذي أعطى الرسول الذي قادها إليه ناقة وعشرة شياه.

بعد اختفاء «قطنة» بثلاثة أعوام، قُتل «طراد».

قاد «طراد» تمرداً غريباً من نوعه. كان يعرقل صفقات مبيع الخيول العربية التي أصبح الأجانب مولعين باستيرادها لأسباب كثيرة ولعبة البولو التي يعشقها الانكليز كانت سبباً أساسياً لتصدير معظم الأفراس الرشيقة إلى بومباي في الهند. رفض «طراد» خروج الخيول ذات الأصول النجدية الصرفة إلى بومباي لأنهم كانوا هناك يضرّبونها بخيولهم. ورفض معاملة الخيول كما تعامل الماشية حيث اكتشف أن

twitter @mjanen٢٣

الأجانب كانوا يقومون بتوسيم الخيول على أكتافها. قُتل «طراد» بيد ضابط انكليزي كانت مهمته جمع الخيول الأصائل وإرسالها إلى انكلترة. حدث ذلك خلال رحلة إلى عمّان واختفت الفرس «رفعة» إلى الأبد، فيما السراب يتنكر بهيئة جواد شديد الغرور تحته الكثبان تسفيها الريح ومع كل شكل جديد تأخذه، تنقل رسالة.

twitter @mjanen٢٣

مـــــــراية

«خاضت عنزة خلال تقدمها في الصحراء السورية معارك كثيرة. وهناك حكاية تصف الحرب الدموية التي اضطرت إلى خوضها ضد الموالي، سادة الشمال آنذاك. بالمقابل، يبدو أن احتلال سهل حوران لم يترك أي أثر يذكر في تقاليد القبيلة»..

أوبنهايم «البدو. ج١»

وتموج الصحراء بالحروب بين القبائل وثمة أموات مشهورون تعشقهم ذاكرتها مثلما تولع أيضاً بالحسناوات اللواتي يشعلن الفتن والحكايا فيما كل سراباتها متحفزة لكل تلك الحكايا لتصنع منها خرافة.. ويحلق اسم «مراية» ابنة «حمرا الموت» كحسناء جديدة تتأهب لدخول بدَن القصص والحواديت القادمة.

«مراية» مدللة أبيها وأشقائها زُفّت لعقيد حرب قبيلتها وواحد من أبناء عمومتها هو «رديني أبو الدندل». وثمة همس خافت دار على الألسنة يقول بأن «مراية» قد عشقت «جدعان» شيخ عشيرة من عشائر «العنزة» التي تستوطن الديرة الشامية وتتاخم ديرة الشمبل.

twitter @mjanen٢٣

«جدعان» كانت تجمعه صداقة قوية وعهد أخوة مع «رديني».

ظل «رديني» يحمل في قلبه حقداً خفياً على «جدعان»، وبين وقت وآخر يرمق «مراية» بنظرات مشككة طالما أرَّقتها. وتبدلت مشاعره تجاه «جدعان» وأصبح يتقاعس عن نجدته في حروبه.

وبعد فترة قليلة تواجها في معركة كعدوين ودارت الدائرة عليه وخلال المعركة أرسل «جدعان» فرسه إلى «رديني» لينجو بحياته بعد أن لاحظ خلال غبار المعركة أن فرس «رديني» تعبت وقد تخذله.

عقب ذلك بوقت قليل نشبت مشادة حادة بين «رديني» و «مراية» ويقال بأنه خوّنها وصارحها بما تتناقله ألسنة الناس سراً عن غرامها القديم بجدعان، لم تقبل «مراية» الإهانة وعادت إلي ذويها وطلبت من شقيقها الأمير «الذبلان»، الذي كان قد خلف أبيه أحمد بيك الموالي، أن يطلقها في الحال من رديني الذي يشك باخلاصها له ولتعاقبه أكثر أرسلت وراء «جدعان» ليتقدم لها وكان لها ما أرادت.

زُفَّت إلى «جدعان» وبفضلها عاد الأمان بين القبيلتين وظل «رديني» يكظم غيظه وحزنه وندمه على ما كان منه.

بين العتبة والمخدع يصطاد السراب سمكة بحراب الصبر في أغوار الكذب، أيها المتورم بالخيلاء، الريح تهب وبالأسئلة نصبح أذكى.

❖ ❖ ❖

twitter @mjanen٢٣

الغزو تقليد عتيق، حملوه من ذاكرتهم الوثنية وتحدّوا به الزمن، إنه عملية الانتزاع المموهة بالسطو التي تتم وفقاً لقوانين غير مكتوبة، شيء يشبه السرقة، لكنه ليس كذلك، ويشبه الغارة، لكنه غزو، ويتحول إلى حرب أو سلسلة معارك عندما تسيل الدماء. والدماء هي الشِراك التي تنتشر على خارطة التقاليد البدوية وتجر أفراسهم نحو هوتها.

الدم يتفاداه البدو بشدة خلال الغزو، لكن عندما يحدث ويخضل الدم غزوة ما، فإن نقطة الدم تلك لن تشربها الأرض كشيء يشبه رشفة أو لقمة، إنما كعقربة تتشبث بنصيبها من السمّ، ويبدأ تقليد الثأر عند البدو حيث يبدأ نزاع دموي وسنين عمياء وحشية طويلة.

وحولهم السراب مثل ذهول من فضة يمشي على امتداد أفق القدر.

قبل أن يقوموا بالغزو يرسلون «السوابير» وهي المفردة المقابلة للجواسيس، كشافة يستطلعون يقظة القبيلة المعادية ومقدار احتياطاتها وأمنها، على مشارف المضارب ينبطحون ويتقدمون ببطء صوب تخوم الهدف، وبعد ذلك يعودون محملين بخارطة ذهنية لما رأوه وعلى أساسها يقرر عقيد الحرب الغزو الذي عادةً ينقسم إلى قسمين: الأول يسمونه «الغوّار» وتكون مهمته السطو على الماشية بعد تجفيلها عمداً بإطلاق بضع عيارات نارية، ثم يسوقها بأسرع وقت ممكن، والابتعاد بها عن خطر عملية دفاع تنوي استردادها. والقسم الثاني

twitter @mjanen٢٣

يسمونه «الكمين» وفيه يشارك أبرع الرماة وأكثرهم جسارة في قتال فرقة «المدافعين» الذين يهبّون عادة لاستعادة ماشيتهم المسلوبة.

«الكمين» يشاغلهم حتى يضمن أن الماشية ابتعدت عن تخوم القبيلة المستهدفة، وتكون قد وصلت إلى فريق الهجانة الذي مهمته إيصالها بسلام ودون توقف إلى أهلهم، وينضم «الغوار» إلى «الكمين» في حماية ظهر الهجانة.

يقسِّمون كلاً من «الغوار» و «الكمين» إلى ميمنة وميسرة وقلب، والغزاة يتحاشون الاقتراب من النساء والعذارى والأطفال، وفي أغلب الأحيان يجري القتال خارج المضارب.

خلال الغزو يتصايح المتعاركون بنخواتهم وتعلو صيحات الانتخاء ويحدث أن ينازل أشخاص بعينهم، فينادي الطالب المطلوب بقوله «ياخيال» ويعرف بنفسه، وينادي شخصاً بعينه لينازله حتى لا يكون في ذلك غدر. لكن شخصاً بعينه فعلها اسمه «دويشر»، وغدراً دون منازلة وجهاً لوجه أردى الأمير «الذبلان» قتيلاً. ودية الأمير في العرف القبلي تعادل دية «ميّة وخيال» أي تدفع دية مئة رجل ورجل.

العرب جميعها عرفت بذلك ودرءاً لحرب دامية تحيل المنطقة إلى خراب، تدخل باشا حلب والمفتي وأشهر قضاة البدو وشيوخهم، وتقرر محاكمة القاتل في منزل شيخ عشيرة كبيرة تربطه قرابة المصاهرة مع الأمير «الذبلان». وكما هو معروف، القضاء البدوي سريع في

twitter @mjanen٢٣

مرافعاته عاجل في أحكامه، ينتهي خلال جلسة أو جلستين.

جرت المحاكمة في «ربعة» جدعان، ولأن صاحب الدم «جسّار» فإن «مراية» شقيقة «الذبلان» وابنة «حمرا الموت» أنهت المحاكمة بسرعة، حملت مسدساً لزوجها وبخطى سريعة حاسمة دخلت الربعة وسط ذهول الحاضرين، وأطلقت الرصاص على قاتل أخيها وأردته قتيلاً وهي تقول: «ياريت قتالك قتيل ودمه على دمك يسيل»، يجب أن يكون الثأر سريعاً قبل أن يجف دم القتيل. غضب الباشا والمفتي وغادرا، الباشا شتم البدو بكلمات غاضبة تؤكد أنهم متهورون وطائشون ومتوحشون..

بسبب تمردها ذاك تشاحنت مع زوجها وسمعت منه كلاماً لم تقبله، عادت إلى ذويها وطلبت الطلاق مجدداً وتزوجت مرة أخرى من «رديني أبو الدَنْدل» عقيد حرب قومه في ديرة «الشمبل».

بلحظة سرابية أنجبت «مراية» من «رديني» صبياً في ليلة اكتمل فيها البدر ولاح المريخ غير بعيد عن «مراية» وهي تسمي وليدها «دَنْدل» تطفو أفكاراً كثيرة حول رجل سيحب الطرقات الطويلة، يعشق الزائل، ويهجر الدائم، يسافر وراء الوقت البدوي، سوف يتعاطى «العبور» يقفز من متن معلوم إلى هامش مجهول، يصل إلى الهند ويترك في القلب طنيناً.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

عنقا. ليز. شمس

(إن البدوي يستحق ـ ولا شك ـ تعاطفنا ومساندتنا، إلا أنه علينا ألا ننسى أنه يشكل عراقيل في سبيل الانتفاع بالموارد الطبيعية الوفيرة في سوريا وبلاد ما بين النهرين، وإذا لزم الأمر فلا بد من التضحية به في سبيل تطوير هذه البلدان التي لا تزال الاستفادة الاقتصادية منها في طور البداية)..

أوبنهايم «رحلة إلى ديار شمّر»

في حياة كل ذئب هناك راع.

وفي حياة كل راع هناك ذئاب.

وفي ذمة كل الذئاب هناك حملان.

هاكم هذا الطراز الفريد من المعادلات، أينشتاين كان سيرغب كثيرا في معاينة نظريات البدو الرياضية عن كثب.

إذا ارتفع لهيب النار فوق النقرة إلى يمينك، فإن ذلك يشير إلى أن الريح ستعصف وتهب الزوابع و الأغبرة، وإذا مال لهيب النار إلى يسارك فإنه ينبئ عن هطول المطر والثلج في وقت قريب، وإذا دوّم حولك أو أمامك عندها ينبئ عن تفريج لكرب وعن فرح عرس، وإذا دوّم أمام

twitter @mjanen٢٣

الدفيئة دل على عودة مسافر، وإذا ما أطلقت النار كثيراً من الشرر أنبأت عن مطر غزير قادم يروي الأرض.

مثل تلك الأشياء يتعلمها أهل الصحراء مبكراً، لكن «عنقا» كانت بارعة باستخراج الفأل على الطريقة العربية البالغة القدم، من تحويم الطيور تعرف القادم، تقرأ طريقة ارتفاعها ورفيف أجنحتها، تراقب شكل جثوم الحجل وصوت الحبارى وركضها، وتنقلات طائر المريعي القصيرة بين العشب، تعرف أن الحمام والصعو خاص بالشيوخ والسادة، من تحليق الأوز تقرأ حال المسافرين وتشم رائحة الموت القريب، ومن علو الباز تتكهن بالزيجات القادمة.

نبتت «عنقا» خطوة خطوة وأخيراً وقفت مثل ضوء، ومن جديد تنشّق قوم الشيخ «سطام» رائحة الموت، ذكّرتهم بأمها «قطنة»، رأوا الموت ماثلاً أمامهم بهيئة ظبي مرعب الكمال، حين أتمت السادسة عشرة زوجوها لعقيد حربهم «رميح».

كانت الزوجة الثانية له، و«منشان عيون» أمها «قطنة» كان قد فقد اثنين من أشقائه، ومثل خط فاصل بين النور والعتمة، كان حبه لها، تُعجبه ويكرهَها، في الفراش يضربها ويقبلها.

مرت ثماني سنوات حتى حملت لأول مرة، ولمرتين أجهضت الطفل بسبب نوبات الضرب التي كان قد أدمن عليها «رميح». وفي فجر ليلة شتوية باردة رأت قطيع غزلان يسنح عن يمينها ذاهباً جهة الشمال والبدو يتفاءلون بقطيع الغزلان السانح، في ذلك الفجر بالذات هربت

twitter @mjanen٢٣

من «رميح» وقصدت منزل شقيقها، عبرت كل المخيم ووصلت الجهة الأخرى منه حيث بيت أخيها وهي بالكاد تمشي. وقال البرد كلمته، طرحها بفراش المرض ومع نوبات السعال الحادة خمَّن الجميع أنها قريبة من الموت. من حولها كانوا يتمنون ذلك فتركوها لمصيرها، زوجة أخيها وضعتها في الخدر متذرعة بأن ذلك يمنع عنها البرد واستغلت غياب الزوج في رحلة صيد مع عجوز لبناني مولع بالقنص يقصد مضارب العشيرة كل ربيع، منعت عنها اللحم، بالكاد سمحت لها بالخبز، رفضت حتى تقديم مغلي الأعشاب لعلَّ «عنقا» تموت، أطفال شقيقها الصغار كانوا يشفقون عليها ويختلسون لها بعض التمر أحياناً. ذات مرة قدَّم لها أحد الصبيان الصغار يربوعاً مشوياً أكلته بنهم، ومرة هرّب لها لحم جدي طازج، قست عليه أمه حين اكتشفت أمره وضربته.

بعدها امتنعت «عنقا» عن قبول ما يقدمونه لها خلسة حتى لا تعاقبهم الأم. حين عاد شقيقها من رحلته أقنعته زوجته بأن «عنقا» ستموت قريباً وأنها دخلت مرحلة الهذيان.

كانت نصف ميتة حين خرجت من الخدر وأبرمت اتفاقاً سريّاً مع العجوز «جرجس»، الصديق العتيق لأبيها، الذي كان قد أصبح طاعنا في السن، استغلت مرور جماعة من الغجر أو النَوَرْ كما يسميهم البدو وتنكرت بثياب واحدة من نسائهم كانت تغطي وجهها الذي شوهه الجدري، للمصادفة حدث أن تلك المرأة كانت قد توفيت حديثاً.

twitter @mjanen٢٣

بثلاث ليرات ذهبية اشترت كتمان جماعة النَوَرْ. عشرة أيام مدة رحلتها إلى دمشق معهم قضتها متبرقعة.

كان الوقت ربيعاً من ذلك الطراز الذي يسميه البدو ربيع «الفنجان» حين تغطي السهول والأغوار وتثملها بسجاد من العشب والزهر، ثمة واحدة من نساء النَوَر الضليعة بأسرار السحر كان يسميها البدو «حنّونة»، اعتادت الارتزاق من صنع التمائم وممارسة شتى الشعوذات التي تعشقها كل نساء الأرض إذا ما كانت تلك الشعوذات كفيلة بسحر الرجال، «حنّونة» باعت «عنقا» أسراراً سحرية كثيرة ومقابل مبرومة من الذهب تنتهي برأس أفعى عيناها من الفيروز، تعلمت «عنقا» كل ما أرادته من أسرار، وكانت أول تعويذة تخبئها تحت كَمَرِها الصوفي تميمة تحتوي هيكل طائر، ووحدها «عنقا» تعرف نوع ذلك الطائرَ عدا «حنّونة».

في العراء التام حين النّوَرْ يفترشون الأرض ليلاً انتبهت في العتمة كيف تمرق المذنبات، والنجوم تختلس النظر إلى بعضها سرّاً وتبحث عن شيء ضائع في خاصرة الأرض.

- يمكن أن تكون النجوم أقرب إليكِ من البشر. تقول لها «حنونة»، و «عنقا» تنصت في صمت الليل، تتابع «حنونة»:

- انظري عبرها اعبريها من طرف إلى طرف.. النجوم تحيا وتموت. حين يزداد بريق نجمة وتصبح باهرة الألق فإن ذلك يدل على موتها القريب، النجوم قبل أن تموت تزداد جمالاً.

twitter @mjanen٢٣

«عنقا» تهرش جسدها المزدحم بالقمل وتتابع الانصات لحكمة «حنونة» في هذه الحياة. تقول «حنونة» من جديد:

ـ أيضاً انصتي إلى الريح حين تبكي جذعاً يابساً وورقاً متلاشياً.

تهز «عنقا» رأسها مستفهمة فيما تنهض «حنونة» لقضاء حاجتها تتعلق بها «عنقا» وترافقها.. كانوا يسلكون درب القوافل العتيق إلى دمشق حين أعربت «عنقا» عن حزنها لدى مرورهم في بقعة تتناثر فيها هياكل عظمية، بعضها داثر قديم وبعضها الآخر جديد، وثمة عظام لبشر وأخرى لحيوانات نافقة، وسألت «عنقا» رفيقتها «حنونة»:

ـ نحن نرحل دائماً لتعيش إبلنا ومواشينا، لكن أنتم النَّوَرْ تتكلمون بينكم لغة لا أفهمها وترحلون دائما، جاهزون للمغادرة في أي وقت لماذا هذا الشقاء لأجل لا شيء.

تقول «حنونة» وهي تنفض التراب عن كمأة عثرت عليها بين خطواتها، تأكلها، و«عنقا» تنهرها وتؤكد أن الكمأ لا يؤكل إلا مشويا أو مطبوخاً، «حنونة» لا تلق لها بالاً وتقول لـ«عنقا» :

ـ نرحل، نتعب، نتعرق.. حتى لا يتسع لنا الوقت لنبكي أو نحزن، حتى حزننا عابر مثل دروبنا وكل حياتنا.

مقابل بقية مصوغاتها الذهبية أوصلها جماعة النَّوَرْ بأمان إلى دمشق. تحديداً إلى محطة العجلات «الدالي جُنّصْ» وتعني الديليجانس أو العربات الطويلة التي تجرها ستة خيول تبدِّل نحو اثني عشر مرة أثناء سفرها من دمشق إلى بيروت وبالعكس.

twitter @mjanen٢٣

هناك كان ينتظرها صديق والدها العتيق «جرجس» المولع بالصيد، لم ينقطع عن رفقة سطام لمدة تزيد عن الثلاثين سنة. يقضي فصل الربيع متجولا معهم، عادة كان يعود «جرجس» إلى بيروت مع أول أيام القيظ، لكنه في تلك السنة قصد بيروت عائدا على أمل إنقاذ «عنقا» التي عرفها منذ صغرها، ورأى أن ثمة جريمة حقيقية في تركها لمصيرها بين قوم يكرهونها لأسباب تاريخية لا ذنب لها فيها.

«عنقا» كانت في خضم لعبة شطرنج اختلطت فيها البيادق، الحصان أخذ دور القلعة والفيل راح يقفز خبباً كحصان، والجنود نصّبوا أنفسهم ملوكاً.

twitter @mjanen٢٣

جرجس

«جرجس»، خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، تزوج قريبته «روز» وقصد مصر ليكون من جملة خريجي الجامعات الأجنبية الذين وجد فيهم الخديوي اسماعيل في سبعينات القرن التاسع عشر موظفين أكفاء في محاولته عصرنة مصر، وشهد «جرجس» مع عروسه «روز» افتتاح قناة السويس.

خلال عشرين سنة من العمل في مصر، جمع ثروة معقولة وعاد إلى بلده ليحدِّث معمل الحرير الذي كان لوالده، وعمل في مجال تجارة الخيل، إيصال الخيول بأمان إلى مرفأ طرابلس. الخيول كان يشتريها الأجانب من لوردات وكونتات وأثرياء، يعثرون على ما يريدون من خيول في حلب ودمشق وأحياناً عمَّان، وتترك أمور توصيلها إلى التجار المحليين. خلال ذلك تعرف إلى الشيخ «سطام» في عمَّان. وهناك سمع الجميع يتحدثون عن «قطنة» والحرب التي تسببت بها.

وبعد عدة سنوات كان قد واظب على قضاء الربيع بين مضارب «سطام»، وكان يسمع عن «عنقا» التي تكبر ويزداد الحقد حولها.

twitter @mjanen٢٣

في المستشفى الألماني في بيروت عادت تشمخ من جديد، في وجهها تلمع عينا نمر، حلّتا محل عيني الظبية التي كانتها، في المستشفى أعجبها أن الغرف لها سقوف.

وقفت على ناصية الرفض العنيدة، لن ترجع إلى «رميح» وظلت تتذكر ما قالته لها «حنونة» قبل أن تودعها إلى الأبد: «البخت مثل امرأة.. امرأة في ثدييها حليب للجميع، قد لا تستطيعين الصفح لكن لا تطلبي الثأر»..

وثمة عبارة بعينها رسخت في ذهنها أكثر من غيرها قالتها «حنونة» ذات مرة: «القدر مثلنا يشبهنا نحن البشر إنه مثلك أنت، ذو الوجه الواحد وذو كل الوجوه»..

راق لها الدغل الحضري، بدأت تغزل مخططاً جديداً لحياتها وكان قرارها نهائيا حين رأت البحر، سَحَرها الزبد، رأته شيئاً كثيفاً، صامتاً، نقياً، والأفق يشف، يهتز وئيداً، فلاة من ماء، سألت العجوز «جرجس» الذي كان يتأهب لإرجاعها إلى ديارها:

- هل هذا ريش؟..

- لا، هذا زبد.

- ماذا في البحر؟!..

- دلافين وحوريات يغوين البحارة الثملين.. وخطر وعواصف..

- نحن لا نركب البحر.. هل حقاً هذا الشيء الأبيض زبد؟!..

- نعم إنه زبد.

twitter @mjanen٢٣

لم تقتنع.. وجدت أن البحر يشبه الصحراء، انتقلت إلى منزل «جرجس» تقضي فترة نقاهتها، كشطت ذاكرتها الصحراوية، سموها «ليز» على اسم ابنتهم المهاجرة في الأرجنتين.

كانت عائلة «جرجس» بكاملها مهاجرة، لهما ابنان في التشيلي، وافقت على اسم «ليز» عندما أخبروها أن معناه «المحبوبة من الرب».

بفضل معارف السيد «جرجس» ومكانته المرموقة في جبل لبنان استطاعت أن تعود إلى المستشفى لتبدأ التدرب على مهنة التمريض، وبعد ثمانية أشهر أصبحت ممرضة في مستشفى تابع لفرقة «يوحنا البروسية».

قصت شعرها الكستنائي من الأمام، وغطت جبهتها بغرة كثيفة وتركت جدائلها منضدة أسفل عنقها من الخلف، وأصبحت ترتدي القبعات المخملية السوداء المائلة للخلف والمسطحة من الأعلى وتحيطها مع وجهها بقماش الكشمير، وارتدت قمصان الموسلين المذهبة والمفضضة وتلك القفطانات الطويلة التي تنسدل طبقتين من القماش الملون.

انتبهت إلى أن الأماكن حولها لم تعد شاسعة كما السابق، فجأة انتبهت إلى «الزمن»، وتأكدت بأنه الأكثر حضوراً والأكثر زوالاً. لم يعد العراء المطلق حولها متوفراً لتقضي حاجتها كما اعتادت سابقاً، وبصعوبة تعلمت التأقلم مع «المرحاض» والنوافذ والأبواب،

twitter @mjanen٢٣

إقفالها وفتحها أو تركها مواربة.

حين حلَّت «نعيمة» مع شقيقها «خوسيه» ضيفين مؤقتين في منزل «جرجس»، كانت قد مرت سنة على مغادرة «عنقا ـ ليز» لصحرائها وأصبحت ممرضة بارعة بمداواة الجروح، تقطب وتخيط، تعجبت الراهبات من جرأتها لمرأى الدم، لم تكن تخشى الدم مطلقاً.

انخرطت بمساعدة «نعيمة» بالتجهيز لعرسها الذي ستجري مراسمه في سانتياغو التشيلي، ستعبر بحراً هائلا لتلاقي زوجها المستقبلي ابن السيد «جرجس».

لم تتوقع أن الرجال يمكن أن يكونوا ممتعين بعد سنواتها المريرة مع «رميح» لكن «خوسيه» الشاب الوردي البشرة، لم يكن ليدع شهور انتظاره للمغادرة نهائيا إلى أرض لا يعرفها، تمر دون أن يلين ممانعة ضيفة عمته، التي تتحدث بلكنة غريبة ومعصم إحدى يديها يزينه وشم غريب.

بعد حوالي شهرين استطاع أن يقنعها بتجريب الحب، وفي فراش «خوسيه» أصبحت أنثى أخرى، صاعداً مرة وهابطاً مرة، هكذا ترقرق «خوسيه» بين فخذي «عنقا» وهي عائمة في ذهول الذروة لأول مرة في حياتها، تركت حصانه يمضغ عشب قاعها. أصبحت تنام وتبحر عميقا في الحلم بعد أن يعوي جسدها نشوة.. وتسأل نفسها: «عجباً لماذا عضو رميح كان يؤلمها وحسب».

حفظت بضع كلمات روسية عن الحب من تلك الكلمات التي

twitter @mjanen٢٣

كان «خوسيه» قد تعلمها خلال صغره في معهد القديس جاورجيوس في حمص الذي كان يحظى برعاية مباشرة من قيصر روسيا.

كان يحكي لها كل شيء، رغم أنها لم تكن تعرف الفرق بين أستراليا ونيويورك لكنها ضحكت كثيراً، حين شرح لها حكاية أغنى لبناني في أستراليا بقي هناك مدة سنتين قبل أن يدرك أنه ليس مقيماً في نيويورك، وذلك أن أحد وكلاء سفر في مرسيليا أخطأ فوضعه على مركب مسافر إلى أستراليا بدلاً من نيويورك.

حين وقفت مع السيد «جرجس» وزوجته تلوح مودعة لسفينة متجهة إلى مرسيليا، بعدها ستغادر إلى الأرجنتين، ندمت على الأيام الطويلة التي تركتها تذهب سدى فيما «خوسيه» مؤرق من اشتهائه لها. كان ذلك تقريبا في عام ١٩٢١.

بعد ستة شهور من مغادرة خوسيه ونعيمة وصلت رسالة طويلة منه، قرأها «جرجس» بصوت عالٍ وسمعت حكايته مع البلد الغريب، كيف وصل الأرجنتين ومنها عَبَرَ إلى التشيلي. طبعاً كانت تلك المرة الأولى والوحيدة التي تسمع فيها بجبال الأنديز. عبرها «خوسيه» على ظهور البغال وقطع ما يُسمَّى «معبر المحررين». وحكى لهم كيف كان يغتاظ حين يدعوه أحد «توركو».

لم يخبرها أحد عن بيروت أنها مدينة تجارية فينيقية مغرقة في القدم بناها الرب «إيل» ودعاها باسم زوجته الربة بيروت ويقال أنه وهب بيروت لإله البحر «بوسيدون» وللجبابرة الذين اخترعوا فن

twitter @mjanen٢٣

الملاحة. و ثمة كتابات محفورة على الصخر تؤرخ لكل الغازين الذين مروا بها ، ألواح هيروغليفية لفراعنة مصر و نصوص بالمسمارية حفظت تاريخ ملوك آشور.. وكتابات اغريقية ونقوش تؤرخ لأباطرة روما.

«عنقا ـ ليز» أحبت بيروت ورائحة زهر الليمون حيث حموضة منمقة، حادة، رهيفة تنفذ إلى الذهن. تعرفت على تركيب العطور من السيدة «روز» زوجة العجوز «جرجس». أيضاً لم يخبرها أحد أن بيروت واحدة من مرافئ الشرق التي صدَّرت العطر إلى روما وأن أوروبة مرت عليها عصور طويلة لا تعرف فيها العطر عدا الأندلس، إلى أن حدث وأخذه الصليبيون معهم إلى بلادهم، وبدأت تلك الأرض تتنشق العطر وتصنعه. السيدة «روز» أخبرتها عن المسك الذي تعشقه أنوف البدو منذ عدة آلاف من السنوات وهم ينقلونه للعالم على ظهور إبلهم، إن المسك هو مادة يفرزها أيل المسك ليجذب الأنثى. وأن كبش القرنفل يجلب من بلد اسمها زنجبار والبلسم يأتون به من مدغشقر، و«عنقا» أخبرت «روز» أن البدو يضعون العطر في حالتين: قبل الحب وقبل الحرب لأنه يدفع على الإقدام.

«روز» كانت قد كرست معظم وقتها لأجل التعليم و تطوير المدارس الابتدائية. منذ تلك الفترة التي جاءت فيها المعلمة التركية «خالدة أديب هانون» مصطحبة معها أكثر من أربعين معلمة لتحسين وضع تعليم الفتيات في حلب ودمشق وبيروت. فأسست في بيروت «دير الأخوات الفرنسيات نوتردام الناصرة» معهداً لإعداد المعلمات

twitter @mjanen٢٣

و«سلطانية» أي مدرسة متوسطة للبنات. كان قد حدث ذلك في السنوات الأخيرة من الاحتلال العثماني.

مع السيدة «روز» زارت «عنقا» دار اليتامى الكبيرة في عينطورة. كانت السيدة «روز» تتبرع سنوياً للدار، استغرقت الرحلة عدة أيام، خلالها حلّت «عنقا» مع «روز» ضيفة على بيتين وحضرت حفل زفاف راق لها كثيراً وشربت «العَرَق» ونامت في تلك الليلة وهي تظن أنها في الفردوس، وفي سهرة أخرى منعتها «روز» من شرب «العرق» ثانية متذرعة أنه مشروب الرجال. خلال طريق العودة إلى بيروت لمحت «عنقا» طيراً جارحاً يحوّم يمينها، ظل كذلك لوقت من الزمن والجارح لا يحوّم إلا يميناً، بعدها بقليل واجهتهن عاصفة رعدية ربيعية مفاجئة وحين سمعت المكاري يسأل «روز» إذا ما كانت توافقه على سلوك درب تذهب جهة اليسار لمتابعة الرحلة. تدخلت «عنقا» وسألت إذا ما كان هنالك طريقاً يمينياً يقود إلى المدينة؟!.. أومأ المكاري لها موافقاً وأصرت على سلوك تلك الدرب وسط تعجب «روز» وحين شرحت لها أن الجارح كان يحوّم يميناً لم تقتنع، لكنها كانت مسرورة أنهما وصلتا الدار بأمان حيث كان ينتظرهما «جرجس» متوجساً.

أيضاً حضرت «عنقا» الحفلات المسائية التي كانت تقام في حديقة رستم باشا، وشربت القهوة في «كفي خانه» أيضاً ضحكت حين حكت لها السيدة «روز» كيف عرف الأوروبيون القهوة، عندما مني الجيش التركي بهزيمة أمام الجيش النمساوي وفرّ الجند

twitter @mjanen٢٣

وتركوا وراءهم كميات كبيرة من القهوة. يومها سألت «عنقا» السيدة «روز» «هؤلاء الاوروبيون هم عرب»؟!.. أجابتها «روز» بابتسامة وعادت تحدثها عن العطور.

رافقتهما في جولاتهما الطويلة في أنحاء لبنان حين كان «جرجس» يعمل مع مجموعة من رجالات لبنان على إعادة تشجير الجبال التي راحت أخشاب غاباتها ضحية تشغيل القطارات. كان الأتراك قد شجعوا ذلك بطريقة خبيثة. كان باستطاعة التجار الأغنياء تحرير أبنائهم من الخدمة على الجبهة إذا ما قدموا كمية معينة من الخشب على حسابهم الخاص.

تضررت غابات بعبدا وعاليه وبحمدون وعين صوفر والبيدر والمعلقة ودير الأحمر كذلك غابات البلوط في جبل الكرمل قرب حيفا وكذلك الغابات في الضفة الغربية على امتداد وادي اليرموك، وفي محيط تل الشّمان وعجلون. وفي فلسطين حيث لا توجد غابات، قُطعت بساتين الزيتون القديمة في اللد والرملة وغزة. هذا عدا عن الحرائق التي أتت على حقول مزروعة بالحبوب على امتداد الخط الحديدي بسبب الشرر المتطاير من الخشب المحروق إلى أن حظرت زراعة الحبوب على مسافة مئة متر على يمين ويسار سكة الحديد.

وقضت «عنقا» أوقاتاً طويلة وهي تتصفح أعداداً قديمة من مجلة «هانم لار» التركية التي كانت تحتفظ بها السيدة «روز». لم تكن تعرف القراءة لكنها كانت تمعن النظر في صورها ورسوماتها

twitter @mjanen٢٣

لساعات طويلة. حتى المخطوطات التي كان السيد «جرجس» مغرم باقتنائها سريانية وفارسية وأرمنية وقبطية وحبشية وتركية، لم تنج من فضول «عنقا».

«عنقا» استطاعت أن تتمختر بالكعب العالي، وعشقت الثياب الجديدة التي صارت ترتديها. كان واحد من ضيوف «جرجس» الدائمين الأب لويس من الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، درس في لبنان وأوروبة قبل أن يصبح يسوعياً وأستاذاً للغة العربية في جامعة القديس يوسف. ذات مرة قال الأب العجوز لـ«عنقا» وهو يراقبها كيف تمشي بحذاء أوروبي كعبه عالٍ: «كان هنالك شاعر لا أظنك سمعت به، اسمه ناصيف اليازجي، وصف في أشعاره اختباره عندما استعمل سكيناً وشوكة على المائدة وشبّه نفسه بامرأة بدوية تلبس حذاء له كعب رفيع عال، لو أنه رآك الآن لأجرى تعديلات على شعره ذاك بالتأكيد».

أيضاً علمت «عنقا» من ضيوف «جرجس» أن سمعة البدو غير محمودة. ذات مرة قال لها أحد الضيوف: «البدوي لا يمدح إلا نفسه وفرسه ومهنده وصارمه، وإذا افتخر فبأهله وعشيرته، فهو يتغنى بانتصارها ويعدد مناقبها ويهجو العشائر الأخرى ويعدد مثالبها».

جلسات طويلة قضتها مع «روز» في تعلم القراءة لكنها لم تفلح كثيراً في تهجئة الحروف. علمتها «روز» كيف تكتب اسمها «ليز» وبعد أن جربته بصعوبة بالغة طلبت أن تعلمها كيف تكتب «عنقا».

twitter @mjanen٢٣

في وسط صمت وهدوء منزل العجوزين «روز» و«جرجس» كان يُسمع صوت «عنقا» وهي تتهجى الأحرف وكانت أول عبارة استطاعت قراءتها وأعجبتها كثيراً عبارة تقول: «تعرفون الحق والحق يحرركم» كانت شعاراً لجريدة البشير التي يصدرها اليسوعيون تملؤها مواضيع اجتماعية وسياسية. لاحقاً اكتفت «عنقا» بقراءة العناوين التي لم تكن تفهم مضمون معظمها وقالت متحسرة لـ«روز»: «لو أن البدو يتعلمون القراءة في صغرهم».

❖ ❖ ❖

قال سعدا بنت سلطان تونس
بدمع جرى فوق الخدود غزار
ضربت تحت الرمل عشرين مرة
ومرة بعدها شفت الحروف جهار
فعرفتكم وعرفت اسم أميركم
و عرفت أساميكم بلا انكار

تغريبة بني هلال

ثلاثة أعوام بالضبط مرّت على عنقا - ليز في بيروت، حين تلقت نصيبها من القدر البدوي.

ذات صبح في طريقها إلى عملها استوقفتها طيور النورس فوق

twitter @mjanen٢٣

البحر وفي طريقة تحويمها قرأت شيئاً، وبعدها بيومين كانت مع عائلة مضيفها في زيارة إلى الجبل، في طريق العودة لمحت بازاً، وقرأت مجدداً الشيء ذاته، وخمّنت أن عصافير السعادة تمر من خرم لم تحدس وجوده قط..

وجاء صباح شمّتْ فيه رائحة غريبة بالمستشفى، رائحة دخان وبارود، وعرق ذكوري، تلك الرائحة بالذات لا تخطئها، رائحة بدو.

في باب واحدة من غرف المرضى كان هناك بدوي في الثلاثينات من عمره يحيط منكبيه بعباءة منسوجة من المرعز الأنقري الطويل الشعر، لها رائحتها الخاصة التي شمتها «ليز» أيضاً.

كان لابد أن تمر قربه لتعبر الباب وتتفقد ضماد بدوي آخر ستيني كانوا قد أجروا له عملية جراحية في إحدى عينيه.

سرى كالدم خوفها، لم تعرف كيف انزلقت أصابعها صوب ساعدها في حركة مرتبكة لإخفاء وشم «المخدة»، الوشم الذي كانت نساء البدو يحرصن على وشمه على سواعدهن لتضمن المرأة أن يكون ساعدها مخدة زوجها الدائمة.

بصعوبة نجحت بإنزال كُمّي مريولها، لم تكن متأكدة من أنها نجحت بإخفاء وشمها، لكنها كانت على يقين حين مرت من أمام الرجل الواقف عند الباب أن جدران قلبها انفتحت.

فكت الضماد بصمت وأجابت على أسئلة العجوز البدوي بايماءات من رأسها أو حاجبيها، الرجل الآخر ظل واقفا يعبث

twitter @mjanen٢٣

بخيزرانة، عبرت مرة أخرى من أمامه وهي خارجة، لم تمنع عينيها من التقاط نظرته، أنفه مثل مخلب متكبر وعيناه بلون عاصفة ذهب، في تلك الليلة لم تنم، وفي صباح اليوم التالي دخلت مكان عملها وهي ممتلئة برغبة واحدة: أن تراه.

كانت فَرِحة، وخانها لسانها أروع خيانة ممكنة، دندنت بصوت خفيض حداءً بدوياً معروفاً: «ماريد أنا ركب الذلول.. أريد أنا حمراً سريع ورادها». خلال ذلك كان يمشي وراءها، حين قبض على معصمها كانت تعرف أن بدويا لا يمكن أن يفوته وشم «المخدة»، وقال: «لو عرفنا الاسم سلَّمْنَا» جاوبته دون تردد: «لو عرفنا الاسم لرددنا السلام» ويجاوبها قائلاً: «أنا حرٍّ لِكْ، مذكورٍ لِكْ، مكحول العينْ بلا نيلِ»، وتجاوبه هي: «أنا السّحَلة، براس النخلة، ما تقواني يامسكين» يبتسم وهو يقول لها منتصراً: «أنا الرَّقايْ ابن الرَّقاي، أحَسْكَ الشوك بسكيني».

هو لم يعشقها فقط، أيضاً سممته، تصدرت لائحة فضوله، أخضعته، جرفته، نهبته، منذ ذلك الصباح لم يسمح لها أن تبتعد عنه، في قلبها نبتت سنبلة، رمت مريولها الأبيض إلى الأبد وأمام ريش البحر حكت له حكايتها، كان اسمه «دَنْدَل».

وحكى لها بعضاً من تاريخه كبدوي نادر درس في اصطمبول، يعرف أن فرنسا وانكلترة بلدان منفصلان. فأضافت له تقول بنديّة: «أيضاً تركية وأوربة بلدان مختلفان» كذلك فطن لأهمية المال

twitter @mjanen٢٣

مبكراً ولم يعش حياته كبدوي تقليدي، كان من أشهر نسَّابي الخيل، يكفيه النظر بعين الحصان ليعرف طبعه وأصالته وصحته. عمل بتجارة الخيول ووصل إلى أقاليم في الهند لم يزرها بدوي قبله وكان معجباً بالمراكب الأجنبية التي تمخر دجلة والفرات وتقطع البحار وتصل الهند.

احترف مرافقة الخيول العربية التي يصدِّرها الانكليز إلى الهند. فمنذ عام ١٨٨٠ بدأت تلك التجارة لأجل لعبة البولو ووقع الضباط الأنكليز ولاعبو هذه الرياضة التي لا تجري إلا على ظهور الخيل بغرام الأفراس العربية الصغيرة الحجم والرشيقة، وصارت بغداد خلال الموسم الواحد تصدِّر إلى مرافئ الهند أكثر من ثلاثة آلاف حصان، «دندل» كان قد أقلع عن ذاك العمل مع شركة الملاحة البريطانية بسبب حادثة رواها لـ«عنقا» على النحو الآتي:

في آخر رحلاته مع إحدى بواخر الشركة واسمها «البمبا» التي كانت تقل حمولة ضخمة من الخيول العربية مع مجموعة من البدو لا تتجاوز العشرة رجال كان هو بينهم، أحد الضباط الانكليز المشرفين على الحمولة أهان واحداً من البدو الذين لم يتعودوا على النظام وحدث أشهر تمرد في تاريخ شركة الملاحة. وكان أن استشرس البدو واضطروا الضباط والبحارة بعد أن أصيب عدد منهم بجراح بالغة للاحتماء بالقمرة، وظلوا هناك متحصنين دون أن يجرؤوا على الخروج وظلت الباخرة عدة أيام تجوب البحر على غير هدى، إلى أن نجح أحد

twitter @mjanen٢٣

الضباط في لفت انتباه زورق حربي كان يقوم بجولة تفقدية روتينية في الخليج العربي واضطر إلى مهاجمتها والاستيلاء عليها وأخذها إلى بومباي. لم يصب أي من البدو بأذى لخوف الانكليز من ردات فعل انتقامية قد لا تنتهي مع القبائل المختلفة التي تنتمي إليها المجموعة التي كانت على ظهر الباخرة. واكتفت القيادة بتبديل طاقم البحارة والضباط وعادت الباخرة محملة بالسكر والنحاس والحبال والأدوية، ومن مدينة بوشهر حملوا التبغ والفراء والصوف، كانت تلك الحمولة لحساب باشا بغداد. وعندما عادوا وطالبوا باجورهم أعطاهم حصتهم صابوناً وتتناً واحتسبه عليهم بأسعار عالية بحيث باعوه في السوق بنصف ما احتسبه عليهم. وبينما كان الباشا مشغولا باستقبال جاسوس أجنبي بهيئة سائح محب للآثار، وأثناء تناولهم لعشاء مكوَّن من القوزي، قام «دنْدل» مع رفاقه من البدو المغبونين بنهب اصطبلات الباشا وحدثت أشهر حادثة سطو في بغداد وساقوا أمامهم عشرات من الخيول الأصيلة وباعوها في حلب.

وقرر «دَنْدل» أن تلك الرحلة هي آخر رحلة يقوم بها تحديداً بعد مقتل عمه وولده الوحيد في حرب قبلية، فكان عليه أن يأخذ مكانه في زعامة العشيرة.

كان هو من قبيلة «غنّامة» شمالية نصف مرتحلة، والعشائر الغنَّامة قلَّما تحتك مع العشائر الأخرى الجمّالة أو «أهل الوبر» كما يطلق عليهم الغنّامون، بينما كانت «عنقا» من قبيلة جمَّالة، نادراً ما

twitter @mjanen٢٣

تلاقي القبائل الغنَّامة التي لا تدخل عمق الصحراء ويقتصر تنقلها على أطراف البوادي، وأخيراً قال لها وهو ينظر إلى البحر الفسيح أمامه: «خلال رحلاتي وتجوالي الطويل تبينت رأي الحضر بنا، يقولون إننا نحب الفوضى والخلل ولنا طباع نزقة ومزاج عصبي.. ونهوج للشيء التافه وكسولون نحب شرب القهوة وسماع القصائد، أتعرفين أننا قد نصبح قريباً بشر نسكن بين الحيطان ونعيش على أرض ثابتة».

باستنكار تقول «عنقا»: ـ أي فلاليح؟!..

لم تنس قط أنها ابنة عشيرة جمَّالة من أولئك البدو الملتصقون بالصحارى، لايفارقونها ولا يتاخمون المدن، وإن حدث تكون مناوشات لنهب أطرافها، وإن استضعفوها، اجتاحوها وسلبوها، وعادوا إلى صحرائهم يقتسمون الغنائم وهؤلاء عرف عنهم احتقارهم للعشائر الغنَّامة لاقتنائهم المعز والغنم دون الإبل ويقولون عنهم: «رعية».

دَنْدل أكد لها أن الحكومات قريباً ستحظر الغزو بين القبائل حظراً تاماً ولن تظل البوادي والصحارى على حالها، وسيأتي وقت يهجر فيه البدو الأبعار والظعون والأسفار: «لن نكون بعيدين الظعنة، واسعين الطعنة، أهل السنان والعنان».

أسرتها عيناه الملونتان بأخضر ممزوج بالعسلي، ألوان هذه العيون عادة تتوفر بين بدو سورية العتيقين، العرب ذاتهم الذين شكلوا عماد دولة زنوبيا، تدرب عندهم أمراء تدمر وحاربوا مع «أذينة» ومعهم واجهوا «سابور الفارسي» وهزموه قبل وصوله إلى الفرات، وحوّلوا

twitter @mjanen٢٣

انسحابه إلى فرار واستولوا على كنوزه وحريمه، وعبأتهم «زنوبيا» في وجه الرومان ووزعتهم في ثلاث معسكرات حول تدمر.

ودّعت «عنقا ـ ليز» عائلة السيد «جرجس» وبيروت، بعد جولة شراء خلالها اشترت الكثير من الجوارب والقفازات، وعدة خياطة وتزيين من كنف وأزرار ومواد صيدلانية وعقاقير ومواد كحولية، وأخذت نرجيلة فاخرة وعطوراً قوامها الليمون والياسمين، ومن مكتبة بيروت العمومية أخذت قائمة الكتب الكاملة التي دونتها لها السيدة «روز» بطلب منها وهي تقول: «طالما هنالك في العالم فرنسيين وانكليز فعارٌ على عرب الصحراء أن يظلوا يجهلون القراءة، سأحضِّر مكتبة لأبنائي وأحفادي لأنهم لابد سيقرؤون». فملأت كيساً من القماش الكسرواني المطرز، أهدته لها واحدة من قريبات «روز»، بمجموعة من الكتب، «دواوين للمتنبي وأبي تمام والخنساء وحماسة البحتري ونقائض جرير والأخطل وتاريخ دمشق لابن القلانسي ومقدمة ابن خلدون ومعجم محيط المحيط لبطرس البستاني ومجاني الأدب في حدائق العرب».

حين اعترض «دَنْدل» الذي كان يعرف قراءة التركية دون العربية قائلاً: «بأن لا أحد يعرف القراءة ليفهم تلك الكتب فلماذا تأخذها»؟!.. قالت: «سيأتي يوماً من يستطيع قراءتها».

أصرت على شرائها، كذلك أخذت مجموعة من الشوك والسكاكين الجزينية ذات المقابض المصنوعة من العظم المطعم

twitter @mjanen٢٣

بالفضة والنحاس، وهي تبرر لـ«دَنْدل» قائلة: «سيزورنا من يأكل بهذه الأشياء».. وغادرت بحر بيروت الذي أحبته مدة ثلاث سنوات، ومع رجلها النهائي رحلت صوب حياة جديدة مباغتة.

في دمشق قضت ثلاثة أيام مع «دَنْدل» نزلا أثناءها في «لوكاندة السرور». لاحظت أن صاحب الفندق يتبختر بلباس أجنبي وطربوشه عثماني وأركيلته شامية و قد زيّن الجدران بالأغباني، في أول يوم قصدت حمام الملكة و «دندل» ذهب إلى سوق الخيل.

اليوم الثاني ذهبا إلى سينما زهرة دمشق. وفي اليوم الثالث تجولا في الأسواق وتناولا غداءهما في مطعم الأمراء في سوق الخجا.

«عنقا» قضت ثلاث ليال بين ذراعي «دندل» وهي لا تصدق أنه يسعدها أكثر من «خوسيه».

من حماة اشترى لها جهازها كعروس، أخذ لها العقد المفضل لدى بدويات بادية حمص وحماة، كن يسمينه «لُبّةْ»، وذلك السوار المجدول بجديلتين من الذهب الخالص وينتهي برأس أفعى «المبرومة»، كذلك أخذ صينية كان قد أوصى عليها عند أكبر الصناع في سوق النحاسين تتسع لأكثر من عشرين خروفاً مع تلٍّ من الرز تحتاج لأكثر من عشرة رجال أقوياء لحملها، والصينية ذاتها سوف يلتقط لها صوراً أشهرُ المستشرقين والرحّالة والجواسيس الأجانب الذين مروا كعابري سبيل واستضافهم في رَبْعَة بيته.

حين خرجت من حماة متجهة شرقاً تنشقت هواء دونمات لا

twitter @mjanen٢٣

تحصى من الأراضي والمسافات المستوية المتشابهة، والآفاق المبادة بالضوء، المغلفة بالصمت النقي، فيما أذنا القدر المنتصبتان كأذني ثعلب تنصتان حتى لكلمات القلب.

أصبحت «عنقا ـ ليز» من بدو ديرة الشمبل الشهيرة، أي تلك البراري التي تمتد شرقي حمص وحماة وجنوبي حلب وغربي طريق تدمر والرقة.

أخذت تلك الكلمة من مكيال الحبوب المسمى شمبلاً، كان وحدة الوزن المستعملة في تلك الأنحاء التي كانت في ذلك الوقت مسرحاً لسلسلة معارك لا تكاد تهدأ، إلا وتشتعل مرة أخرى، وأصبحت القبائل التي تجول في بادية الشام تتجنب «الشمبل» لأنه مكان عاصف تدور فيه رحى حرب الموالي والحديديين. سلسلة غارات وغزوات ومعارك وحروب شهيرة..

كان الموالي من القبائل القحطانية، والحديديون من القبائل العدنانية، ومن نجد وجنوبها هاجروا إلى الشام قبل قرون طويلة، وحملوا معهم العداوات ذاتها وظلت ثاراتهم العتيقة ناراً تحت الرماد.

تخوم الشمبل تناوشها عشائر كبيرة متنقلة تروم المراعي الخصبة لمواشيها، جنوباً نواحي حمص قبيلتي بني خالد والعقيدات.. وبراري شاسعة خالية من العمران فقط بضع قرى متطرفة قلقة مرتبكة تنقذ وجودها بدفع «الخوة» لعشيرة أو عدة عشائر معاً،

twitter @mjanen٢٣

فتدمر والسخنة كانت تدفع الخوة لقبيلة الموالي وقبيلتي الأحسنة والأسبعة من العنزة.

تنداح الآفاق مثل بحر لا تخوم له والفراغ نهر يصبُّ في كل الجهات.

تاقت «عنقا» للصمت الناصع، لانبساط الفلوات والسكون الذي يتكون ويتمدد على وجه الفيافي التي كانت عامرة بالثكنات والمدن والحصون الرومانية، وتراكمت الذاكرة، قديم فوق أقدم، والتلال الترابية التي تخبئ تحتها أطلالاً رومانية داثرة تشكل أهم ملامح وجنات الأرض هناك، وتصنع جغرافيتها العارية، فيما السراب حطاب الصحراء النائم أبداً يسحلك وراءه مثل أشلاء تاريخ وبقايا ماضٍ.

حين مرت قرب قصر أبلق اللون حكى لها حكاية غريبة عن ذلك القصر الذي تميزه أغرب قنطرة رأتها في حياتها ولم تنس قط حكاية الملك الذي شيده. ولأول مرة رأت قصراً كان يقف بأناقة بالغة، وسيماً بهي الطلعة، فجأة يظهر في وجه الزائر من صوب الطريق القادم من جهة حماة، للحظة قد تظنه خدعة من خدع السراب، تحديداً حين تبرز لك أولاً قنطرته الشهيرة التي ظلت بقايا قبة سالفة تهدمت بسبب عشق الزلازل لتلك المنطقة. عادت «عنقا» باسمها الثالث، اختار زوجها أن يسميها «شمساً».

❖ ❖ ❖

twitter @mjanen٢٣

«البلقاء ممتلئة بأهل الشمال وحوران بالزبيد والمرج ينتشر فيه أكثر فأكثر النعيم والعقيدات وأسعار الحبوب المرتفعة تؤدي إلى عمران القرى القاحلة وقبائل ديرة الشمبل تحمي مراعيها بالرشاشات»

❖ كلمات شيخ من الرولا . فيتسشتاين : «حوران . ص ١٣٨»

«غَيَّرَ صعود الحديديين السريع توازن القوى في ديرة الشمبل وسبب نشوب صراع مفتوح مع الموالي الذين كانوا يعتقدون أنهم لا زالوا سادة تلك الأرض، وكان الحديديون يدفعون لهم الأتاوات في الماضي . وقد قدمت حادثة تافهة المناسبة المطلوبة: فقد تشاجر رعاة الأبرز ورعاة من عشيرة لهيب التابعة للحديديين حول استخدام بئر ماء، فما كان من اللهيب إلا أن طلبوا الأنضمام إلى الموالي، لاعتقادهم أن حقوقهم قد انتهكت . فكان جواب الحديديين على هذا الإنفصال إعلان الحرب على الموالي . بدأت الأعمال العدائية عام١٩٢٠م وكانت ستنتهي دون شك بهزيمة الحديديين لو لم تتدخل سلطة الانتداب لإنقاذهم . سددت الحكومة ضربات شديدة ومتكررة إلى الموالي، فتوقفت الحرب تدريجياً بين القبيلتين ثم استعرت من جديد في عام ١٩٣٠ بعد مقتل الأمير عبد الرزاق . الحكومة مدت يد الحماية هذه المرة أيضاً إلى الحديديين»..

❖ أوبنهايم . كتاب «البدو . ج ١»

twitter @mjanen٢٣

السراب مليء بعنف الكذب، على وجنات الأرض، يتجول عارياً من الحقيقة مثل عاشق يتبع قلبه من دون أن يترك أثراً، كأنه يقول لك: القطار الأخير سيغادر.. متسللاً عبر بوابة غير مرئية يتركك مشوشاً على مرمى قدر.

بعد خمس سنوات من عودة «عنقا» زوجة «لدنْدَل»، أنشبت سنين المحل أظفارها بديرة «الشمبل» ولم يكن هنالك مفر من تجاوز جبال البلعاس والتوغل في الحماد حيث جاورت العشائر الغنَّامة العشائر الأخرى الجمَّالة.

ووصل قوم دندل منطقة «الدَوْ» وهو سهل عميق كأنه وادٍ فسيح محصورٍ بين سلسلة جبال الشومرية وشفا وشاعر والأبيض في غربه وشماله، وسلسلة الجبل الشرقي وجبل الرواق في جنوبه، ويقع بين القريتين وتدمر. وهناك وردت العربان بئر مران وبئر مسرب وطوالة وعين القمقوم وعين الجباة والروضة وعين البيضاء.

الفرنسيون نصبوا ممشى للفصل بين عشيرتي الموالي والحديديين، ظل ذلك الممشى حتى ألغي سنة ١٩٤١ حين تم الصلح الرسمي الأخير بينهما.

وحدث أن تخطى كلا الطرفين خط التحريم بينهما، وراحت فنشبت فتن وقلاقل بين وقت وآخر بسبب اقتراب الطرفين من بعضهما البعض.

الفرنسيون قد اعتمدوا سياسة خاصة في البادية الشامية، تعمدوا

twitter @mjanen٢٣

إبعاد العشائر عن سلطة الحكومات المحلية التي أقاموها تحت إشرافهم، فكان أن ربطوا العشائر مباشرة بدوائر الانتداب، وجعلوا إدارة خاصة بالعشائر دعوها «إدارة مراقبة البدو» عهدوا بها إلى ضباط عسكريين يقودون طرازاً خاصاً من الجند من راكبي الهجن سموهم الهجَّانة، وفتحوا باب التطوع في هذه القوة أمام أبناء البدو فكان أن تطوع كثير من أبناء البدو الفقراء، وأصبح بإمكان الفرنسيين مراقبة البدو عن كثب بفضل الهجَّانة الذين يعرفون كل كبيرة وصغيرة من شأن العشائر. وقد ألَّفوا من هؤلاء سريتين، إحداهما في تدمر والثانية في دير الزور تساندها عند اللزوم مصفحات وطيارات، وبرع جند الهجَّانة وضباطهم بتمرير الأخبار ونقلها بين العشائر، فزادت الفتن والقلاقل واشتعلت معارك كثيرة، وجد الفرنسيون الذريعة دائماً للتدخل بحجة فض الاشتباك، وتكون النتيجة الفتك بالطرفين والمزيد من سفك الدماء التي تطلب الثأر، إضافة إلى اتباع سياسة رفع الأذلاء فوق الأمراء والشيوخ، وهذا أمر سبب ويلات كثيرة.

خلال ذاك العام المقفر تقلصت عائدات قطعان «دنْدَل» التي كان يبيع منها كل عام من ثلاثين إلى خمسين رأس من الماشية، ومن واحد إلى إثنين من الخيول، وتلك الواردات كانت تقابلها نفقات تصل إلى ستمئة ليرة تركية تصرف على المواد الغذائية وعلف الخيول والكسوات والذخيرة.. وكان الفرنسيون قد أضنوا الموالي عندما

twitter @mjanen٢٣

أرغموهم على دفع فدية قدرها خمسة آلاف ليرة وسلموا ألفاً ومائتي بندقية، وذلك عقب دخول الموالي إلى حماة في عام ١٩٢٥ وأحراقهم للمباني الحكومية ونهبهم المدينة..

«عنقا» كانت تخاف شيئاً بعينه فقد رأت مناماً فيه «رميح»، وأنصتت لأصوات القبرات لعدة أيام قبل أن يحدث ويغادرها «دنْدَل» مع مجموعة كبيرة من أفراد قبيلته لنجدة قبيلة أخرى حين عمدت سرية هجانة تدمر إلى مهاجمة عشيرة الغياث، التي كانت تنزل في البطاح القريبة من تدمر وقد فاجأتها قبل الفجر وفتكت بأفرادها وكبدتها أكثر من عشرين قتيلاً وعدداً كبيراً من الجرحى، ونهبت سرية الهجانة أكثر من ثلاثة آلاف رأس من الماشية.

أفضل شيء حدث لـ«عنقا» خلال ذلك أن «دنْدَل» خرج مع رجاله لنجدة تلك العشيرة المنكوبة، في ذلك الصباح حين باغتها «رميح» على ظهر فرسه الحمراء المشهورة بعراقيبها البيض، كادت تموت خوفاً من «رميح». عرفت فرسه «عيدة» عن بعد. كان يتقدم سربة خيالة تتكون على أقل تقدير من ثلاثين فارساً مسلحين يغيرون باتجاه بيت الشيخ الغائب. استبقت هجمة الخيالة، واتجه بصرها صوب صينية زوجها الشهيرة، وطلبت من عبدين وصلا لتوهما مع قافلة حمير تحمل الماء للعشيرة، أن يقلبا الصينية الفارغة فوقها مع صغارها الثلاثة.

حين ضربت الرمل خمنت «عنقا» أن أهلها قد لحقوا بعشيرة السَبْعَة من العنزة التي يُعدُّ أبناؤها مربو جمال وخيل موهوبون،

twitter @mjanen٢٣

وكانوا يتاخمون ديرة الشمبل وسوقهم حماة.

حين بلغت السرية المغيرة المنزل استطاعت «عنقا» أن ترى عراقيب «عيده» البيضاء.

جال الفرسان بأنحاء البيت المرفوع على سبعة أعمدة وكان «رميح» ينادي عليها باسمها «عنقا» ويعطيها الآمان.

أكبر الظن أن «رميح» لم يحزر من تلقاء نفسه مخبأ «عنقا»، ربما أحد العبيد الخائفين من الموت قد أومأ إلى الصينية بعد أن جُندل رفيقه أمام عينيه، على الفور التقت عيناهما بعد عدة سنين. كانت عينا «رميح» الغاضبتين أول ما رأتهما «عنقا». رآها وهي تتمترس مع أطفالها مثل ذئبة. «رميح» أعاد الصينية فوق الأم وأولادها وقال جملته الشهيرة في ديرة الشمبل : «خلُّوا، عنقا، على جراها»، يقصد «جرائها» وانطلق عائداً من حيث أتى، وبعد يومين أرسل عشرين ناقة وضحاء مع رسول إلى زوج «عنقا» الذي كان يعد العدة لغزوة يسترد فيه كرامته من ذلك الذي تجرأ وداس بحوافر خيله رَبْعة بيته، يقول رميح: «إن خطأ حصل كان سبب الغارة ولم يكن بيته المقصود أبداً».

رميح أعطى «عنقا» الآمان إلى الأبد.

❖ ❖ ❖

وظلت «عنقا - شمس» معشوقة زوجها الدائمة رغم غريماتها الكثيرات، قريباته وبنات عمه اللواتي اعتبرن «دنْدَل» حقاً لواحدة

twitter @mjanen٢٣

منهن وليس لفتاة غريبة مات أهلها جميعهم كما روى «دندل». وشاعت حكايات كثيرة تؤكد أن «شمساً» قد سحرت «دندل» وأنها تخفي تميمة نادرة في كتفها الأيسر، وأن امرأة نوَريّة شقَّت لحم كتفها ووضعت فيه التميمة ثم خاطته، حتى عبيد زوجها وخدمه تناقلوا سراً يحكي عن طقس سحري تمارسه «شمس» مرة واحدة في كل عام، في موعد محدد تقصد مكاناً بعينه قد زرعت فيه نبتة صبار وتلك الصبارة زرعت بدبال من أثواب الأفاعي، وأن شمساً تقصد المكان مرة واحدة على ظهر أتان سوداء وتسقي الصبارة وهي تتمتم بتعاويذ سحرية، والجميع يؤكد أنها تخفي في طيات كمرها ثوب أفعى «مِلّف» أي عمرها ألف عام، حتى تلك المخدات التي كانت تحشوها بريش الحبارى قالوا إنها وضعت فيها قرون أفاعي، و طحنت فرج ضبعة جففته في ليلة يسيطر عليها كوكب زحل، يقال إن تلك الليلة لا تحدث إلا كل إثني عشرة سنة، وعبأت مسحوقه في حلية من حجر أسود لامع لها شكل الفأس، كانت تعلقها على نحو دائم في ذيل عصبة رأسها ولا تسمح لواحدة من بنات حواء بلمسها.

وكان لديها عادة غريبة بنبش رماد قهوته بين وقت وآخر بسيفه الذي يعلقه أحياناً في عمود «الواسط» في رَبْعته، وعندما فقد صقر زوجها بعض ريشاته أطعمته طحال شاة وقرنفلاً مسحوقاً، وحين سقط واحد من مخالبه لفتها بقطن مشرب بخلاصة الصبار والزعفران والسكر، وعندما تمرد على «دَنْدَل» وأصبح لا يستجيب له لاحظت أن

twitter @mjanen٢٣

الطير سمن وزاد شحمه وعرفت أن هذا هو السبب، فألقمته من رئة شاة قطعاً صغيرة ومنعته من النوم ليلتين، تركته واقفا على دكته وظلت تناديه وتناوشه وتحدث جلبة، في اليوم الثالث عاد رشيقاً وانقاد ليدِ «دنْدَل»، وعلقت في الكف الجلدي جناح حمامة خالص البياض لأنها تعرف مقدار عشق الصقور للحمام الأبيض، هكذا ظل يعود إلى كف زوجها دون صعوبة. وظلت تجيء إلى فراش زوجها في آخر الليل مبللة بتوقها تقول له كلاماً لا يمحوه أي نهار.

كانت «عنقا» أول امرأة بدوية في الشمبل تدفع العبيد لحراثة الأرض وتزرع القمح، ولاحقاً زرعت الخضراوات الصيفية، وحذون حذوها باقي النساء ومَارسن هواية المرأة القديمة بمصادقة النبات.

وخلال زياراتها المتواصلة لمدينة حماة المتاخمة للشمبل عقدت «عنقا» صداقات كثيرة مع نساء حضريات، واستكملت ماتعلمته في مطبخ السيدة «روز» البيروتي، وتطورت مؤونتها الشتوية وأصبحت مغرمة بالمربيات، تركت التمر جانباً وسكبت السمن على مربيات الفاكهة وقدمتها لزوجها كإفطار شتوي لذيذ.

أنجبت «عنقا» لزوجها تسعة بنين، وابنتين رائعتي الحسن سمَّتهما «سكرى» و «منوى»، وظلت تستخدم فطنتها في إنقاذ ما أمكن خلال غياب زوجها، وتلك الغارات التي راحت تشنها الطائرات الفرنسية على مراعي الموالي بعد أن أخذ الفرنسيون جانب قبيلة الحديدين بسبب نقمتهم على الأمير «عبد الرزاق» أمير جزء كبير من

twitter @mjanen٢٣

الموالي وكان أن واجه الفرنسيين في موقعة «قطرة» وتكبد الفرنسيون خسائر كبيرة. وكان أن قتل الحديديون الأمير «عبد الرزاق». ونشبت حرب ثأرية دامية. استثمرت «عنقا» كل ما تعرفه من تمائم وضرب بالرمل لتطمئن على زوجها. وعاشت تلك الأيام الصعبة، حين أعاد الفرنسيون توزيع المراعي والقرى بين الحديدين والموالي وكان أن تواطؤوا مع الحديديين بسبب حنكة ودهاء شيخهم «نواف الجرخ» بالتحايل على «غورو» وحقد الفرنسيين القديم على الموالي، وأخذ الحديديون حصة الأسد في التوزيع وخفت موارد الموالي وراحوا يلتفتون لمصادر رزق جديدة.

ومن عواء الكلاب وبنات آوى وتحليق حدأة سوداء تنبأت «عنقا» بدماء جديدة وحذرت زوجها، ظلت على يقين بأن لزوجها يداً في مقتل شيخ الحديدين «نواف الجرخ» في حلب أمام أحد فنادقها حين أطلق عليه الرصاص واحد من عبيد أمراء الموالي.

لماذا لا يكون السراب خيميائياً، يخلط العقاقير، يستعير من الذهب قشوره ويروج لمعدن مغشوش، أو يربي الثعابين ويعزف لها معزوفة الماضي ويتركها ترقص على أنغام اللحظة؟!..

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

منوى

«كانت هنالك فتاة جميلة جداً تعمل مع الآخرين عند البئر، وكان شعرها مجدولاً ما عدا المكان المقصوص منه. وكانت الجدايل الصغيرة تتمايل حول رقبتها. كانت تلبس الحلي الفضية المتنوعة والعقود المتعددة، بعضها من العقيق الكبير وبعضها الآخر من الخرز الأبيض الصغير، وكانت تضع حول خصرها نصف دزينة من السلاسل الفضية وفوق ذلك كان رداؤها الأزرق دون أكمام. ينفتح ليظهر منه في الوسط نهدان صغيران ثابتان، كانت شقراء كثيرة الشُقْرة، وعندما رأت أني أحاول تصويرها زمّت وجهها وأخرجت لسانها لي، فأخبرها سالم، ألا تتحرك وشرح لها ماذا أفعل. وبعد أيام كان هو وأحمد يمزحان معي، كلما اخلدت إلى الصمت قائلين إني أفكر في فتاة «منوخ»، وكان هذا صحيحاً في أكثر الأحيان»..

ولفرد تسيغر «الرمال العربية»

ينتقون أجمل فتاة لديهم، وأعرقهن نسباً، تُحمل في هودج على ناقة بيضاء، يصطحبونها معهم إلى الحرب، يسمي البدو ذلك الهودج

twitter @mjanen٢٣

الذي يحمل أجمل عذراء عندهم بالـ«عُطفة». ترافقهم في حروبهم الكبرى، تحرضهم على القتال، تستفز هممهم وتستثير نخوتهم، تمتدح الشجعان وتقرع المتخاذلين وتهزأ بالمتراجعين.

وفي الحروب الدامية كثيراً ما يتحول مكان هودجها إلى مذبح تموت حوله الرجال، لأنه في حال انكسار قومها تُسبى فتاة «العُطْفة» وتصبح من حق القبيلة المنتصرة وعادة يتزوجها عقيد الحرب أو شيخ العشيرةِ أو أحد أبنائه.

وإذا ما خسرت قبيلة عطفتها لن يحق لها حمل العطفة مجدداً إلا في حال غنمت عطفة قبيلة أخرى و سجلت انتصاراً فائقاً.

كانت «منوى» فتاة العُطْفة لقومها. لكن «منوى» اختلفت عن بقية بنات العُطْفة أو العماريات. لم تركب الهودج وتكتفي بقول أشعار الحماسة، اعتلت فرس قتالٍ وحرب، وحملت في حجرها علبة مليئة بمغرة حمراء يستعملها البدو عادة لوسم ماشيتهم.

أخذت «منوى» مكانها مع فرسها في المضمار الخلفي لفرسان قبيلتها وراحت تجوب المكان بالعرض، كلما رأت أن واحداً من فرسان قومها تخاذل متراجعاً للوراء عدَت نحوه و قامت بتلويثه بالمغرة أسفل ظهره، لتسمه بعار الهروب، و بذلك تساويه بالماشية، ومن عادة البدو أنهم يرغمون الهارب من ميدان الحرب على لبس ثياب النساء ولا ينزعها حتى يبدي شجاعة فائقة في حرب أخرى.

هكذا يومها انتصر فرسان قومها في وقعة شهيرة في هضبة العلا

twitter @mjanen٢٣

شرقي حماة، حين انهزم عدد كبير من الرجال أمام أقل من نصفهم بفضل دهاء و جرأة «منوى»، وانتهت المعركة بثلاثة رجال ممغورين بأقفيتهم. لم يتحملوا مذلة «منوى»، غادروا مع عائلاتهم إلى أطراف مدينة حلب منسلخين عن بداوتهم على أمل التحول إلى حضريين، من بينهم كان الرجل الأخير من أقارب رجل اشتهر بحادثة غدر اسمه «دويشر» كانت «مراية» ابنة «حمرا الموت» وجدة «منوى» قد أردته قتيلاً أثناء محاكمته، ونفذت قانون الصحراء الأبدي «العين بالعين والسن بالسن».

كذلك لم يستطع البدو نصف الرحل ـ كما كان أهل «منوى» ـ تطبيق الأحكام العشائرية التي ينفذونها بحق المنهزمين، لأن السلطات الفرنسية كانت قد أصدرت قانوناً قالت فيه: إن العشائر الرحل يخضعون في علاقاتهم لقواعد العرف العشائري فيما بينهم سواء أكانوا في البادية أم في المعمورة، بينما العشائر نصف الرحل يخضعون للعرف العشائري فقط في حال كانوا في البادية أو سهوبها. أما إذا كانوا في حاضرة إحدى المدن فانهم يخضعون لما دعوه «قواعد الحق العادي».. هكذا شهدت يومها تلك العشيرة انسلاخ الممغورين بمغرة «الجبن» فلاذوا بأطراف المدن، ليتمدنوا، ويحاربوا حسرتهم عبر تدريس أبنائهم ودفعهم إلى تولي المناصب بانتظار اليوم الذي يأتي ليكونوا فيه ذوي سلطة مدنية تمكنهم من إذلال شيوخهم وأمرائهم السابقين، كانت «منوى» يومها في الخامسة عشرة من عمرها، حدث

twitter @mjanen٢٣

ذلك تقريبا في عام ١٩٣٩.

«منوى» كانت محض عاشقة، على عكس معظم البدويات اللواتي يتزوجن «ابن العم» مرغمات بسبب العرف القبلي.

كانت «منوى» مغرمة بابن عمها «النوري»، لكن الأب زوجها لشيخ عشيرة أخرى في منطقة الفرات كان يكبرها بأكثر من ثلاثين سنة، عضواً في المجلس النيابي ويتزعم عدة عشائر زعامة مطلقة. لكن ذلك لم يغرِّ «منوى» بالوقوع بغرامه. بعد أربعة أعوام أنجبت طفلة سمتها «فكرى»، وظلت متولعة بحب ابن عمها «النوري».

ذات يوم، وعقب وليمة غداء كبيرة كانت في بيت زوجها، تمنعت عن صب الماء من الإبريق النحاسي على يدي زوجها ليغسلهما، وعلى مرأى من الجميع حلف اليمين بأنها لن تحل له بعد ذلك، وردّها إلى أبيها الغاضب، ظلت الطفلة «فكرى» عند نساء الأب.

بعد سبع سنوات تزوجت «منوى» ابن عمها «النوري»، عقب مجادلات ومناورات ومشاجرات أزّ الرصاص خلالها، عندما كاد أن يقتلها أبوها حين رفضت الزواج من رجل آخر اختاره لها، أصرت على أنها لن تتزوج بغير «النوري» الذي حاول إرضاء عمه بشتى الوسائل: قصد أقاصي روسيا مع مجموعة من صيادي الصقور معظمهم أقاربه ووصلوا كازاخستان ومنغوليا لأجل العثور على نوع نادر من الصقور، وبالفعل حدث ما أرادوا وعادوا بجعبتهم أكثر من طير نادر باعوها لأمراء نجد بمبالغ خيالية، وعاد «النوري» بسيارة شفروليه فاخرة

twitter @mjanen٢٣

ومحمَّلاً بالهدايا، جلب فرشاً كاملاً من البسط العجمية لبيت عمه المسوبع، بسط من شعر الماعز التركي الأبيض والأسود وسجادات حمراء معرقة بالأخضر المذهب وأغطية وسائد مطرزة بالطواويس وكان أروع الهدايا التي جلبها «النوري» لعمه تشكيلة من الزجاج كان معظم البدو يرونها لأول مرة، وجلب معه من حلب «فاترينة» من الخشب المذهب الأطراف لتأخذ محلها في المنزل الشتوي في الضيعة التي يقضي فيها الشتاء. وأصبحت تلك الفاترينا من أشهر معالم تلك الضيعة، وكان النوري ذكياً عندما شرح لعمه حكاية شاب وفتاة شقراوين رسمت صورهما على طقم الشاي وفناجين القهوة وكامل طقم السفرة أخبره بأنهما روميو وجولييت، وقد ماتا بسبب تعسف الأهل الذين رفضوا تزويجهما، ففَّضلا الموت سوياً على الحياة بعيدين عن بعضهما، فهم «دنْدل» رسالة ابن أخيه الذكية، وحظي «النوري» أخيراً برضى العم وزوّجه «منوى». وبعد عام وضعت «منوى» مولودا ذكراً سموه ««طراد»اً».

❖❖❖

كان «طراد» في السابعة من عمره عندما ماتت «منوى» على أثر مرض في حنجرتها، فشل أطباء بيروت واصطمبول وحلب بتشخيصه بغير كلمة سرطان، وقتها لم يكن لدى البدو فكرة عن المرض الخبيث، بعد ذلك بقليل تزوج «النوري» مرة أخرى وأصبح لـ«طراد»

twitter @mjanen٢٣

خمسة أشقاء.

«طراد» لم يكن اسماً على مسمى بالنسبة لأبيه صياد الجوارح الشهير، كان نحيلاً، وفي أحيان كثيرة هزيلاً، لم يحسن التصويب قط في بندقية. وكان مضحكاً حين يستخدم المقلاع، كان مولعاً بالكلاب السلوقية، وفضوليا، تذوق لحم الثعلب والقنفذ والحية والذئب والضبع بدافع الفضول، كان يخشى بعض الكائنات إلى حدِّ الرعب.

ذات مرة في ليلة شتوية موشحة بالضباب الكثيف لمح كائناً ضخماً غريباً في بوابة مغارة رومانية عتيقة محفورة في أرض صخرية جنوب الضيعة حيث كانوا يقضون شتاءاتهم في القباب الطينية المخروطية عدا منزل جده المبني بالحجارة السوداء من طابقين، عليته مسقوفة بالقرميد، هرع «طراد» صوب مضافة جده وأخبرهم عن حيوان يشبه العجل في باب المغارة القبلية، ضحكوا عليه وسألوه أين رأى العجول فالبدو لا يربُّون الأبقار، ذكّرهم أنه رآها في بازار حماة وذلك الحيوان الذي لاح له في باب المغارة بدا يشبهها إلا أنه قطعاً لا يشبه الإبل أو الغنم أو الماعز.

رافقه أبوه مع رجل آخر للتأكد من حقيقة ما رآه «طراد» ليكتشفوا بأن ذلك العجل هو في حقيقة الأمر ضبعة ولدت حديثاً وكانت جارتهم لمدة ربما طويلة، أغمي عليه حين طلبت جدته «شمس» من «النوري» أن يقطع لها كف الضبعة وهي لم تزل حية، قتلوها مع

twitter @mjanen٢٣

جرائها وسحلوها خارج المغارة، وحين استفاق أكل من كبدها المشوي كما درجت عادة البدو بأكل أكباد الوحوش وسط استهزاء أبيه وأبناء عمومته الذين أقنعوه بما زعمه العرب قديماً بشأن الضبعة إذ قالوا له: إذا وطئت الضبعة ظل كلب في القمر وهو على سطح فإنه سيقع وتأكله، لهذا حرص على تنفيذ نصيحة جدته «شمس» وأن يحمل حنظلاً في أحد جيوبه إذا ما حدث وتنقل ليلاً.

حين أصبح فتى يافعاً وبات يضرب مواعيد ليلية لغرامياته المبكرة في البرية، أعطته «شمس» لسان ضبعة مجففاً ومسحوقاً مخيطاً بقلب قماشة يبللها كلما قصد مكاناً ليلاً، فتخافه الكلاب ولا تكلب عليه خلال تسلله خلسة بين البيوت.

حتى اليرابيع التي ينبشها بقية الأولاد ويقتلونها بالعصي لم ينجح بصيدها قط، كان ينجح باصطياد الضب فقط، وذلك بعد أن أعطته جدته التوقيت المثالي لصيده : «بين طلوع الثريا إلى تمام طلوع نجوم الجوزاء». عليه التربص بالضب وهو في طريقه إلى وكره، خلال عودته من شرب الماء ويترك الباقي لكلبته السلوقية، ثم يشوي لحمه في الرماد الساخنة ويفضل تناول لحم عضلات ذيله.

كان لـ«طراد» ولع خاص بكلاب سلوق، كلاب عربية نبيلة تنسب إلى أرض «سلوق» في اليمن، ويحكى أن كان لهذه الكلاب نسابون مثل نسابي الخيول ويحبها العرب بقدر ما يحبون خيولهم، ويعتزون بالفارهة منها كما لو أنها فرس أصيلة.

twitter @mjanen٢٣

كانوا يطلقون عليها أسماء مثل: سحام وسلهب وجدلاء ومقلاء وسرحان، ويقال إن الكلب السلوقي، إذا عاين الظباء بعيدة كانت أو قريبة، عرف العنز من التيس وحين يقصد القطيع يقصد التيس منه ويترك العنز رغم أنه يعرف بأن التيس أبعد وثباً من العنز، لكنه يعرف أيضاً أن التيس بعد أقل من شوطين يحضره بوله ويبطئه فيثقل عدوه ويقصر مدى وثبه فيحظى به ويكسر عظمه.

يعجبهم بإناث السلوقين هذه حسها وسمعها وبصرها. ووحدها الكلاب السلوقية لاتفوتها حيلة الثعلب حين يتماوت لأن لديها القدرة على تمييز الميت، وهي قدرة ليست موجودة في غيرها من الكائنات الأخرى. ومن دهائها لا يكاد يخفى عليها شيء، ويقال بأن المجوس لا يدفنون ميتاً منهم حتى يقربون منه كلب سلوق فيشمه ومن العلامات التي تظهر عليه يعرفون الحال، فيما إذا كان ميتاً أم لا.

كان «طراد» يفضل إناث هذه الكلاب، عندما ولدت كلبة كانت لأبيه أخذ جراءها خلسة وهي صغيرة بعد لم تقم على قوائمها، ألقاها أمامه وأخذ يترقب ويتفحص الأقوى منها وانتقى الجرو الذي مشى قبل غيره ولم يكثر سقوطه واكتشف أنها أنثى وسماها «سودة». في الشتاء كانت تشاركه فراشه وعلمته جدته شمس كيف يعتني بكفها. فراح بين وقت وآخر يغمسها بأعشاب متنوعة منقوعة بالخمر، كانت «سودة» وسيمة فيها مواصفات السلوقي الأصيلة، بعد سنين طويلة حين أصبح كاتباً مرموقا كتب عن سودة يصفها

twitter @mjanen٢٣

بالتفصيل: «لها رأس خشف، جمجمة صغيرة منسابة مثل جمجمة طائر، ومقلتاها مثل مقلتي بقرة وحشية، خطمها دقيق وشدقها واسع وجبهتها ناتئة وعريضة وأنفها نافرة مثل فستقة. بذلك الأنف وفي الأيام الشتوية الباردة والثلجية، كانت تشم الروائح المختلفة للكائنات المختبئة في الأوجار والجحور والكهوف والمغر، يداها قصيرتان ورجلاها طويلتان تتبع بهما الأرنب في الأراضي الوعرة المرتفعة، ولا أكمل من غلظ العضدين واستقامة اليدين وانضمام الأظافر حتى لا يدخل بينها تراب أو طين، ودقة وسطها وقصر ذنبها ودقته وصلابته مثل عود خشب».

صفات ربما لم يعد بالإمكان العثور عليها بعد أن صُدِّرت أعداد كبيرة منها بفضل تجارة الموصل لتلك الكلاب، تولعت أوروبة بهذا النوع من الكلاب عندما أعجب بها الملك فرنسيس الأول ملك فرنسا، كذلك سلاطين تركيا الذين اعتادوا أرسالها كهدايا شرقاً وغرباً.

كان «طراد» فناناً بنبش الأوكار، مولعاً بالفجوات والثغور والجحور. أمام الأوكار تعلم التأهب للمفاجآت، ثمة وكر يظنه يخبِّئ ثعلباً يكتشف أن ساكنه واوي، وطبعاً يلوذ بالفرار أمام أي ساكن في وكر أو جحر.

فعل كل ذلك برفقة «سودة». لم يكن يقصد الصيد قط، فقط كان يهوى تفقد الأسرار التي تخبئها شقوق الأرض، ذات مرة مرضت «سودة»، وكادت تموت حين أنقذتها له جدته «شمس» فأطعمتها

twitter @mjanen٢٣

كسرة خبز مع صوف شاة معجون بالسمن فكان أن ألقت ما في جوفها من داء.

ربما لأنه كان مولعاً بخبايا الأرض برع بالحصول على كميات كبيرة من الكمأ، لا أحد ينافسه بالنبش، بفضل صحبة الفتيات، يرافق بنات عمه الأكبر منه سناً في رحلات البحث عن السلبين والحيلاوان والشويخات والفطر، يعينهن بعينين ثاقبتين يدلهَن على الأرض التي تخبئ الفطر وينكش نبتة الحيلاوان دون أن يخرب بصيلاتها التي كان بارعا بجدلها و شويها لاحقاً على النار، ومنهن تعلم أسرار النباتات وأسماءها: نفل، شيح، صر، زفرة، قيصوم، جعدة، حرمل، ديدهان، عيصلان، هوذان، أبو دمبوز.

منذ ذلك الوقت تعرَّف على الكثير من أسرار الفتيات، كُنَّ يتحدثن أمامه دون تحفظ لصغر سنه، شم روائحهن واتسع معجم الروائح لديه وتنوع أكثر عندما كنَّ يتعرقن، وميز بين المسك الصرف ورائحة القرنفل والمحلب والخضيرة.

كان مولعاً بالمواسم التي يجتاحها الجراد، يشارك النساء في كامل طقوس إعدادها، حالما يلمح سرب الجراد يستنفر مع بقية الأولاد والنساء والفتيات ليقوم بأجمل عمل، وتبدأ أكبر عملية جمع للجراد الذي يوضع في أكياس قماشية تسد حتى لا يقفز منها، ثم تنقل على ظهور الجمال والحمير إلى المنازل وهناك تفرغ في قدور ضخمة مليئة بالماء المملح ويتم غليها لساعة تقريباً، ولاحقاً تنشر تحت

twitter @mjanen٢٣

الشمس حتى تجف وتذرى، حين تنفصل السيقان والمجسات والأجنحة وتذروها الريح يحفظ الجراد اليابس في أكياس ضخمة.

كان يحبه طازجاً مقلياً ومُحمراً بالسمن، وفي الشتاء يحبه مسحوقا بمدق الهاون يأكله ممزوجا باللبن، لاحقاً حين تثقف عرف أن الجراد يحوي قيمة غذائية عالية «كالسيوم، كبريت، فوسفور، صودا، دهون »، فيما بعد أحب القريدس لأنه يذكره بالجراد.

كان يهوى مرافقة الرعيان إلى المرعى ليلاً، تغويه الليالي المقمرة ومن أعمال الليل التي يحبها، مشاركة الرجال الذين يقومون بسحب الماء من البئر. عملية تبدأ من حوالي الساعة الثالثة صباحاً.

ويحب مرافقة النياق إلى مناهل الماء يحرك لها الماء بسعفة نخيل يلاطفها بأغانيه التي حفظها على أثر رفقة طويلة لبنات عمه. حفظ كل الأغاني التي يمكن أن تغنيها بدوية، الأغاني التي يغنينها وهنَّ ذاهبات إلى حليب الظهر في الربيع، والألحان التي تخرج من حناجرهن أثناء حلب النعاج، يساعدهن في شبك رؤوسها إلى بعضها البعض لتصطف بأعناق متصالبة وتبدأ عملية الحلب.

وحفظ ما يغنيّنه أثناء عجن العجين وخبز الخبز، لطالما استفاق في الصباحات المبكرة على رائحة الخبز الطازج ممزوجاً برائحة القرنفل و بعر الجمال، ينهض مناوراً نعاسه، يلف جسده النحيل بمزوية من الجوخ الثقيل ويجلس قرب العبدة «وردة» وهي تخبز الخبز أو واحدة من بنات عمه اليافعات، ينتظر الرغيف الأول يمضغه بهدوء

twitter @mjanen٢٣

ناعس ثم يأكل الذي يليه وفي أحيان كثيرة يعود بعد ذلك إلى فراشه جذلاً.

في بداية يفاعته شاركهن سهراتهن يقود طريقة في الغناء لا يعرفها غير البدو تسمى «العَدّ» حيث يتَرادد المغنون دون أية موسيقى مرافقة، تبرز خامة الصوت كموسيقى بشرية خالصة تخرج الحناجر صوتها النقي دون تشويش أي صوت آخر غير بشري.

هكذا أضافوا إلى بقية مزاياه اللطيفة، صوته الحنون، صوت يمرق في الأذن، يؤرجحها، عذوبة المحزون، بذات الوقت يدلُّ على نباهة حاضرة.

بعد عدة سنوات حين أصبح شاعراً كان صوته أجمل من شعره، طريقة إلقائه ساحرة متوقدة بصوت فصيح طليق حنون، ركب الفرس مرتين ولم يعد إلى ذلك، لكنه كان بارعاً باطعامها كرات الشعير والتمر.

وصفه أبوه بالجبان، حين يئس من تعليمه كيف يذبح الحمامة على أن تظل فيها بقية روح لإطعامها للصقور أثناء فترة انتظار بيعها لحين الحصول على أسعار مناسبة، كان يجب إطعامها الحمائم بشكل يومي والصقور لا تأكل ما هو ميت أبداً، تأكل ما تظنه صيدها يأتون لها بحمامة لم تلفظ الروح بعد، عندها تصوب لها الضربة القاضية وتأكل الوجبة، «طراد» يكره الدم ولم يفعلها قط ويذبح حمامة.

twitter @mjanen٢٣

لم تنطبق على «طراد» قصيدة جدته التي تحفظها من سيرة الزير سالم وتنشدها وهي تعانقه: «إن كنت الزير ولدي أنا لي فيك أمارة ظاهرين، أجيب المشط أكرت بيه ذقنك تبقى الزير ابني عن يقين، وأجيب الشاش فوق صدرك ألفه يبقى الشعر منه نافدين، وأقيس الكتف لاخر سبع تشبار عرضه كاملين».

جدّته «شمس» كان لها رأي مخالف لأراء الجميع بشأن «طراد» وحين نصحته ذات مرة: «إذهب إلى المدينة»، لزمه سنوات للتأكد تماما من صواب نظرتها.

«تُفُنْكَة» كلمة تعني عند البدو بارودة، وفرس «النوري» كانت سريعة مثل رصاصة، لهذا سموها «تفنكة» وحين مرضت وكان لابد من تخليصها من آلامها حفر لها حفرة كبيرة وأوقفها قريباً منها وطلب من ابنه «طراد» أن يطلق على رأسها النار ثم يواريها بالتراب، لكن «طراد» رفض.

هكذا رأى أبوه بأنه لا ينفع أن يكون رجلاً بدوياً فأرسله إلى مدرسة العشائر في المعرة ليدرس.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

سكرى

السراب، في بعض أوقات الظهيرة ينسل كثعلب بذيله يحول التراب إلى مياه صافية كالمرايا. أيضاً يجمّل التجاعيد القديمة التي خلفها التاريخ..

«سكرى»، جمالها زهرة شبيهة بلدغة، وجهٌ حسنه ينطق عالياً كهزيم الرعد.. وجود نساء أخريات حولها يشبه طنين ذبابة عابر.

البعض عزا جمال «سكرى» لشقائق النعمان، حين شربت أمها «عنقا ـ شمس» منقوعها لتدر حليبها، فشربت «سكرى» حليباً مخلوطاً بنكهة تلك الورود، ينداح الزمن الخلّب ويتولى القدر عدله.

علم أهلها أن «حازم» بيك قد بيّت انتزاع «سكرى» منهم، كان يكفيها أن ترفع عينيها صوبه خلال لحظة عابرة حتى تصبح هي فضاءَه كاملاً، كان «حازم» بيك يتمتع بشبكة علاقات طيبة بين القبائل فقد اعتاد التردد على «الشمبل» كثيراً لشراء الخيول وصيد الظباء، وكان قد دخل في وساطة الصلح بين الحديدين والموالي ولم تفلح تلك الوساطات في ذلك الوقت لكنه أفلح باقتناص أجمل زهرة

twitter @mjanen٢٣

نبتت عندهم، تقدم لخطبتها و رفضت العشيرة بأكملها، غرامه بها كان واضحاً مثل فضيحة لا حد لها.

خطبها منهم مرة ثانية، رفضوا، تحديداً بعد أن استخدمت أمها «عنقا ـ شمس» ملكاتها التنبؤية، ولأيام عديدة راقبت كل مايدب حولها ويطير إلى أن لمحت أفعى حمراء تدخل غارها، ورأت أن البيك سوف يكون سبباً في موت ابنتها.

أغراهم بضمان مراعٍ لماشيتهم مدة خمس سنوات، رفضوا، و«عنقا» تمارس كل ما تستطيعه لتضمن ممانعة أكيدة من زوجها «دَنْدل»، و «سكرى» أصبحت تواكب أمها بنظرات معاتبة وحانقة.

أهدى لأبيها «دَنْدل» سيارة ماركوري حمراء وبارودة إنكليزية، لكنه رفض أيضاً، وارتطم البيك بصخور عناد «دَنْدل».

قبيل فجر ليلة زفافها لابن عمها كما خططت «عنقا» لعلها تربك القدر بذلك فيغير خطته، سطعت الأضواء الأمامية لسيارة الفورد التي كان يقودها واحد من رجال البيك المسلحين الذين رافقوه لأخذ «سكرى» عنوة، واحدة من نساء النَّوَر حملت رسالة من «سكرى» للبيك مفادها بأنها لن تسلم عذريتها لرجل غيره، وبالفعل كان الفجر قد اقترب من الطلوع حين اتجه البيك صوب خباء صغير يقوم على عمود واحد ينصبه البدو لمراسم ليلة الدخلة، عادة ينصبونه بعيداً عن بقية منازل القبيلة لتطلق العروس صراخها المتوجع دون حرج، والعريس يتأوه ويتلمظ لذة قدر مايشاء، وجدها ممزقة الثياب في الخباء،

twitter @mjanen٢٣

أشهرت كل براثنها، مارست حنق الأسنان، عضته، ضربته، دفعته، أخيراً نحته من فوقها بعد أن مشت مخالبها على وجه ابن العم الذي وقف قبالتها مستجدياً لمسة، قبلة، فقط حظي بنظرة الاستشراس الممزوجة بالاحتقار، سحقته بعينيها، لم تبكِ، فقط غضبت، سمّرته بمكانه ينتظر الجني الذي سكنها ليهدأ أو يخرج منها، وفي انتظار مغادرة الجني استفاق من شروده اليائس على جلبة الفورد و أضوائها المسلطة على باب الخباء، كان البيك أولهم: «أقتلك إن خطوت خطوة واحدة، سكرى ستكون معي وزوجتي، ومن يفكر باستعادتها فليطلبني في الشام»، هذا ما سمعه ابن العم المشدوه من البيك فيما هو يحيط كتفي «سكرى» بمزويته على عجل ويأخذها معه في الفورد، حدث ذلك تقريبا في عام ١٩٥٠، كانت تلك المرة الأخيرة التي شوهدت فيها «سكرى».

«عنقا» بكت كثيراً وهي تضم مجموعة من أقمشة الدانتيلا والحرير الفاخر، جلبتها يوماً هدية زواجها من «دَنْدل»، قدمها لها «جرجس» و«روز» من منتجات معمل الحرير الذي يملكانه في جبل لبنان ويُصدُّر الحرير إلى أوروبا، احتفظت بالمجموعة لتعطيها لـ«سكرى».

فكانت المجموعة من نصيب «منوى»، ومن نصيب ثعلب من سراب يرتاد أسرار الآفاق تسبقه خياشيمه تشمّ رائحة قدر قد يكون جنوبياً شمالياً أو العكس.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

بوران

«تَمرْبَاي» كان اسمها، أو اسمه، لم يعرف أحد من أهل دمشق بالضبط من هو أو هي، كان يرون يدين سمراوين تحركان قواقع الودع، ومن وراء النقاب يسمعون صوتا حياديا ليس أنثوياً وليس ذكورياً. لهذا ذهبت الظنون إلى أنه رجل هندي يحترف التبصر بالغيب، توارى وراء الطوربان والنقاب لتأمنه نساء دمشق بذلك الوقت في بدايات القرن العشرين.

كان أو كانت تجلس في معظم الأحيان على ضفة نهر بردى حيث مقهى الصوفانية تحت أشجار السرو والشربين والصفصاف، و«تمرباي» يظهر في أوقات محددة من الشهر تبعاً لتحركات كوكب زُحَل وأوقات القمر وإذا كان الهلال مقلوباً على ظهره لا يقرأ الفأل مطلقاً.

يومها كان الوقت صيفاً وفيه الحر مشرئباً، بعد العصر جلس «تمرباي» إلى طاولة زوجتي «سرور» آغا. قدمتا له شراب التوت المثلج وفرش قطعة واسعة من المخمل الأسود ورمى الودع وقوقعة مشربة

twitter @mjanen٢٣

بالأحمر تدحرجت صوب يد «بوران» خانم وعرف أنها المفضلة لدى زوجها، وتلك الودعة المرقطة مثل جلد النمر وقفت على جانبها الأيمن وعرف أن ضرتها تبيت لها الشر. لم يقلْ من ذلك شيئاً لأنه كضارب ودع ومتنبئ عتيق يعرف أن القدر أقوى من ذكاء البشر وأسرع من مخططاتهم وأكثر حكمة منهم حين يحبون أو يكرهون فيتهورون ويطيشون وهم يسعون إلى مآربهم. ما قاله «تمرباي» لضرة «بوران» «معزز» خانم جعلها تعيسة، أنبأها بأن «بوران» تحمل في بطنها توأماً أحدهما صبي، ونبّه الاثنتين إلى أن يحذرا على زوجهما من السكاكين.

سبق لـ«معزز» أن أنجبت أربع فتيات. و«بوران» مرّ على زواجها ثماني سنوات حتى شعرت لأول مرة بأعراض الحمل.

وراء صمت المرأة غابة معششة بألف عنكبوت من الشك، «بوران» كانت أثيرية كالهواء شذية كوردة، رقراقة كالماء، مفعمة، متفتحة، في عينيها وثبات فرس، مشرقة مثل شجرة مشمش، ضرتها «معزز» جربت كل خلطات الحناء لتحصل على اللون الغريب والمحير للون شعر ضرتها «بوران» كان لونه برتقالياً مشرباً بالبني.

تسطع «بوران» حين تقف جوار ضرتها «معزز» التي تنطفئ حالاً أمام وهج الأخرى.

«سرور» آغا كان من أثرياء دمشق، يملك ليرات كثيرة من الذهب العادلي والمحبوب والغازي والفندقلي ويقال بأنه ورث عن عائلته

twitter @mjanen٢٣

علبة نشوق من الذهب محلاة بالأحجار النادرة بشكل حرف N أهداها لأحد أجداده «نابليون الثالث» وبندقية صيد محلاة بأحجار الزبرجد مهداة من قيصر روسيا.

أيضاً كان عضواً في هيئة الأشراف في دمشق، نقابة النبلاء التي تأسست منذ أول القرن الرابع الهجري وتعطلت في عام ١٩٧٨، وكان هناك ستة عشرة بنداً تتضمنها قائمة مهام النقيب، ومن بينها أن يمنع نساءهم من الزواج من غير الأكفاء لهن حفظاً للأنساب، والنقيب كان يُعيَّن مباشرة من السلطان العثماني لأن النقابة من أعلى الرتب الاجتماعية بعد الوالي والمفتي.

كان «سرور» آغا مهتماً بالتاريخ والأدب وحفظ الأنساب والأصول وتراجم السلف، ويخاف على نفسه كثيراً، لديه خاتم من قرن الخرتيت يتعرق إذا كان هنالك سم في الطعام، وإلى جواره خاتم فيه «الفاذهر» مادة نادرة مصنوعة من مرائر الأيائل تسحب السم من الجسم وتمتصه، ويأتي بنوع من العطور النفيسة يُخرج من جباه ذكور الفيلة ورؤوسها في فصل معين من السنة في وقت الشبق وطلبها للسفاد، كان يجلب من الهند بأثمان غالية يقال بأنه يسعد المرأة ويهيجها، وكان «سرور» آغا يستعمله فقط حين يلج مخدع «بوران».

يضم ليوانه المفروش برياش فاخرة وعدة شطرنج مصنوعة من خشب الصندل.

كان «سرور» آغا يعدل بين زوجتيه، لكن القلب لا يمكنه

twitter @mjanen٢٣

ذلك، كان مغرماً بزوجته الثانية، فخر ذوات الخدور زبدة الموقرات ذات الحجاب المنيع والجاه الشريف الرفيع المصونة «بوران» خانم.

كان لدى «بوران» كنار تبلل جناحيه بماء الورد وحين يدخل عليها زوجها تطلق الكنار وتفوح الرائحة التي ينثرها الكنار بجناحيه، وكانت تسقي كنارها بضع قطرات من النبيذ الأحمر الذي كان يحتفظ به «سرور» عند «بوران» سراً، وعقب تلك القطرات السرية يغرد كنارها وتصدح حنجرته بألحان لا تخرجها الطيور الأخرى.

كان «سرور» آغا يحكي دائماً عن تغريد كنار «بوران»، و«معزز» جلبت عشرات الطيور بينها الكنارات والعنادل لكن أذن سرور آغا كانت مولعة بألحان كنار «بوران» وذات مرة تسللت «معزز» إلى مخدع ضرتها وكسرت رقبة الكنار المسكين، الذي ذهب ضحية قساوة امرأة شبت فيها نار الغيرة. «بوران» لم تحزن كثيراً على كنارها، وأحضرت كناراً جديداً وعادت سيرتها الأولى مع قطرات النبيذ، ومرة أخرى صار كنار «بوران» واحداً من معضلات «معزز» الناقمة على ضرتها، وسرور آغا يخرج من مخدع «بوران» وهو يحكي عن صوت الكنار.

حين تحضر «بوران» النرجيلة لزوجها كان يعتقد أن لأناملها لمسة عطرية ليست موجودة في أنامل «معزز» لكن أحداً لم يعرف أن «بوران» كانت تضيف بضع نقاط من زيت القرنفل للتمباك العجمي.

twitter @mjanen٢٣

وحين يصاب بالرشح وحده مغلي الأعشاب الذي تعده «بوران» كان يذهب البلغم ويريحه من أعراض الزكام، ومن الورد الجوري حضرت ذروراً تضعه خفيةً على وجنتيها، لتزداد غيرة النساء حولها، و«معزز» تكاد تنفلق حنقاً وهي ترى ضرتها تنهض من الفراش صباحاً ووجنتاها حمراوين كزهرة.

«معزز» كانت ابنة شهبندر التجار وبوران ابنة لتاجر «أقمشة الترف» كان يُصدِّر منسوجات قطنية وحريرية «العجمي والكلسي والحموي» أقمشة مزهّرة مفضضة مذهبة إلى فرنسة وإنكلترة وكاتالونيا.

في أحد أيام كانون الثاني في عام ١٩١٤ بدأ مخاض «بوران»، أرادت زوجها إلى جوارها لكن «معزز» تعمدت الإبطاء، وفي ذلك اليوم هبطت أول طائرة تركية فوق أرض المرج الأخضر بوسط دمشق، كانت الطائرة ألمانية الصنع طولها سبعة أمتار مزودة بمحرك واحد لا تتجاوز قوته مئتي حصان بخاري، وهرع أهل دمشق صوب ذلك الكائن المعدني الذي يطير والتقطت الصور الضوئية وكان «سرور» آغا بين المندهشين، وحين عاد مساءً، دخل داره ولسان حاله يقول: «وعلم الانسان مالم يعلم»، دخل مخدع «بوران» بملامح متهللة وضفر لها في جديلتها خمسة غوازي ذهبية وحمل الطفلين وأطلق على ذات الشعر الأشقر اسم «أبريز» وتعني الكلمة الذهب بالفارسية، والصبي سماه «حازم» بيك.

twitter @mjanen٢٣

سقطت الطائرة في ذات الليلة قرب بحيرة طبريا ، كان يفترض أن تكمل طريقها باتجاه فلسطين فالقاهرة التي كانت محطتها الأخيرة على عشر مراحل.

الحرير الدمقسي أو الدامسكو، مثل الفتيات الجميلات، أشعل نار الغيرة وسبب المشاكل بسبب فتنته التاريخية.

ذات زمن كان سبباً لخلاف شهير وقع في بلاط نابليون، بين جوزفين زوجته وسلفتها بولين. في ذلك البلاط كانت النساء يتنافسن على ارتداء الفساتين التي تتلاءم ألوانها والأمكنة التي يقصدنها. وكان باستطاعة جوزفين أن ترتدي ثوباً من الحرير الأزرق إذا علمت أن مضيفتها ستجلسها على كنبة من الديباج الأصفر.

وكانت جوزفين قد أفردت في دارتها حجرة واسعة ملأتها بأثاث مغطى بالحرير الدمشقي الأحمر، وذات يوم ذهبت بولين لزيارتها وفوجئت بأن جوزفين قد غيرت ديكور الغرفة الحمراء دون أن تُعلمها، فقد أصبح لون أثاثها أزرقَ ملكياً، أما بولين فترتدي ثوبا يغلب عليه الأخضر الغامق، أشعرها ذلك بإحراج كبير ولم تطل زيارتها، وعلى أثر هذه الحادثة تخاصتما خصاماً شهيراً.

أعلنت «معزز» خانم الحرب على ضرتها حين وافق الزوج على تجديد عفش مخدع «بوران» بناء على رغبتها بالدمقس الأحمر، لم تحتمل «معزز» وجودها مع «بوران» وأصرت على الانفصال بدار لها وحدها، ولأنها الزوجة الأولى طلبت أن تكون «بوران» هي التي تغادر

twitter @mjanen٢٣

إلى دار جديدة، وكان لها ما أرادت، فخرجت «بوران» مع عائلتها الصغيرة.

كانت الدار الجديدة تقع في حي ساروجا، حي جميل بناه الأمير «صارم الدين ساروجا» أحد الأمراء الناصريين في العهد المملوكي، وكان هذا الحي في العهد العثماني يدعى باسم «اصطنبول الصغرى» نسبة إلى الطبقات الأرستقراطية التي كانت تسكنه.

أرض الدار مبلطة بأفخر المرامر، وجلب لها «سرور» آغا غرفة نوم من خشب السنديان مصنوعة في القدس ولبّس الجدران بالموزاييك، والدمقس الأحمر كان هو السائد في ألوان الدار، البحرات والفسيفساء والسجاد العجمي والأبواب كلها كانت مكسوة بالمرايا المستوردة من البندقية، الوسائد محشوة بالقنب الهندي، وكانت «بوران» خانم أول من قدمت الشوكولا بالفانيليا لضيفاتها في كل دمشق، كل تلك التفاصيل كانت تصب في أذن «معزز» الحانقة.

لم يقل أحد لـ«بوران» بأن فينوس قد حنطت هكتور بماء الورد في تاريخ غابر، لكنها ظلت مواظبة على استعمال ماء الورد بأحابيلها الأنثوية التي كانت تتبعها مع زوجها وحتما لم تكن تعرف بأن نابوليون بونابرت كان يستهلك في اليوم نصف غالون من ماء الورد ويعشق البنفسج، لكن «بوران» بحسها الأنثوي جعلها تعطر حمام زوجها بالبنفسج ليخرج من عندها وأعصابه مرتاحة دون أن يعرف السِّر بالضبط، قبل أن تسكن دارها كان قد استزرع لها حديقة

twitter @mjanen٢٣

برتقال من الصنف ذاته الذي أخذت منه حديقة كاملة إلى فرنسا وزرعت في فرساي في حديقة لويس الرابع عشر، وزرع لها الياسمين، تلك النبتة العنيدة الصاحية التي تتملق الجدران وتتسلق الأسوار وعند كل ركن تبسط مظلتها الدائمة الخضرة.

❖ ❖ ❖

ظلت «بوران» هي الأثيرة، ولم تغير السنين من محبة سرور آغا لها. كانت دمشق وقتها تمر بظروف صعبة، غورو دخل مع جيشه الفرنسي واحتل سوريا، ودمشق باتت عاصمة لمستعمرة، وصناعاتها التقليدية العريقة أطفأتها البضائع الأوروبية التي غمرت المنطقة، ذلك الوضع لم يكن وليد مصادفة، فقبل مئتي عام تقريباً أرسلت مؤسسات أوروبية مبعوثيها وأسست فروعا لها في دمشق وتكونت جاليات غربية، لعل شركة الليفانت الانكليزية وغرفة تجارة مرسيليا وشركة أمستردام الهولندية من أبرز تلك المؤسسات التي نبهت دولها إلى أهمية منطقة الشرق الأوسط في اقتصادها وأوحت لها بضرورة السيادة فيها، ولعبت دوراً أصيلاً في تدني أسعار بضائع المنطقة وتجميد سوقها.

أوصت انكلترة عملاءها التجاريين الأوائل أن يلاحظوا بدقة أنواع الأقمشة وصباغة اللون الأزرق وأن يحضروا لها بذور النيلج لزراعته، وبسبب القطن السوري أقاموا مصانع في لانكشاير.

twitter @mjanen٢٣

حرص سرور آغا على تدليل «بوران» مثل السابق واضطر إلى دخول استثمارات سرية، قيل إنه كان يستثمر سراً محلات في سوق علي باشا، في النهار تبيع أجود أنواع الفواكه الطازجة والمجففة وفي الليل تؤجر دوراً للهو لتعاد في الصباح كمحلات فواكه.

كانت زين الموقرات «بوران» خانم أول من حصلت على ماكينة الخياطة سنجر وعطر شاليمار من غيرلان، وفي عام ١٩٢٦ عندما اخترع فرنسي أول علبة عطر من الكريستال مزودة برشاش كانت وقتها اختراعاً محض باريسي حصلت عليها، وجلب لها من اصطنبول مشطاً من ظهر سلحفاة وياقوتة تدعى دم الحمام، وفي دارها يقيم الحفلات ويأتي بالعوادين والآلاتية والكمنجية..

و«معزز» تبلع غيظها الأزلي إلى حين، ويصبرها على ذلك أن ضرتها لم تنجب غير حازم.

قام «سرور» آغا برحلة للتجارة إلى الحجاز مع مجموعة من التجار أرادوا تعويض بعض الخسائر التي كانوا يتكبدونها بسبب الاحتلال وخلال غيابه دست «معزز» من يشعل الحريق في مخزنه الكائن في الحميدية، وشب حريق كبير ركض مثل مجنون واستمر ثلاثة أيام، اضطروا إلى هدم بيتين في طريقه لايقاف النار بعد أن أتى على أرزاق الكثير من الناس، ولعدة سنوات لاحقة تذكرت دمشق حريقاً لم يفطن أحد أن يد امرأة غيورة أشعلته نكاية بزوجها. «معزز» أصبحت تتمنى فقره حتى لا يتسنى له تدليل «بوران».

twitter @mjanen٢٣

عاد الزوج فرحاً بأرباحه وجلب لـ«بوران» نوعاً نادراً من شموع العنبر، وتقبل خسارته المحزنه بهدوء.

❖ ❖ ❖

«أبريز»، تداولت بيوتات دمشق هذا الاسم بشتى الأحاديث، الفتاة بلغت الخامسة عشر فقط من عمرهما حين بدأن الخاطبات يطرقن باب الأم.

ثمة شاب ثري أراد إرسال أمه لخطبة «أبريز»، كان قد سافر إلى فرنسا لدراسة هندسة النسيج وظل هناك ثلاث سنوات ثم انتقل إلى ألمانية وتخرج فيها من المعهد العالي للفنون النسيجية، وعاد إلى دمشق وقام بتأسيس معمل نسيج متطور، يملك رصيداً مرموقاً من المال في بنك سورية ولبنان ومواظباً على السهر في ملهى الليدو، عبر الكلام المنقول فُتِنَ بـ«أبريز» دون أن يرها قط. عمد إلى حيلة ذكية لرؤيتها بأمان.

كان أن تسلل إلى مئذنة الجامع القريب من دارها، ولقاء ليرة ذهبية صعد أعلى المئذنة في أوقات مختلفة من النهار واختلس النظر إلى الباحة السماوية للمنزل، ومن أعلى المئذنة لمح «أبريز» وهي تداعب قطتها.

عقب شهر واحد تحدثت الشام عن حفل الزفاف الأسطوري الذي زفت فيه «أبريز» إلى المهندس الشاب، وروت النساء لبعضهن عن

twitter @mjanen٢٣

الفساتين السبعة التي ارتدتها العروس وبدلّتها خلال الحفل، وعن الحلويات الفاخرة التي تناولتها المدعوات إلى الحفل.

و«معزز» خانم كادت تموت حنقاً وهي أم لأربع فتيات لم ينلن حتى اليسير من الجمال ولم تحظَ بتزويج واحدة منهن، فيما الكبرى تبلغ الثلاثين.

سكنت «أبريز» مع زوجها في شارع بغداد الذي كان الفرنسيون قد شقوه حديثاً لأسباب عسكرية ليسهل عليهم وصول بساتين تلك المنطقة التي كانت مخبأً للثوار، لأجل سرعة إيصال جرحاهم إلى مستشفى سان لويس الفرنسي الكائن في حي القصاع.

كانت قد بدأت حقبة الثلاثينات وأصبح اللهو على الطريقة الغربية متاحاً لأبناء دمشق، واشتهر بار فريدي ومقهى أولمبيا والطاحونة الحمراء ومحل النيشان حيث يقوم المرء بإطلاق بنادق الخردق التي تعمل بضغط الهواء باتجاه هدف يتحرك على أنغام الموسيقا عند إصابته.

أيضاً انخفض منسوب مياه بردى وبدأت أبنية اسمنتية تبنى بدلاً من الأبنية السابقة المزخرفة بزخارف عربية إسلامية مع تفاصيل مستوحاة من الباروك والروكوكو المنتشرة في أوروبا.

لم تكن «أبريز» قادرة على منافسة مغنية وراقصة يهودية وقع المهندس الشاب في غرامها، ذات ليلة وفي الفراش طلب من زوجته «أبريز» أن تخلع ثيابها كاملة وتتمطى وتتلوى كقطة وخلال ذلك تموء

twitter @mjanen٢٣

تارة بصوت خافت وتارة أخرى بصوت عالٍ. صدمت من طلبه ولم تستوعب الأساليب الغريبة التي بدأ يمارسها معها في الفراش، وراح يجبرها قبل أن يضاجعها على تغطيس نصفها الأسفل في ماء ممزوج بمحلول يدفع عضلة رحمها على التقلص، هو يتلذذ وهي تتألم.

❖ ❖ ❖

لم يكن الشاب الأسمر عمر يشبه شبان دمشق الذين في غالبيتهم شقر بوجوه وردية وعيون زرق أو خضر.

قبل أكثر من عشرين سنة كان ثمة ومضة «قدر» جمعت بين سرور آغا والد «أبريز» و«سالم» الرجل الفقير الذي يعيل أسرة كبيرة و«عمر» واحد من أبنائه. وعندما كان يفيض نهر بردى، وكانوا يسمون ذلك «الزودة» حيث تغرق منطقة من دمشق بعينها بمائه عند مبنى البلدية ومبنى الطبابة ويتم التنقل في ساحة الشهداء بواسطة العربات أو الخيول أو فوق كتفي شخص قوي لقاء مبلغ زهيد، تعرف «سرور» آغا على أجيره الوفي «سالم» في إحدى تلك الفياضانات حين حدث وأن قام «سالم» بحمل «سرور» آغا على كتفيه ونقله إلى مكان جاف، كان سالم مرحاً حلو اللسان، وعرض عليه سرور آغا أن يعمل عنده في محلاته ينظفها ويعد القهوة والشاي لضيوفه، ساعد «عمر» أباه مبكراً، في صغره عمل رساماً لعربات الباعة المتجولين يلبي مطلب أصحابها الذين يجمعهم ذوق واحد، يطلبون أن تحوي الرسمة قصراً

twitter @mjanen٢٣

وحدائق غناء وطاووساً كبيراً يفرش ذيله الشهير، وبعد ذلك بدأ يبيع أشغال الخرز التي كان سجناء القلعة يصنعونها كحقائب اليد النسائية والمسابح ونرابيش الأركيلة.

رغم فقر «عمر» فإنه حين يركب الترام كان يجلس في الدرجة الأولى «بريمو» ويدفع لأجل ذلك سبعة قروش بينما الدرجة الثانية «تيرسو» كانت تكلف أربعة قروش، وحين تأسست سينما زهرة دمشق عام ١٩١٨ ظل يحلم بدخولها مدة عشر سنوات، وعندما ادخر ما ما يكفي لدخولها مع أمه وأشقائه كانت السينما قد استبدلت بمطعم ومقهى وكاباريه.

في شبابه عمل في مكاتب السفريات والنقل لشركة «نيرن» ذات القاطرة الإنكليزية التي كانت تنقل المسافرين بين دمشق وبغداد عبر بادية الشام رافق تلك القاطرات لعدة سنوات، وذات مرة خطر له أن يشتري بالمبلغ الذي يدخره مجموعة من الحيوانات المختلفة من بغداد لعرضها للفرجة مقابل المال، اشترى مجموعة مختلفة من القرود وظبياً وحية هندية ضخمة، يجول في شوارع دمشق وهو يحملها على كتفيه، وبمساعدة اثنين من أشقائه الصغار راح يجول مع مجموعته في حواري دمشق وأزقتها مسترزقاً.

ذات مرة سمعت «أبريز» جلبة غريبة في الشارع خارج منزلها، واجتاحتها حالة فضول غريبة لم تشعر بها قط، وغافلت قدرها وفتحت الباب، في تلك اللحظة بالذات كان عمر يمرّ مع حيواناته

twitter @mjanen٢٣

ويحمل على كتفيه حيّته الضخمة، نظرة واحدة تبادلاها كانت كافية ليصاب الاثنان بدوار غريب، أغلقت «أبريز» الباب، وتابع عمر طريقه بين الحواري.

وقتها قررت «أبريز» أنها لم تعد تريد العيش مع رجل لا يرى جمالها، وحزمت أغراضها وعادت إلى منزل أمها وأصرت على الطلاق.

كانت تغطي وجهها بالطوربان حين قصدت الخياط النسائي «ألبير»، تأخرت عن اللحاق بأمها لسبب لم تفهمه تماماً لكنها تتمنى لو تمشي لوحدها في الشارع دون وصاية أحد، لابد أنها لحظته وهي تخرج من الدورة التدريسية المسائية للبنات التي كانت تتردد عليها في معهد جان دارك مع رفيقاتها، تمنت لو يراقبها أو يختطفها..

لم يكن يبعد محل الخياط عن منزلها مشياً أكثر من عشرة دقائق ومشى عمر وراءها، قالت له وهي تكاد تموت إرباكاً وتلعثماً: «إرحل أرجوك»..

- «لا»، حين قال لها عمر ذلك، التفتت إليه ورفعت الطوربان عن وجهها لأقل من ثانية كأنها تريده أن يرى عن قرب ما يستحق أن يخاطر من أجله، تابعت مشيها وسألته: «ما اسمك»؟!.. قال: «عمر وابن سالم أجير أبوك» تسأله مرة أخرى بسرعة: «مالحل»؟!. قبل أن تصل محل الخياط بدقيقتين قال لها: «سنهرب، سآخذك إلى عمان أو حلب أو بغداد أينما تريدين نذهب». لم تجاوبه تابعت مشيها بخطى أبطأ وتابع هو كلامه يقول: «وافيني في ساحة المرجة أمام ساعتها

twitter @mjanen٢٣

سأنتظرك هناك في تمام الساعة الحادية عشرة صباح يوم الاثنين القادم». لم يسمع منها جواباً دخلت المحل وتابع هو طريقه.

في صباح اليوم المحدد جدلت «أبريز» شعرها بكل ما لديها من ليرات ذهبية. حملت كامل مصاغها، وخرجت واستقلت الترام ووصلت ساحة المرجة في الساعة الحادية عشرة تماماً. مرت ربع ساعة وعمر لم يظهر وأكثر من ذلك لم يعد وقوفها ممكناً، وعادت أدراجها إلى المنزل قبل أن تنتبه أمها، كل ظنها كان أن عمر لم يعد يريدها، مرضت وظلت لمدة شهر حبيسة البيت.

لم يعدل عمر عن رأيه، لكنه لم يكن يملك ساعة، ومنذ طلوع شمس اليوم المحدد انبرى يتمشى في منطقة المرجة وبين لحظة وأخرى يعلق عينيه بالساعة الحجرية الضخمة لكنه لم يكن يدري بأن «الزبالين» التابعين إلى البلدية كانوا يعبثون بعقارب ساعة المرجة بأعقاب مكانسهم الطويلة ويعدلون الوقت بحيث تنتهي نوبة عملهم أبكر بساعة لأنهم يعلمون أن مراقب دوامهم لم يكن يملك ساعة ويعتمد ساعة الساحة. وعمر انتظر «أبريز» في الساعة العاشرة ظناً منه أن الساعة الحادية عشرة كما تشير عقارب ساعة البلدية و بضع دقائق كانت بين مغادرته للساحة بيأس، ووصول «أبريز» التي كانت تتطلع إلى ساعة زوجها الذهبية التي تحملها في كفها وتراقبها دقيقة بدقيقة، لم يخطر لها الانتباه إلى ما كانت تشير إليه عقارب ساعة المرجة.

twitter @mjanen٢٣

للمرة الأولى التي طرقت فيها «معزز» خانم باب ضرتها «بوران» منذ انتقالها إلى سكن منفصل كان عقب لقاء «أبريز» وعمر بشهر تقريباً، يبدو أن «أبريز» قد ثرثرت مع إحدى رفيقاتها في المدرسة عن «عمر» وعن عزمها الهروب معه. ووصلت القصة إلى مسامع «معزز» التي سال لعابها للحكاية وجاءت ترويها لضرتها بلغة شامتة مهددة، وبالمقابل عرضت على «بوران» أن تكون ابنتها «أبريز» زوجة لشقيق «معزز» الخمسيني والذي كان من بين أوائل الذين اشتروا سيارة «فورد أبو دعسة» في دمشق، ثري وله زوجتان سابقتان وعدد من الأبناء.

أعطت «معزز» مهلة لـ«بوران» مدة أسبوع لتجيبها على طلبها وإن لم تفعل وعدتها بأن دمشق كلها ستعلم بأمر حكاية غرام «أبريز» وسبب طلبها الطلاق.

واظب عمر على مراقبة باب بيت محبوبته لكنه لم يحظ بها خارجة منه إلا وهي عروساً تزف إلى «لامع» بيك شقيق «معزز».

استثمر «عمر» موهبة قديمة لديه، وأصبح أشهر حكواتي في دمشق، كان يحكي سيرة الظاهر وعنترة بالعربي والفرنسي والشركسي والأرمني والتركي رغم أنه كان أمياً لا يعرف شيئاً عن القراءة والكتابة.

تحسنت أحواله كثيراً، خلال خمس سنوات لم ينس فيها «أبريز» يوماً واحداً، يتسقط أخبارها بين وقت وآخر وكان يعلم أنها لم تنجب أولاداً خلال تلك المدة، يختلس النظر إليها وهي تخرج إلى السوق مع

twitter @mjanen٢٣

نساء أخريات، يمشي وراءها ويظل بعيداً، ومرات قليلة التقط نظرة عينيها الغاضبة بعد أن نزع معظم نساء دمشق الطوربان واكتفينَ بتثبيت نصف الحجاب بدبوس تحت الأنف وأصبح النصف الأعلى من الوجه سافراً.

ذات مرة كانت تمشي لوحدها تقصد متجر البضائع الهندية في السوق، كان واقفاً جوارها تماماً يتصنع النظر إلى واجهة المحل الكبيرة، قالت له دون أن تلتفت إليه: «لماذا لم تأت عالموعد بالمرجة يوم الاثنين»؟!.. وأتبعت سؤالها بلفتة سريعة ونظرة لاذعة مكذبة سلفاً كل ما يمكن أن يسوقه من حجج وأعذار، وأجابها غاضباً: «أنت لم تأت عالموعد يا خانم»!..

بعد يومين فقط جدلت «أبريز» شعرها بكل ما تملك من ليرات ذهبية وحملت مصاغها ورافقت «عمر» إلى حلب.

هناك تاجَرَ «عمر» بالدخان البرنجي والايكنجي ودخان «حسن كيف» الذي كان يأتي من قرية حصن كيفا الواقعة على نهر دجلة، استأجر لها منزلاً في حارة يسكنها الأرمن وبعد أقل من سنة أنجبت له صبياً سمته «عاشقاً».

كان «عمر» خارجاً من حمام «يلبُغا» قبلي القلعة، حين أرداه قتيلاً رجل مأجور أرسله زوج «أبريز».

تابعت «أبريز» حياتها في الحي الأرمني بحلب تقتات من فوائد ذهبها إلى أن اختفى الصائغ الذي كانت تستثمر عنده ذهبها وهرب

twitter @mjanen٢٣

إلى البرازيل كما ذكروا لها.

حين طرق بابها شقيقها «حازم» بيك كانت مريضة شاحبة ولم تأكل اللحم منذ أكثر من شهر وطفلها عليلاً يلازمها مثل ظلها، «حازم» بيك كان مولعاً بتجارة الخيول ويقوم بشحنها من حلب إلى اسكندرون ومن هناك تذهب إلى فرنسا التي كان قد قضى فيها شبابه المبكر حين كان يدرس الطب الذي هجره وعاد ليصبح تاجراً مثل أبيه. حزمت حقائبها لتعود مع ابنها إلى الشام بحماية «حازم»، أول خبر سمعته كان عن أبيها، مات مسموماً دون أن يحزر أحد كيف دخل السم إلى جسده.

حين عادت «أبريز» إلى أمها كان ذلك أجمل شيء حدث لـ«بوران» خانم، لكن فرحتها لم تدم، «أبريز» عقب عودتها بأيام وقعت طريحة الفراش لم يعرف أحد داءها ولم يفلح طبيب بمعرفة دوائها، «حازم» بيك جلب لها أشهر الأطباء الأجانب في دمشق لكن «بوران» كانت على يقين أن «أبريز» لم تعد قادرة على مفارقة عمر أكثر، وفي ليلة شتوية باردة أسلمت الروح وتركت طفلها «عاشق» في عهدة «بوران».

❖ ❖ ❖

ترقد وحوش من خرافة في قلب الهوى، هكذا كان غرام «حازم» بيك لـ«سكرى»، و«سكرى» كانت عاشقة لطيفة محبة وتمرّ

twitter @mjanen٢٣

بنوبات حزن عميقة حنيناً لأهلها.

«معزز» خانم بهت حقدها على ضرتها بعد موت «سرور» آغا، كانت «سكرى» الغريمة الجديدة في حياة «معزز» التي لم تكن راضية مطلقاً من زواج حازم المفاجئ من تلك الفتاة البدوية التي لا تعرف كيف تقضي حاجتها في مرحاض، في حين كانت رغبتها تزويجه لواحدة من بنات شقيقتها، احتملت «بوران» الحياة مع ضرتها وبناتها بناءً على رغبة من «حازم» الذي رأى أن من واجبه الاعتناء بشقيقاته عن قرب.

ما من سراب ينهض بقامته الضارية لينصب كمائن الاحتيال حول «سكرى».

كانت لوحدها في صحراء من نوع آخر، حين حملت «سكرى» وتوحمت على البيلون، سخرت «معزز» منها بكل جوارحها وهي تسمع شرح «سكرى» عن تلك المادة الترابية التي يحدث أن كثيراً من نساء البدو يحملنها في جيوبهن يلتهمنها بشكل متواصل خلال الأشهر الأولى من الحمل، اشتهت «سكرى» ذلك التراب الصابوني وجلبه لها زوجها وسط قهقهات «معزز» الغاضبة ونظرات «بوران» المتعاطفة.

كانت «بوران» تحدس معنى أن تكره «معزز» أحداً، لكنها لم تفطن مطلقاً إلى أن تلك المرأة التي لا تكاد تفوِّت وقت صلاة وتسهم في كل الجمعيات الخيرية في البلد أن تكون حقودة لحد قتل أحد، وإذا كان قد فاتها أن السم دخل جسد زوجها الراحل بموس الحلاقة

twitter @mjanen٢٣

الذهبي الذي كان يستعمله أحياناً ابنها «حازم» في البيت وحدث لظرف طارئ أن «سرور» آغا هو من استعمله مصادفة، فإن السم الذي فات جسد «سكرى» عقب ولادتها لطفلة بساعتين، لم يفت «بوران»، حكت «سكرى» لـ«بوران» عن منام رأته وظلت خائفة من «معزز» كيفما تحركت، وحين أتاها المخاض كانت تلازمها «بوران» لم تفطن لما يمكن أن تضعه في مغلي القرنفل الذي جلبته لـ«سكرى» فور ولادتها، كثير من النساء كن يعرفن تحضير مغلي القرنفل بطريقة تكون قاتلة بسبب فرط غليه وشروط أخرى يعرفنها.

تتحرى «بوران» يدي «سكرى» الباردتين، فقط قلبها كان ساخناً في لحظاتها الأخيرة، وهي تفعل مثل أي بدوي داهمه الموت، وتطلب مكاناً مرتفعاً تدفن فيه، أرادت أن ترقد على تل مصيرها المبرم سلفاً مع الأمس، حين الأبواب تنفتح بنفسها ويدخل الموت.

عقب موت «سكرى» الغامض غادرت «معزز» خانم إلى الحج وتوفيت قبل وصولها الديار المقدسة، فيما الياسمين يعرش على شرفات الظهيرة ويستريح على الماضي مثل حمامة.

والسراب - طبعاً - لا يملكه أحد، من قال له إننا في الامتلاك ندمر ما نحبه؟!..

twitter @mjanen٢٣

مَلَكْشَاه... سكرى

اسمها «مَلَكْشَاه»، حمّلوها اسماً اعجمياً، اسماً يليق بقائد فيلق أو الأجدر أن تحمله قلعة في أقاصي آسيا، أي اسم ثقيل يمكن أن تحمله تلك الظبية، وحده أبوها البيك رأى ذلك وأصر على أن تحمل اسم أمها، وظل الاسم الذي اختارته «بوران» خانم، فقط في قيودها المدنية.

كبرت «سكرى» الثانية ومشت على كل الطرق المكسوة بعشب الذاكرة، تعلمها جدتها المشي بالقبقاب الشبراوي وتحممها برغوة الخزامى وتعطرها بروائح مستوردة من فرنسا وتخيط لها أجمل الأثواب، وحين أمسكت بحفيدها «عاشق» يداعب «سكرى» بمكان حساس تحت ثيابها قررت أن الطفلين كبرا وأصبح من اللازم فصلهما، وبحزن ودعت «سكرى» وتركتها تنمو بين عماتها المتدينات وزوجة أبيها التي حظيت بالبيك عقب موت البدوية، وظلت الطفلة تلوذ بظلال أبيها البيك حازم وهو يدللها ويجلب لها كل ما تطلب وتشتهي وبنفس الوقت تتنفس هواء محتقناً ببارود الغيرة، كلما أتت بحركة

twitter @mjanen٢٣

تخالف المتعارف عليه ينعتونها بحنق: بدوية.

«من هم هؤلاء البدو»؟!.. تسأل أبوها ويجيبها: «يشبهون ذلك الرجل الذي تحبينه، الأمير محمود الذي يرتدي العباءة السوداء المذهبة».

لم يكن الأمر مصادفة برأي البيك حازم أن ابنته الشقية اختارت من بين كل ضيوفه الأمير محمود لتتودد إليه، خرقت «سكرى» العادة المدنية وجالست ضيوف أبيها وسط احتجاجات زوجة أبيها: «عيب يابدوية» ترد «سكرى»: «لا عيب عند البدو» والبيك حازم يبرر قائلاً: «إنها طفلة». كرهنها عماتها حين لم تلتزم بالصلاة والصيام، لم تصم شهر رمضان قط، وصارحت أبيها أنها تحب مجالسة الرجال.

تقضي ساعات طويلة في تلك الغرفة الواسعة التي كانت تدعوها زوجة أبيها بتقزز: «غرفة البدو».

«سكرى» حفظت عن ظهر قلب أسماء وميزات تلك البنادق والسيوف المعلقة على جدران الغرفة الواسعة: ثلاث بنادق من بنادق «الصَّمْع» وهي بندقية إنكليزية عسكرية قديمة كان لها شعبية كبيرة بين عامة البدو قبل الحرب العالمية الأولى، تسأل «سكرى» أبوها: «كم ثمنها»؟!.. يقول البيك: «حوالي خمسة وأربعين مجيدية، هذا سعر الأصلية منها، أما تلك التي تأتي من الهند فكانت تباع بين عشرين وثماني وعشرين مجيدية». ويتابع كلامه وهو يشرح لها للمرة الألف: «وهذه يدعونها ـ الشيهاني ـ بندقية عسكرية تركية نوعية أم

twitter @mjanen٢٣

قفل» ويشير إلى بندقية أخرى ويقول : «وهذه بارودة - أم اصبع - بارودة تلقم من مؤخرتها لهذا سعرها كان منخفضاً والبدو لا يفضلونها» ، وثمة بارودة متهالكة من البندقيات العتيقة ماسورتها ذات ست زوايا من الداخل كان البدو يسمونها اسماً مضحكا كما تراه سكرى «شيشخانة».

وهنالك أيضاً مسدس «كرداغ » روسي وسيف من الفولاذ الأسود مصنوع في الهند وآخر مصنوع من فولاذ مسبوك في خراسان وخنجر عريض طويل يسمونه «قديمي». وكل أنواع العصي التي كانوا يستعملونها ، الباكور والمحجن والقناة والمسلوت والمذروب..

ولتشاهد المزيد من البدو كانت ترافق البيك إلى سوق الطيور الحرة في دمشق حيث تجري مفاوضات بيع الصقور للسعوديين والخليجيين، وهناك ترى كثيراً من الرجال الذين يعتمرون الشماخات وتسأل البيك:

- «لكن لم أر امرأة بدوية ، أين نساؤهم»؟!..

بصوت خافت يجيب:

- «لا يأتين إلى هنا»..

- «لكن لماذا»؟!..

بهمس يقول:

- «يكرهن المدن».

لم تقتنع بجواب أبيها فسألت الأمير محمود وحكى لها كيف أن

twitter @mjanen٢٣

أميرة مصرية في عهد الخديوي عباس الأول - وكانت ابنة شيخ بدوي - أمرت بنصب خيمة لها فوق سطح القصر الذي تعيش فيه..

في السوق تمعنت بتلك الطيور التي لا تشبه الحمائم أو العصافير، وهناك سألت الأمير محمود عن الفرق بينها، فقال لها عن طائر أصفر العينين مدور الرأس قصير الجناح طويل الأرجل يقول لها:

- «هذا باز وليس صقراً»..

وتابع شارحاً لها: «لجناح البازي من عدد الريش عشرون، أربع قوادم وأربع مناكب وأربع أباهر وأربع كلى وأربع خواف»..

يشرح لها وهو يلامس ريشات الطير المقنع، ودون أن تضيع «سكرى» وقتها تسأله:

- «وكيف تفاضلون بينها»؟!..

فقال لها مجدداً:

- «قصر الخوافي والذنب وعرض ما بين المنكبين والزور واكتناز الفخذ وعرض مابينهما وتضمير الساقين وسعة الكفين وسواد المخالب وغلظ خطوط ريش الصدر وسواد لسانه»..

- «كل هذا»!..

تستغرب سكرى ولا تحفظ شيئاً من تلك الأوصاف، لكنها أصبحت تعرف أن الباز يميزه فرط حرصه على أخذ طريدته والبازي هو الأنثى وذكره هو «الزّرق» والإناث أجرأ على الصيد من الذكر، «لماذا»؟!.. يقول لها الأمير محمود:

twitter @mjanen٢٣

- «إناث الجوارح مثل نسائنا أدهى منا نحن الرجال»..

يغمزه البيك ويتبادلان نظرات وقهقهات لا تفهمها «سكرى»..

- «وكيف تميزون بين الاثنين»؟!..

يستأنف شرحه؛

- «الزرق أطول عنقاً من الباز وفي رجليه خضرة»..

- «أكل البزاة شجاعة»؟!..

- «لا يا مزيونة البازي يمتحن، كأن يجعله صاحبه في مكان مضيء وفجأة نقطع عنه الضوء تماماً وفي العتمة يدنو منه ممتحنه ويناوشه بلمسة سريعة فإن وثب على يده وقبض عليها فالباز جريء وإن سكن وارتبك منقبضاً فليس جريئاً».

كانت تنتظر جلسات المجلس النيابي بفارغ الصبر لأنها تعرف بأن الأمير محمود سيتناول الغداء في بيتهم عقب انتهاء الجلسة، وتتابع ممارسة فضولها عن الصقور والبدو، يجاوبها بكل ما يتعلق بالطيور الحرة لكن لا يجاوب عن كل أسئلتها حول البدو، ومنه علمت أن «الحيوان بعضه آكل وبعضه مأكول، والآكل أكثر حيلة وأبلغ مكيدة، والمأكول أكثر خوفاً وأشد تحفظاً»..

وحكى لها عن تدريب الوحوش والجوارح، عن الصيد وكيف أن واحداً من العرب العتيقين «بلغ حذقه بتدريب الجوارح أنه درب ذئباً حتى اصطاد له الظباء ودرب فهداً حتى صاد له الأيائل ودرب الزنابير فاصطاد بها الذباب ودرب حية يستخرج فيها الدراج».

twitter @mjanen٢٣

يضحك وهو يرى دهشة «سكرى» التي لا تقول غير:

- «حقاً»؟!..

ثم يقول للبيك:

- «وبعض النساء كالعقارب والزنابير والحبارى سلاحها في أذنابها»..

تعلو ضحكة البيك وتسأل مجدداً: - «من أين أتى البدو»؟!..

- «من نجد يامزيونة»..

- «لماذا»؟!..

- «لأن الشام بلاد الخمر والخمير والأمر والتدبير والديباج والحرير».. كانت قد بلغت الرابعة عشر من عمرها حين قرأت سيرة الزير سالم وسألت الأمير محمود بجدية:

- «لماذا تتعاركون كثيراً»؟!..

- «سأجاوبك يابدوية مما قاله النعمان جواباً لكسرى، إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأزماتهم وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين».

تبتسم «سكرى» وتسأل:

- «كنتم قبل الاسلام بلا دين، ماذا يجمعكم»؟!..

فقال لها: - «النسب واللغة وحب الحروب».

❖ ❖ ❖

twitter @mjanen٢٣

في مراهقتها انغمست بالمطالعة، تقرأ الكتاب تلو الكتاب، تتنقل بين ورقة وأخرى كصياد يقتفي أثر طريدة ذكية في غابة، جذبتها كتب المذكرات والسير الشخصية، قرأت كل ما وقع بين يديها من مذكرات أدباء، وسياسيين، راقصات، ممثلين، مخرجين..

تحمل شغفا خفيا بأولئك البشر، من الطراز المضاد، الذين يلحقون أحلامهم التي تقودهم إلى الموت.

ومبكراً عرفت أننا كبشر بطبعنا مولعون بمن يمضي حتى النهاية ممتحنا العالم به، أو العكس، حيث لا عويل، لا ندب، لا بكاء، إنما مواجهة، وجها لوجه وعراك يتجاهل الحتف، وإذا كانت كل الطرق تبدأ بالدم فلتنته بدمه.. في ذلك الوقت تحديداً قرأت كل أدبيات التراجيديا المتاحة، أصبحت تحب الأدب بنكهة المأساة، أصبحت تشبه الذاكرة البشرية، مولعة بالأبطال الذين يموتون، وكأن مغريات الموت أقوى أو أكثر جمالاً من تسويات الحياة المحتملة، وتعرف أن شراسة الأبطال تحتاج إلى النهايات، كأن النهاية هي الدواء اللازم لإكمال جمال البطل، كذلك تعلمت كيف تفهم بعض البشر، فقط حين يخبروك بأسماء أبطال الأدب الذين يحبونهم، «سكرى» وقعت في غرام هاملت وألان ديلون.

❖ ❖ ❖

الشعر كائن متشرد وجوّاب شوارع وكذّاب. هكذا كانت

twitter @mjanen٢٣

تظن لكن ابن عمتها عاشق صحح لها معلومتها تلك وقال: "الشعر ليس كذابا، لكن يحق له الكذب.. الكذب السلطة الوحيدة التي تخدم الحقيقة التي نشتهيها.. الشعر يتسكع ليقبض على حلم جوال.. قد يلقاه عند ناصية شارع ما، أو منعطف جادة مجهولة.. الشعر يكره ما نسميه «نهاية المطاف» يدور في كل الشوارع المتاحة، يهرب من طريق مسدود قد يباغته وسط اقتراحات صدفة ما.. يعلمك الشاعر كيف تشبه الربيع، كيف ترحب بالعاصفة لتترك الريح تنقل بذور المستقبل تحت أنظار ماضيك وكل فصولك الرمادية الفائتة.

لأجل كتابة الشعر نصحها «عاشق» وهو يقول :

- «تأتي القصيدة عجولة.. جارية، ساهية، امسكيها قبل أن تبتلعها أرض اللحظة».

كلاهما كانا يكتبان الشعر و «سكرى» تقول لـ«عاشق»:

- «كتابة الشعر، موضة».

❖ ❖ ❖

مغرورة، مشتتة، نافرة، نرجسة في عز النهار، تحت لظى تموز على شاطئ من خرافة حطت عليه عشتار قبل ثلاثة آلاف عام، وقد خلقت لتوها من زبد البحر.

وتضحك تلك الضحكة التي يحبها.. حين تكاد أسنانها تهرب منها ويسألها عاشق:

twitter @mjanen٢٣

- «بماذا تحلمين»؟!..

- «أحلم أن ألتقي قرصاناً بساق واحدة وعلى كتفه تقف ببغاء».

- «دائماً عرفت أنكِ مولعة باللصوص و القراصنة»..

- «وكل الخارجين على القانون.. أكره الأفلام التي تنتهي بالقبض على اللصوص الذين يسرقون البنوك، ألا تحبهم مثلي»؟!..

يلتقط صورة وهو يقول:

- «أنا أحب البرابرة».

- «البرابرة!.. الذين نراهم في السينما»؟!..

- «لا، الذين يأتون عبر البحار مغامرين جاهزين للموت وللحياة، لا يحلقون ذقونهم ولا يشذبون ملامحهم بأدنى محاولة تحضر، عيونهم مأكولة بالبريق، بريق وَرِثوه عن عيني الآدمي الأول الذي حطَّ رحاله في كهف وطوّر براثنه حتى لا يقتصر أكله على بصلة وخبزة». من خلال العدسة يقرأ استفهاماتها الكثيرة ويكمل كلامه الحاسم الهادئ. «بلى يابدوية، البرابرة هم أيضاً خارجون على القانون، كيف برأيك كان حالنا من دون البربري الأول؟!.. الذي اخترع السكين ورأى كل من حوله طريدة، هؤلاء البرابرة.. لو أننا نشبههم بعنفهم الواضح الصريح.. يتزينون لغزوهم قبل أن يفكروا بالتأنق لمحبوب، يتزينون بما وقع تحت أيديهم من صلصال ملون، أو دم ظبي، أو دم ضحية».

- «ومن غير البرابرة تحب»؟!..

- «أحبُ الفرنسيين لأنهم اخترعوا المايوه البكيني».

twitter @mjanen٢٣

- «تقول هذا لأنك تراني الآن بالبكيني»؟!..

- «هل تعرفين لماذا اسمه بكيني»؟!..

هزّت برأسها نفياً.. واستدارت نحوه ليلتقط لها صورة مباشرة.

- «الذي ابتكر هذا المايوه أطلق عليه اسم، بكيني، ليربطه بتجربة نووية أمريكية أجريت قبل ذلك بخمسة أيام في جزر بكيني في المحيط الهادئ».

- «إذن أنا الآن نووية المفعول»؟!..

- «ومن تحبين أيضاً يا نووية،ألان ديلون»؟!..

- «وسامة وجهه تشبه وسامة النمور، ويعرف كيف يموت في أفلامه، يتقن الموت، أنت تغار من آلان ديلون»؟!..

- «الآن اثبتي، لا تضحكي، انظري نحوي مباشرة».

تفعل ذلك و يأخذ لها لقطات سريعة وهي تقول له:

- «الوجوه مثل القصائد بعضها أبيات متناغمة مفهومة واضحة وصريحة، كأشعار نزار قباني، وثمة وجوه غير متناسقة، تجمع الغرابة مع القبح، تكثر من وضع المساحيق لتمويه حقيقتها تماماً مثل بعض الشعر الحديث، وهنالك وجوه تظن بنفسها الجمال، مثل بيت شعري منمق، لكنه تافه يبحث عن مستمع منافق، والوجوه التي تعيد تشكيل تقاسيمها بخيط وإبرة الجراح، تبدو مثل شاعر أحمق يطارد المارة بأبياته، يبادر كل من يراه بالشعر».

يلتقط «عاشق» مزيداً من الصور وتتابع هي قائلة:

twitter @mjanen٢٣

- «أودُّ لوجهي أن يشبه مسرحية هاملت، أريده جميلاً وسامياً، فيه أبهة ونبل».

- «ينقصك الكثير من الحزن لتشبهي هاملت، أقترح أن تشبهي جين فوندا، هذا أسهل على من تملك جسدك هذا، لماذا لا تصبحين ممثلة»؟!..

ترجع كلا ذراعيها إلى الخلف وتخفف من غلواء غرورها وتقول اقتراحاً جديداً:

- «إذن أبتغي».

ينظر «عاشق» إلى السماء للحظة وتعود عيناه للاختباء وراء العدسة ويقول بلهجة الأمر:

- «اجلسي تحت المظلة.. مدي ساقيك و أرجعي ظهرك إلى الخلف ولا تنظري إلى العدسة».

تفعل ذلك و يجلس مقرفصاً ويلتقط صورة أخرى و يقول:

- «عليك أن تميّزي بين التمنّع والغرور، التمنع يجذب الرجال، والغرور ينفرهم».

- «قل لي كيف يجب أن أكون»؟!..

- «كوني غامضة مثل جريمة».

- «أريد أن أشبه النمور».

- «شريرة».

- «ليس تعلقي بالنمور علامة شرّ. لكنني متأكدة أني أحافظ

twitter @mjanen٢٣

على وزني، ليس لأشبه نجمات فرنسا.. أفعل ذلك لأشبه رشاقة النمور المفزعة».

- «إذن مازلتِ تعيشين الحب كقصص رومانسية، انظري إلى فوق حين تمرين بالحب كتجربة ستصبحين مولعة بالأفاعي».

ترفع شعرها إلى أعلى وتسأله: - «ألا أشبه الفرس»؟!.

بسرعة يجاوبها: - «لا يمكنك أن تكوني فرساً، تنتمين لفصيلة السنوريات».

ضربته بأناملها وهي تقلد هرة غاضبة: - «كيف تراني»؟!

تسأله مجدداً وهي تحسر ثوبها عن فخذيها.

- «أراكِ أفضل قصيدة لم أكتبها مؤلفة من كل الأبيات المدهشة التي خطرت لي يوماً.. ولم أعتقلها».

- «لماذا لم تعتقلها»؟!..

- «لم يكن حولي أوراق».

- «أين كنت»؟!..

- «اثبتي أكثر، أريد صورة ساكنة، لا تطرحي أسئلة، كوني جميلة واصمتي».

ضحك حين قالت له بأنها تريد أن تكتب رواية.. وقال:

- «الروايات يكتبها الحزينون».

❖ ❖ ❖

twitter @mjanen٢٣

كان ثمة مشهد في آخر فيلم حضرته برفقة ابن عمتها «عاشق»، خلال المشهد يستحم شاب مع شابة، تقول له: «أن ليس في وسعك المرور بين ساقي خلال السباحة»، تقول ذلك وتقف وسط المسبح وساقاها مبتعدان الواحد عن الآخر، هنا تنزل الكاميرا إلى عمق المياه، ويغطس الشاب مستعداً للمرور بين ساقي الفتاة، ولكن هذه تقرّب فجأة ساقيها من بعضهما البعض بحيث يبقى رأس الشاب معلقاً بين الساقين، ونشاهد فقاعات هواء تخرج من فمه، وفي النهاية تحرره، فيطفو على السطح وهو على آخر رمق، ويقول لها: «كدت تقتليني هذه المرة»، فتجيبه: «أما كان موتاً رائعاً»؟!..

فيما «سكرى» خارجة من الفيلم تلقف فمها أول قبلة عرفتها في حياتها، كيف يمكن لتاريخ كامل أن يتساوى مع قبلة؟!. مرت اللحظة مثلما يمر سرب لقالق فوق سماء مدينة، ينأى بحذق و بسرعة صوب قدره، حين تمر هكذا قبلة في حياة أحد منكم لا تنبسوا ببنت شفة لأن تلك اللحظة ستكون دائما على صواب، لحظة لن تهز رأسها مع أو ضد.. فقط لا تندموا.. نكران جميلها أمر لا يغتفر.

تلك القبلة كانت كاملة الوضوح رافقها في عيني عاشق بريق ينفذ عبر اللحم والدم والحلم، حلم رومانطيقي قديم نفذته «سكرى» التي عرفت مبكراً أنه من الجبن أن نرفض متعة اقتربت منا بلحظة قدرية، منحازة لنا ولو مؤقتاً.

عقب تلك القبلة اكتفيا بتبادل ابتسامة تؤكد ما حدث، لفّ

twitter @mjanen٢٣

الوشاح الصوفي حول رقبتها وأنهاه بعقدة أنيقة، وأحكم طاقية الصوف على رأسها وسحبها من يدها كطفلة.

لم يتحدثا في شيء، أوصلها بصمت صوب البيت، وودعها بقبلة خفيفة ساخنة طبعها على رقبتها. وفي عينيه يترجرج لمعان يذكّر بأوراق أشجار حور في ليلة عاصفة و مقمرة.

لم يكن أمامها سوى أن تتمترس في وجه الأسباب المتعددة التي تدعوها إلى إيقاف قصتها مع «عاشق»، وتخفق في تبرير مآرب «الأنا» الملعونة التي أصبحتها، أبوها يؤكد لها دائماً بأنه لن يزوجها من «عاشق»، لأن الشعراء كذابون.

تتظاهر بالحذر مع «عاشق» فتعطيه متراً واحداً، فيأخذ كامل أرضها، وتسمح لشرّها الصغير بالتبرعم وسط حقل من ألغام التحذيرات من العواقب.

استسلمت لسكرة الذروة وتجاهلت أنها لا تتوغل في أرض محايدة، كلّ الذي حدث كان قبلة، لكنها أخذت أبعاداً كثيرة لديها، يأسرها الفرق بين العض والقبلة، تاريخ سحيق من التهذيب السطحي لشفاه الرجال، لأنهم بسرعة يحولون القبلة إلى عضة في غمرة إطلاقهم لحميميتهم لأقصى حدّ، تظهر البدائية في التعبير عن الحب و اللذة، و يغدو العنف غريزة ملاصقة للذة، لكن بفضل الحب تحولت العضة إلى قبلة وبفضل القبلة فقط أمكن للبشر ارتياد قلوب بعضهم البعض و اجتياز الممر السري بين الوحش والإنسان، تهذبوا

twitter @mjanen٢٣

كثيراً، حتى بلغوا مصاف القبل، فيمكن للشفاه أن تلعب لعبتها، تبوح بشيء، وتستر أشياء، والعكس صحيح، ومهما تفلسفنا، ستأتي إلينا قبلة وتكون مثل حكمة في محلها!.. قد تكون حصيلة إيماءات، حنان، ولع، توق، خجل، لاتحاد فيزيائي نخضع فيه لإملاء اللحظة.

تتمنى «سكرى» لو تجرؤ وتقول لعاشق: «در ظهرك إلى الحائط، وعدّ إلى المئة، وعندما تفتح عينيك عليك أن لا تجدني».

كانت تشعر بأن الريح تصفقها كدرفة نافذة نُسيت مفتوحة، ومثل رجل محكوم بالسجن المؤبد، أذعنت لغرامها، أو الأصح لمرضها المُشخَّص منذ زمن بالنسبة لديها: «عاشق».

كان ما يدهشها دوماً هو فقر أفكارها حول نفسها، البشر يعشقون رغم أنفهم، هكذا بررت لنفسها الفرحة التي لخصت كامل إحساسها حين قبلته، على الأقل كانت مفعمة بالحياة واثقة من رغباتها، و عطلت «سكرى» قواها العقلية لصالح قواها القلبية.

❖ ❖ ❖

مبكراً نظرت عبر عيني الموت، فقط ضباب رغوة ملح الدموع فصلتها عنه، لم تنس قط عيني ابن عمتها «عاشق» وأصبحت تعرف أن الألم يمكن أن ينفتح فجأة مثل فم أو جرح يغذينا بعظمتنا وبؤسنا في آن واحد وينحت وجه مصيرنا.

عيناه الزرقاوان مفتوحتان إلى أقصاهما لحظة مرقت الرصاصة

twitter @mjanen٢٣

من فمه، كان أهم وربما أجمل شيء حدث لـ «بوران» أنها توفيت في فراشها مثل أي عجوز هانئة قبل أن تشهد فجيعتها بحفيدها الغالي «عاشق».

رفض «حازم» بيك مراراً طلبه الزواج بسكرى التي شبَّت وهي مغرمة به. وذات يوم أعلن أنه سيزوج «سكرى» واحد من معارفه الأثرياء.

كانت «سكرى» في التاسعة عشرة من عمرها وفي سنتها الجامعية الثانية، عندما نهضت على صوت جلبة بالخارج، كانت عماتها الأربع وزوجة أبيها يصرخن هلعات من منظر المسدس المشهر بيد «عاشق» الذي كان يتقدم على عجل كأنه متأخر على موعد صوب غرفة «سكرى» التي جمدت بأرضها حين رأته في تلك الحال، احتضنها وصوب المسدس على رأسها مباشرة وبعينين مغرورقتين بالدموع صرخ صرخته الأخيرة وبسرعة وضع المسدس في فمه ودوت الرصاصة.

أطلق الرصاصة على رأسه في اللحظة الأخيرة ولم يجرؤ على إصابة ابنة خاله بأذى، كل أذرع العمات وزوجة الأب وأشقائها لم تفلح بفصلها عن جثة «عاشق».

مرت ساعة و«سكرى» تحتضن «عاشق» بكل جسدها تتمدد جواره كأنها تأخذ غفوة صباحية بين ذراعي من تحب، أو كأنها تأخذ قسطاً من قيلولة، يصدر منها نحيب خافت تتخلله جهشات

twitter @mjanen٢٣

بكاء مكتوم وشهقات ألم وصرير، حزن مرير، بلسانها تحاول تعديل وضع أسنانه التي نسفتها الرصاصة وتخاطبه بكلمات مبهمة غير مفهومة هي نفسها لم تتذكر ماقالته له، تحضن رأسه كما لو أنها تريد تضميده.

حبست نفسها لمدة أربعين يوماً كأنها لا تسمع ولا ترى، وسط حراسة مشددة من أهل بيتها خوفاً من أن تقدم على الانتحار عقب «عاشق»، وفي مساء اليوم الأربعين خرجت من غرفتها وتوضأت وصلت على روح «عاشق» مرة أولى وأخيرة، لم تعد إلى الصلاة قط..

ذات يوم مضى حكى لها «عاشق» عن المرأة الوحشية التي يحبها الرجال لكن يخافونها، وروى لها عن «لالوبا» امرأة عجوز يعرفها الهنود الحمر، «لالوبا» تحب جمع عظام إناث الكواسر، وتحفظها في كهفها تبحث عنها في قعر الوديان وتتعقب وتنخل وتمحص مجاري السيول الجافة ليتجمع بين يديها الهيكل العظمي كاملا وفي اللحظة التي تضع فيها العظمة الأخيرة في مكانها، تضرم «لالوبا» النيران وقرب الهيكل العظمي للكاسرة تبدأ بالغناء وتكتسي الضلوع باللحم وينبت الفراء و يشرئب الذيل مغزولا بالشعر الأشعث وتفتح الكاسرة عينيها على الغناء، تنهض من لحظة سرّ مبهم لتركض صوب الآفاق الجديدة كعاصفة شراسة قادمة..

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

الجـــــــزء الثاني

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

نسل السلطانات

«في الصباح سمحنا للجمال بأن تأكل من شجيرات الغاف التي تنمو حول مخيمنا فترة من الزمن. كان مسلَّم قد اصطاد غزالاً في اليوم السابق، فأكلنا نصفه وخبأنا الباقي تحت عليقة منخفضة لنحفظه من الرمل، وعندما استيقظنا لم نجده. وقد دلت الآثار على أن ثعلباً أخذه ، فغضبت لأن هذه كانت آخر كمية من اللحم يمكن أن نحصل عليها لوقت طويل.

ولكن مسلّم تعقب الآثار وجلب أكثر اللحم من تحت شجرة أخرى كان الثعلب قد دفنه تحتها ، فنظفناه من الرمل شاكرين ربنا على أننا استعدناه».

❖ ولفرد تِسيغر

كانوا ثلاثة شبان من البدو في أواخر ستينات القرن العشرين. من بين عشرين ابنا تقريباً لأشهر و أغنى شيوخ القبائل في بوادي حمص وحماة وحلب درسوا في واحدة من مدرستي العشائر التي كانت قد أسستها الحكومة الوطنية في

twitter @mjanen٢٣

الخمسينات في تدمر ومعرة النعمان، ولاحقاً ألغتها حكومة الوحدة على إثر إلغاء النظام العشائري وأصبحت كلمة «عشيرة» كلمة قد يعاقب عليها القانون، استطاع ثلاثة فقط تجاوز امتحان الثانوية العامة.

راكان:

لم يكن بدوياً تقليدياً، كان أبيض طويلاً، بعينين رماديتين ورثهما عن واحدة من أشهر أميرات البدو النجديات.

يتحدر «راكان» من سلالة أمراء شهيرة في تاريخ بلاد الشام، جدهم الأعلى فضل بن ربيعة المنتسب إلى قبيلة طي القحطانية، اشتهر أجداده بأمجادهم وأفعالهم في عهود الملوك الأيوبيين والمماليك والسلاطين العثمانيين، وكان «راكان» يحفظ مقطعاً من كتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري: «هم ملوك البر ما بعد واقترب وقد ضربوا في الارض نطاقاً و تفرقوا فجاجاً تقارعوا على قِرى الضيفان و سارعوا إلى تقريب الجفان حفظوا البر من كل جهاته. لهم سجايا ملكية وعطايا برمكية، و صوارم تنسحب بذيلها الرقاب، يسرح عدد الرمل لهم إبل وشاة»..

يحفظ كل ما ذكره السائح السويسري بوركهارت و ما ذكره الدنماركي نيبور الذي زار الشام في عام ١٧٨٠. ومن يرافق «راكان»

twitter @mjanen٢٣

يوماً واحداً يدرك أن ذلك الشاب البهي الطلعة، الكريم ، السليط اللسان، سليل عائلة على مرِّ القرون أحرزت سلسلة متصلة من الحوادث والكوارث، طبعاً بحكم الأمية وفقدان التدوين وندرة المتعلمين، قلة من الأفراد كانوا يعرفون تاريخهم.

«راكان» كان يكره المدن بالوراثة، ربما لأنه يتحدر من صلب الأمير «ملحم»، فارس، جارف كعاصفة تحكّم بكل البراري المحيطة بحلب، وعزم قره محمد باشا والي حلب على التخلص من «ملحم» بأيّ ثمن وكان يعرف أنه لن يستطيع ذلك بدون اتباع الحيلة، اتفق مع حاكم المعرة أنذاك لإقناع «ملحم» بدخول حلب، كان حاكم المعرة على صلة وثيقة بـ«ملحم»، فأخبره بأن والي حلب قد أصدر عفوا عنه ويريد مقابلته للاتفاق معه على ضمان أمن القوافل العابرة من بادية حلب مقابل تنصيبه أميراً على كل العربان.

فحضر «ملحم» إلى قرية قريبة من حلب وأرسل رسوله إلى الوالي يقول له أنه سيلاقيه في قرية جبرين لأنه لا يدخل مكاناً فيه جدارن ويكره السقوف، والمدن تضيق صدره. حينها تيقن الوالي أن ملحماً لن يدخل حلب مطلقاً، فجهز خمسمائة عسكري ولحق بـ«ملحم» وقومه الذين لم يكونوا يتجاوزون الخمسين، لم يكن صعباً على الوالي التقاط أثر «ملحم» بفضل تعاون الفلاحين الكارهين للبدو، وصبحاً باغته بين جبلين أثناء عبورهم لنهر مجراه موحل، توحلت فرس «ملحم» وتوكأ على رمحه لمساعدتها فانكسر، خلال ذلك أدركه الوالي مع

twitter @mjanen٢٣

بندقيته والعسكر أحاطوا بالمكان، قبضوا على «ملحم» وحوالي ثلاثين من رجاله، ساقوهم إلى حلب وهناك راحوا كل يوم يقتلون بضعة أفراد من رجال «ملحم»، حين يقتلون أحدهم يخرقون أكتافه ويغرسون فيها فتائل مشعلة من المرخ والشمع ويطوفون به البلد ثم يقطعون رأسه ويرمون جثته في مستنقع الخندق المحيط بالقلعة.

كان «ملحم» الكنز الذي أرسله الوالي إلى السلطان ليراه شخصيا ويتملى من ملامح رجل دوخهم طويلاً، ويحكى أن السلطان أمر بقتل «ملحم» بعد أن تفرس فيه طويلاً وتأسف رجال الدولة على «ملحم»، كانوا يتوقعون عفو السلطان عنه مقابل ضمان الأمن والسلم في الأراضي التي تحت سيطرته، لكن حتى تلك الصفقة المغرية لم تخفف من حقد السلطان على رجل بمواصفات «ملحم»؟!..

«راكان» ورث أشياء كثيرة عن «ملحم» أهمها كرهه للمدن، أيضاً كان مولعاً بالجغرافيا ولديه فضول كبير تجاه العالم ويتمنى لو أنه يصبح بحاراً.

لورنس:

«إن لبريطانيا العظمى عدوين، في الشرق لينين ورمضان الشلاش في الجنوب»..

❖ كلمة تشرشل في خطاب له في لندن عام ١٩٢٠

جريدة التايمز اللندنية

twitter @mjanen٢٣

كثيرون من أبناء البدو حملوا اسم «لورنس» بسبب رجل عرفه الكثيرون منهم عن قرب، كذلك عرفه العالم «ت.أ. لورنس».

كان «لورنس» العرب لم يزل بعد ضابطاً صغيراً مهتماً بالآثار ينقب في منطقة كركميش في الشمال السوري، قبل أن يظهر لاحقاً في الجزيرة العربية، حين تعرف عليه شيخ عشيرة كبيرة تجوب المنطقة، و بعد سنين حين ولد له ابن من زوجته الثالثة سماه «لورنس».

تربط «لورنس» قرابة دم مباشرة بـ«رمضان الشلاش» الذي كان صديقا لجد «طراد»، كانا زميلين في مدرسة العشائر «عشيرة مكتبي» في اصطمبول، وقد تخرجا سويا في عام ١٨٩٦.

الشيخ «دنْدَل» جد «طراد» تخرج أيضاً من مدرسة السلطان عبد الحميد في اصطمبول لكن لم تعجبه الحياة العسكرية، في حين التحق «رمضان الشلاش» بالمدرسة الحربية وتخرج برتبة ملازم خيال وعُيِّن في مجلس العشائر العثماني، وأثناء خدمته انضم إلى جمعية الضباط الأحرار التي كانت جمعية سرية تنادي باستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، وعندما قامت الثورة العربية عُيِّن «رمضان الشلاش» قائداً للسرية الخامسة في لواء الهجوم عند الأمير فيصل بن الحسين، وفي عام ١٩١٩ عينته الحكومة العربية حاكماً عسكرياً على الرقة والفرات والخابور ومقره في منطقة الرقة، من أجل التهيئة

twitter @mjanen٢٣

لثورة ضد الإنكليز من دير الزور، وقاد حملة عسكرية مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل استطاعت احتلال دير الزور والمناطق المحيطة بها من الفرات. ومع عشائر الفرات وقف رمضان في وجه الحملة العسكرية الفرنسية التي كانت بقيادة الجنرال «ترانكا» و بعد معركة ميسلون حين أصدر الفرنسيون حكما بالإعدام على «رمضان» هرب إلى شرق الاردن، وعندما اندلعت الثورة السورية بقيادة الزعيم سلطان باشا الأطرش، عَبَرَ الحدود ووضع نفسه تحت إمرته وعلى أثر ذلك شكل قوة عسكرية وبلحظة غَدْرٍ وقع في أيدي الفرنسيين فنقلوه إلى بيروت ووضعوه تحت الإقامة الجبرية إلى أن صدر عنه العفو عام ١٩٣٧ فعاد لإشعال ثورة أخرى دامت شهراً كاملاً. قبضوا عليه مجدداً وعاش في الإقامة الجبرية في بيروت حتى عام ١٩٤٦، «لورنس» ورث اندفاع «رمضان الشلاش».

طـراد:

هكذا اسمه بتسكين الطاء وفتح الراء.

عند البدو لن تسمعوا بأسماء مثل: شادي، تيم، سامي، رامي.. طفل في الصحراء يحمل ما يشبه تلك الأسماء لن يعيش، ستلفظه مثل ذبابة، البدو فطنوا لشراسة الصحراء ودهائها، فناوروها بأسماء عاتية تجاريها شهوة للقسوة.

twitter @mjanen٢٣

أيضاً للأسماء عندهم وظيفة بعينها: تستعيد روائح عابرة لقارات الزمن الفسيحة، كما خيولهم حين يسمونها أحيانا بأسماء عاتية مثل: ومضاء، وهيجاء، أيضاً لأسمائهم معجم يصعب على الحضر لفظه: مجحم، معجون، شْلاش، ذْعَار.

ليس سرّاً أو أمراً غفلاً أن الأسماء الدينية مثل: أحمد، محمود، حسن، محسن، دخلت في النصف الثاني من القرن العشرين إلى أوساط القبائل في بلاد الشام بعد أن حظرت عليهم الطروحات الاشتراكية عصبيتهم القبلية و وجدوا في الدين ما يعوض عن تلك العصبية و أصبح الكثير منهم بحكم المتدينين الأشداء كما رأى العالم في العراق ـ بعد سقوط بغداد طبعاً ـ «طراد» لم يمكنه قط تفادي شرح اسمه منذ دخل العالم الحضري، أيضا لا يسعه التفكير باسمه و بأسبابه دون مخاطر.

سماه أبوه «طراداً»، ليشبه «طراداً» آخر، كان نائباً عن البادية السورية ابتداء من العام ١٩٣٢، كان ناطقاً باسم نواب العشائر، وكان البدوي الشهير الذي تحدث باللغة الفرنسية رافضاً العرض الفرنسي لإنشاء حكومة للبادية مركزها تدمر، يومها في فندق زنوبيا دعا المندوب الفرنسي المسيو دو جوفنيل والمستشار الإداري في حمص جميع شيوخ العشائر لاقناعهم بالفكرة وشرح لهم الفوائد التي سيجنونها من دولتهم المصغرة إذا ما وافقوا، يومها لم يوافق «طراد الملحم» على دولة

twitter @mjanen٢٣

البادية لكن وطنيته تلك لم تحمه من ضغائن بعض ساسة ذاك الزمن.

وطن «طراد» أرض ترتدي ما يجعلها عارية، أرض صهباء، الزلازل مفتونة بالتحرش بها، لهذا هناك الخراب مفتوح..

«طراد» بدوي جاء إلى دمشق من هضبة صحراوية أرضها قفر واسع مكشوف يحتوي تلالاً وجبالاً منخفضة في الشمال الشرقي لمدينة حماة، ذلك الركن الخفي الذي لا يحزره أحد، مكان ترك فيه اليونان و الرومان والبيزنطيون والأمويون آثارهم، خرائب و قصور وآبار وصهاريج مائية منقورة في الصخر، أرض فخورة للغاية، لوهلة أولى تبدو خالية مثل النسيان.

يمكن حصر وطنه الصغير بسهول مبسوطة مثل راحة كف أزلية تسور قصر ابن وردان الذي ظل مهيبا بقلب الفراغ، نوافذ عارية، لا درفات ولا ستائر ولا شيء، فراغ يدخل ويخرج كما يشاء، هناك الفراغ بطل ولص ومحتال.

قصر ابن وردان مرّ به ملوك وأمراء قصدوا الاستيلاء على سلمية أو حماة، نزله سيف الدولة الحمداني، جاء محارباً قبائل ثارت عليه، والملك العادل بن أيوب ملك دمشق جاء لمحاصرة ابن اخته الملك الناصر ملك حماة، وتيمورلنك طاغية التتر مرّ به بعد أن خرّب حلب.

هناك لا شيء يقوى على ردّ الخرافة، والخراب غدا التعويذة التي ترتفع إلى شفتي القرون، قصر مغموس بالمسك.

twitter @mjanen٢٣

حين تطير الغيوم فوقه يحدث الشرك المفضل للذاكرة، يهطل المطر، يخدع الزمن وتدور عجلته إلى الوراء وتحدث معجزة فوق بشرية، حين تفوح الرائحة تحكي الحكاية فيما تجوب المكان كشبح جميل.

يحكي البدو أن باني هذا القصر أمَرَ بعجن طينه بالمسك على أثر نبوءة عراف تقول أن الابن الوحيد للملك سوف يقضي بسبب لدغة عقرب و لأن العقرب كائن لا يحب المسك ولا يعيش إطلاقا بالأمكنة المعطرة و المنكّهة بالروائح النفاذة فقد ظن ذلك الملك أن ولده سوف يكون بمنأى عن قدره طالما العقارب بعيدة عن القصر، وبالفعل عجن الطين بكمية كبيرة من المسك المخلوط بماء الورد ثم شوي ونُشّف تحت شمس البادية و بعد ذلك بني القصر بذلك الآجر، والقدر يتفرج، بالوقت واللحظة المحددة من ميعاده كان الولد على واحدة من شرفات القصر حين خطر له ملاطفة ناقة كانت ترعى تحت الشرفة في ربيع مُغمَّس بشقائق النعمان، وعلى قتب الناقة الخشبي كانت ثمة عقرب تورطت بالالتصاق على القتب ونهضت الناقة قبل أن يتسنى لها الانصراف وهناك عثرت على أنامل الصبي ولدغته ليموت و يترك أباه الملك مشدوهاً أمام مصير القدر.

قرون طويلة مرت وظل المسك يهوج مخلوطاً برائحة التراب يبحث

twitter @mjanen٢٣

عن الأنوف التي تحسن شمَّه، ودخل المسك نسغ قصر كمرة أولى وأخيرة في التاريخ، العطر الصافي لقصر تشتهيه الذاكرة بشدة.

عقب الرومان، أصبحت تلك المنطقة الأرض المفضلة لدى خلفاء بني أمية بنوا فيها قصوراً ملكية للصيد، وعلى تلك الأراضي المفتوحة الواسعة تدرّب أبناؤهم على الصيد بالصقور وعلى فنون الحرب والقتال ومطاردة الطرائد.

كان «طراد» الابن الوحيد لـ«منوى» التي تحمل معظم جينات أمها «عنقا ـ ليز ـ شمس»..

«طراد» ورث ذاكرة.

❖ ❖ ❖

«سلام عليك يا شيخ السبوعة أيا سبع السبوعة الباتعين
أمانة عليك ما شفتش حماري كان أسمر وعالي سمين أظن
ياسبع أنت اللي أكلته أشوف بطنك كبيرة وعاليين وإن
كنت اللي أكلته لأقد حشاك، وارجع طيبين، ترى وإن
كنت بعته هات حقه دراهم نقد وأنت واقفين».

❖ سيرة الزير سالم

twitter @mjanen٢٣

أول مشروع فكر فيه الشبان الثلاثة كان البحث عن كنز، هناك حيث دروب ساهمة شاردة، فجأة ستقف مع سيارتك بانتظار عبور قطيع غنم يعبر أمامك دون أن يكترث لك، وإذا كان يحوي ماعزاً ستنتظر أكثر لتضمن خلو دربك من عنزة شقية تتلكأ بالعبور نكاية بصبرك أو جدي أثارت سيارتك فضوله فينسى أهله و يتفرغ لمعاينتك والوقوف في وجه سيارتك متظاهراً بالبراءة.

أنحاء المنطقة كلها تشي بكنوز مدفونة.. وتزيد فتنة خارطتها تلك الدروب الكثيرة التي يمكنك أن تسلكها كيفما شئت، كيفما تحركت ستلمح الذاكرة واقفة بهيئة حصن دثرت ملامحه، أو تراها منبطحة على شكل كسرة عمود حلزوني، أو يمكنك أن تراها شاخصة بصيغة بقايا قلعة على قمة رابية عالية وسط أرض بطحاء غنية بالخرائب..

أهالي القرى الذين كان معظمهم من البدو نصف رحّل نقلوا ما استطاعته أيديهم من تلك الأحجار المربعة السوداء ومنها شيدوا بيوتاً جديدة تؤكد نصف الطريق إلى تحضرهم.

دساكر، وضياع، رسوم، جدران غير مسقوفة، جبَّانات تحوي قبوراً قديمة وحديثة..

بدأ «طراد» مع «لورنس» و«راكان» برحلة نبش أكثر منها تنقيباً، دامت لأكثر من سنة، كانوا ينتقون الأيام التي يكون فيها القمر ممتلئاً لأنهم يعتقدون بأن السنور البري الذي يسكن كثيراً في

twitter @mjanen٢٣

تلك الأبار والصهاريج الصخرية يثب في وجه الإنسان ويمزقه إذا ما خلا به في قاع أحدها ، لكن أذاه يخف خلال أيام امتلاء القمر لأن بصره يكون أقوى وقت نقصان القمر، ولعل «طراد» وحده كان مصراً على مراعاة تلك المعلومة رغم أن جدته زودته بعين ذئب مجففة ومخاطة بقلب قماشة كتانية كانت يوماً جلابية لجده الشجاع «دَنْدل» وعلقتها له تميمة ستظل معه دائماً حتى عندما يدخل عالم المدنية ويرتدي السموكينغ.

نبشوا خلال تلك السنة مدافن كثيرة، وخيموا قرب قصور أثرية، قصر التمك، قصر الأبيض، قصر البرج، قصر أبو حنايا، قصر الشطيب، قصر أبو شرقي.

حفروا في أساسات مبان أثرية صغيرة تشبه المخافر أو الثكنات.. وتلك الإسطبلات التي خلفها الأتراك في المنطقة كانوا يربون فيها المهار المعدة لفرسان الجيش، كذلك قصدوا قلاعاً عتيقة شبه داثرة وحاولوا الحفر حولها مثل قلعة الربا وقلعة الحوايس..

كل الصهاريج الرومانية التي قام الرومان بنقرها في الصخر استكشفوها، وكفوا عن ذلك عندما كاد هرّ بري أن يمزق وجه «راكان» الذي سحبه رفاقه بالوقت المناسب قبل أن يتحول وجهه إلى خرقة بمخالب الهر.

حتى قلعة شميميس المبنية على قمة تل مخروطي تكوينه جيولوجي مثير، أسفله من الصخور الجيرية البيضاء وقمته من البازلت

twitter @mjanen٢٣

الأسود وهناك نقرت القلعة في بلعوم هذه الفوهة البركانية التي تشتهر ببئر حفرت في وسطها لا يعرف قرار لها ، عششت فيها أسراب هائلة من الحمام البري، يقال إنها تخفي كنزاً عظيماً ، حول التل حُفر خندق عظيم وعميق يحيط بالقلعة ، وعلى قاصد القلعة أن يبلغها وهو شبه زاحف لشدة انحدار محيطها.

بعد أن بلغها الشبان الثلاثة وجدوها أطلالاً وركاماً وكل الدعائم الحجرية متهدمة ومندثرة ، كان أجمل ما فيها الأبعاد الشاسعة التي يمكن رؤيتها من ذلك العلو.

أمام البئر الغائرة ، ذكرهم «طراد» ببئر الثعابين التي قرأوا عنها مراراً في سهرات الشتاء الطويلة في سيرة الزير سالم ، حين تدفع الجليلة بالزير سالم إليها بغية أن يهلك ، وطبعاً يخرج الزير سالما كالعادة.. وهذا ما لن يفلح فيه الشبان لو فكروا باقتحام تلك البئر ، وقفوا مدهوشين من اتساع فوهة تلك البئر وعادوا أدراجهم زاحفين ، وبعد ذلك قصدوا جبَّ ماءٍ محفوراً في قعر قلعة نصفها بدده الزمن اسمها الحوايس.

يهبط إلى ذاك الجب بدرج لولبي عريض يسع شخصين معاً بعمق نحو مئتي متر وعند فم ذلك الجب ذكرهم «طراد» ببئر السبع حين تتمارض الجليلة ودواؤها ماء مجلوب من بئر يحرسها سبع فيخرج الزير ويجد أن السبع التهم حماره ، في تلك المرة لم تلق تحذيراته آذاناً صاغية ونزل «راكان» و«لورنس» على درج الجب اللولبي ورفض

twitter @mjanen٢٣

«طراد» أن ينزل درجة واحدة.

وصلوا قعره ووجدوا أطرافه مبنية بأحجار سوداء وماءً نقية للشرب وبدل السبع الذي حذرهم منه «طراد» استقبلتهم حيه ضخمة سوداء مرقطة بالأبيض والرمادي ولاذوا بالفرار قبل أن تسمح لهم الحية بتفقد أي ركن من أركان الجب وخلفوا وراءهم معولاً و رفشاً ذكرى للسيدة «حية».

بعد ذلك رأوا تحويل نشاطاتهم الاستكشافية إلى جبال البلعاس، يقال أن هضابه وشعابه تخبئ نواويس موتاها كانوا يدفنون مع ذهبهم.

عبروا الضياع والمزارع النائية صوب البلعاس على بعد سبع وأربعين كيلو متراً من شرقي السلمية، وهناك يقف البلعاس حاجزاً بين قفار البادية وأرياف الحاضرة تشكله آكام وهضاب تُجوِّفها أودية، اشتهر بأشجار البطم والسُّويد، ومن خشب أشجار السوّيد اعتاد صناع حمص وحماة صنع أفخر أنواع مهابيش القهوة التي يشتريها منهم البدو.

البلعاس تعرَّى من معظم شجر بطمه وسوّيده ورمانه وتينه.. وحدها ظلت الصهاريج التي حفرها الرومان وسلطوا عليها مجاري مياه السيول الصغيرة لتكون مخازن للماء العذب متاحة للمسافرين ولجنود حامياتهم.

لم يكن فيه ما يغري بالنبش، خيَّموا عدة أيام مستفيدين من

twitter @mjanen٢٣

فصل الربيع، عثروا خلالها على كميات كبيرة من الكمأة وتحسروا على أشجار البطم التي احتطبها أهالي الأرياف وباعوها في حمص وحماة.

كذلك فعلت العشائر الغنَّامة حين كانوا يمرون فيه خلال تشريقهم وتغريبهم، تجذبهم أراضيه لرعي أغنامهم وينفع شجره لرعي ماعزهم، كذلك حفلت ذاكرة البلعاس بمآسي حرب الموالي والحديدين الشهيرة التي دارت رحاها مدة أربعة عشر عاماً على هضابه، أحياناً تدخلت الطائرات الفرنسية لضرب الطرفين وإنهاء الفتنة التي تململ منها أصحاب الأرياف القريبة وشكوا أمرهم للسلطات المدنية لعلها تفلح بردع أفراد العشيرتين المتعاديتين عن القتال وتقنعهم بإنهاء الحرب التي أرخَّ لها ضابط فرنسي اسمه «موللر» في كتاب سماه «قتال بين عشيرتين غنَّامتين»، قرأه «طراد» بنهم وحزن.

كان «طراد» قد احتفظ من طفولته بذكرى جبال البلعاس وهي لا زالت محتفظة بأشجار البطم الشهيرة وطعم زيتها الذي يفضله البدو على زيت الزيتون. لم يحزر واحدٌ منهم أنهم كانوا على مشارف حكاية أخرى وهم يوزعون شقاواتهم ومزاحهم الصاخب على تلك الخزانات المعتمة التي قد يتجاوز عمق بعضها الخمسين متراً ويصل قطرها إلى حدِّ الأربعين متراً.

خلال يومين استطاعوا سبر خربتي مسعدة، والصوانة، ورسم التمباك وأخيراً وصلوا خربة الفايه. وهناك بلبلهم «طراد» بأكثر من

twitter @mjanen٢٣

قصة مرعبة عن تلك الآبار العميقة التي تحويها تلك الخربة.

واحدة من تلك الحكايا كانت مشهورة بين عرب الشمبل لأن بطلها كان لا يزال حياً إلى عهد قريب، اشتهر بسبب قصة حب غريبة أنهتها حية ضخمة في تلك الخربة ذاتها التي خيموا فيها ليلتهم الثالثة، و«طراد» يروي لهم تفاصيل حكاها له رجل يدعونه «الشايب»، سمُّوه كذلك لأن شعره تحول إلى الأبيض بين ليلة وضحاها. كان ذلك الشايب اسمه «سوعان» حدث وأن أغرم بقريبة له، لكن أهلها رفضوا تزويجها له، لأنه كان يتقاعس عن المشاركة بالغزوات والحروب، وذات ليلة اتفقا على الهرب سوية. وحدث ذلك ووصلا مشياً على الأقدام إلى خرائب الفايه صباحاً ولاذا بفيء فجوة واسعة منقورة بالصخر للاستراحة قليلاً قبل أن يتابعا رحلتهما. انخرطا بحمى الشهوة لأكثر من ساعتين بعدها غرقا بنوم عميق، حين استفاق على جلبة غير مفهومة لم يخطر له رؤية حبيبته ونصفها الأسفل ابتلعته حية ضخمة مرقطة بالأحمر فيما عيناها مفتوحتان إلى أقصاهما ومن حنجرتها تخرج حشرجات مستنجدة أكثر منها متألمة، كان يحمل خنجرا وبندقية لكنه لم يقدم على أية حركة إنقاذ، ظل مشدوهاً فيما الحية تبتلع ابنة عمه وحين ابتلعتها بالكامل اتجهت الحية صوب صخرة قريبة ولفت جسدها الافعواني الطويل حول الصخرة وسمع بأذنيه تكسر عظام الفتاة في بطنها.

حكاية مرعبة دفعت الفتيات إلى تجنب الوقوع في غرام رجل

twitter @mjanen٢٣

كالنساء لا يشارك في الحروب ولا يعرف الكرَّ والفرَّ، وظلت الحكاية عبرة لمن تسوغ لهن أنفسهن مخالفة أهاليهن والهروب مع رجل لا يرونه أهلاً لهنَّ.

«شمس» علّمت حفيدها أن حرق الكبريت الأحمر في قرن وعل أو كبش حول البيت أمر يضمن بقاء الحيات بعيدة عن المكان، يقال أن رسم الفاية كان يحوي صهاريج محفورة بالصخر على عدد أيام السنة..

«طراد» الخائف وجد نفسه في مأزق، إذ إن «لورنس» و«راكان» أمسكا به ومن تحت ابطيه، مرَّرا حبلاً وأوثقاه بإحكام:

- «إنه دورك، ياطير شلوة».

قالا له ساخرين، وعبارة «طير شلوة» عبارة تقال عن الرجل الجريء الذي يمكن له أن يجلب أي شيء مهما كان صعباً، و«شلوة» هي فتاة بدوية كانت تملك ذلك الطير الحر الذي يجلب لها ما تريد من طرائد.

نزولاً، عَبَر «طراد» الفوهة الواسعة لجبٍّ عميق، وبدأت رحلة هبوطه إلى العمق حيث يصبح الضوء شحيحاً، بيده مصباح يعمل بالبطارية بضوئه يستكشف جوانب الجبِّ، بعد مرور دقائق قليلة على وصوله جوف الخزان خرج صراخه مستنجداً برفيقيه ليرفعاه، فعلا ذلك وهما يكيلان له الشتائم و«راكان» يؤكد أنها حمامة مذعورة طارت من فم الجب قد أخافت «طراد» الذي وصل فوهة الجب وهو

twitter @mjanen٢٣

يؤكد لهما أن ثمة رجلاً مقتولاً حديثاً في غيابة الجب.

«لورنس» قال:

- «إن ذلك من صنع الجن ولابد أن مارداً ما يحرس كنزاً عظيماً في قاع الجب».

«راكان» وحده لم يكن يؤمن بالخرافات لكنه رجَّح أنها من صنع خيالات «طراد».

- «إذن فلتنزل أنت يافارس الفرسان، يامغوار، ياليث الوقائع وفارس المعامع أنا لن أنزل مجدَّداً». قال طراد.

أحاط «لورنس» نفسه بالحبل وأنزله رفيقاه إلى الجب، كان يحرك رجليه متلمساً القاع ليقف على رجليه حين وجد نفسه يعتلي حماراً. صراخه ملأ البلعاس وتم سحبه بسرعة إلى أعلى، كان شاحباً وهو يحكي لهما عن جنِّي متنكر بهيئة حمار يحرس الجب.

رأى «راكان» أن ينزل بنفسه ليتحقق من تخاريف صديقيه، هبط بسلام وبضوء مصباحه رأى الرجل المقتول، كان عبداً أسود والحمار إلى جواره وأخيراً ثبّت الضوء على وجه فتاة بعينين واسعتين تحدق إليه مباشرة مذعورة.

أخرجوا من الجب فتاة جريحة، وبسيارة الشفروليه اتجهوا صوب السلمية لعند طبيب قديم مشهور بمعالجة إصابات البدو بتكتم.

كانت حكاية الفتاة الجميلة تشبه حكايات جميلات كثيرات أثرن الحنق حولهن بسبب حسنهن، وتلك الفتاة التي كان اسمها «ميّر»

twitter @mjanen٢٣

كادت لها زوجة أبيها وأرادت تزويجها رغماً عنها من رجل لا تريده، وأرادت «مَيّر» الهروب لعند أخوالها في الحماد، وكان أن اتفقت مع خادم أبيها الذي لايتجاوز السابعة عشرة من عمره لإيصالها سراً إلى ديرة أخوالها. لكن شقيقيها مع اثنين من أبناء عمومتها لحقا بأثرها بعد أن أقنعتهم زوجة الأب بأن «مَيّر» قد هربت مع العبد لأنه عشيقها فألبست الفتاة تهمة قاتلة. لحقوا بهما قريباً من رسم الفاية وكان أن قتلوا العبد وأصابتها رصاصة، عَرف شقيقيها بأنها لم تقتلها، لم تطاوعه نفسه بالاجهاز عليها فرماها مع الخادم المقتول والحمار في غيابة الجب، لم يخف على «طراد» ولورنس بأن «راكان» قد وقع بغرام «مَيّر» من اللحظة الاولى.

لعدة أشهر لاحقة عاشوا معه غمار قضية شهيرة بين البدو تداولتها القبائل بفضول شديد وتفننت الألسن بتحوير الحكاية وتحويلها إلى ما يشبه خرافة، وبعد عدة جلسات قضائية وصلت إلى «المنهي» شيخ المشايخ وانكشف أمر زوجة الأب وحظي «راكان» بعروسه «مَيّر» التي أحاطت بها الحكايا والخرافات.

❖ ❖ ❖

«وقفة البدوي معتدلة جيدة، وحركاته هادئة وقورة تنم عن الارتياح مادام غير منفعل، الأمر الذي يحدث بسرعة شديدة

twitter @mjanen٢٣

وقليلاً ما تتجاوز قامة البدوي طولاً وسطاً، والبدوي في العادة أهيف الجسم رقيق الأطراف.. وأما وجهه فهو في العادة نحيف نحيل، ولونه بني يميل إلى الإصفرار، يزداد بياضاً في الشتاء ويصبح داكناً في الصيف وتقع العيون اللوزية الداكنة على خطوط منحرفة تظللها حواجب كثيفة، وتظل العيون في العادة نصف مغمضة بسبب ضوء الشمس الساطع، أما نظرة البدوي فهي حادة.. وشكل رأسه حاد وجبينه مرتفع، وأنفه معقوف على هيئة منقار الصقر ومقطعه دقيق.. وشفاه البدوي رقيقة دقيقة في العادة وأذناه صغيرتان، أما يداه وقدماه فتتميز برشاقة ملفتة للنظر، وتكاد أسنانه تكون ناصعة البياض دائماً وفي حالة صحية جيدة»..

❖ أوبنهايم

كانت سيارة الشفروليه نجمة عمليات تهريب التمباك الشهيرة التي احترفها البدو في بداية السبعينات، يخزنون السكر والتلفزيونات والأقمشة في المغاور الرومانية المتوفرة بكثرة في محيط مدينة الأندرين المندثرة، لا تكاد تخلو قرية من المدافن التي نبشها البدو وحولوا معظمها إلى مخازن أمينة لأعلافهم وبضائعهم المهربة.

كان الطريق يأتي من منطقة الريشة قرب الأزرق في الأردن يمر بالتنف ويعبر فيافي البادية السورية شرقي جبال إسرية وصولاً إلى

twitter @mjanen٢٣

حلب، كل سيارة زودها البدو برشاش ماركة «هوشكيز» يثبتونه في الخلف كخط دفاع وحيد يستميت راميه بالدفاع عن الحمولة، وكل سيارة عادة كانت تحتاج إلى ثلاثة رجال: إثنان يتبادلان القيادة والثالث رامي رشاش، عرفت البادية في ذلك الزمن رجال تهريب لا يُنسَون: «صقار»، «شلاش»، «مخيلف»، رماة صوبوا رشاشاتهم على أنوف طائرات الهيلوكبتر، وقتها لم يكن جديداً أن الحضارة بدأت تبحث عن موطئ قدم لمنجزات الإنسان الحديث، ووجد البدو أنفسهم مغرمين بالمال ومارسوا غزواتهم بطرق جديدة، والتهريب كان واحدة من تلك الطرق.

«طراد» مع «لورنس» و«راكان». في أول مغامرة لهم وراء المال وجدوا أنفسهم ضمن أفراد قافلة من سيارات الشفروليه المزودة بالرشاشات.

كانت القافلة مكونة من ثماني سيارات، اقتصرت مهام الشبان الثلاثة على القيادة والتحميل وإحكام وضع الحبال.

وافق «طراد» لسبب واحد، أبوه، لعله يفلح باقناعه بأن ولده «طراد» ليس جباناً كما يتصور ويمكنه الحصول على المال.

كان دائما يقول له :

- «لو تعرف الرجل الذي سميّتك على اسمه».

أراده أن يشبه «طراداً» آخر حمل يوماً ذات الاسم، ذلك الرجل الذي صوَّب مسدسه مع خمسة عشر نائباً عن العشائر في البرلمان

twitter @mjanen٢٣

السوري في عام ١٩٤٦ نحو نائب آخر كان قد جعل قضيته في الدنيا تحويل البدو إلى فلاحين. قال له يومها «طراد الملحم»:

ـ «أنا عربي قبل الإسلام وأرى أنك تلاحق مسألة العشائر كأن العشائر أعداء لك».

لولا تدخل بقية النواب والزائرين في شرفات المجلس لانتهى مسحولاً جثة هامدة، وبعد تلك الحادثة بثلاثة أيام اغتيل «طراد الملحم» عند خروجه من فندق أمية بساحة المرجة، الساعة الحادية عشرة صباحاً، وفرّ ذلك النائب فور حادثة الاغتيال وظل مختفيا عن الأنظار طالما كان أفراد من البدو المسلحين يجوبون دمشق بحثاً عنه.

قاد الشبان الثلاثة سياراتهم بنجاح في رحلة الذهاب والتحميل، وفي طريق العودة قبيل التنف بقليل نصبت لهم دورية من حرس الحدود كميناً أربك سير القافلة، كانت الدورية مكونة من ثلاث سيارات بيك أب «هاف» مغلقة مزودة بمحركات ثمانية سلندر لتكون قادرة على اللحاق بشفروليهات البدو، كذلك كانت كاملة التسليح، أكملت قافلة الشفروليه طريقها بفضل رماة الرشاش الذين استطاعوا إيقاف الدورية في مكانها.

كان «طراد» يقود واحدة من السيارتين الأخيرتين من القافلة، كان وحده وفي الخلف «صقار» الذي تولى أمر الرشاش، على أثر رشقة من الرصاص من قبل الدورية الغاضبة ثقبت واحداً من الإطارات الخلفية للشفروليه الأخيرة ووقفت تحت مرمى الدورية، وجّه «صقّار»

twitter @mjanen٢٣

فوهة مسدسه من النافذة ووضعها في أذن «طراد» :

ـ «أذبحك والله لو تحركت»..

ظل «صقار» يناور الدورية برشاشه مدة تقارب العشر دقائق تمكن خلالها أفراد السيارة المثقوبة الإطار من تبديله والانطلاق مرة أخرى في أثر القافلة التي سبقتهم.

كان درساً نادراً بالشجاعة سيتذكره «طراد» ويظل ممتناً لمسدس «صقار» الذي علمه كيف لا يكون جباناً قط.

في بساتين حلب الجنوبية تم تسليم الحمولة، وانتهت الرحلة على خير وكانت تلك الرحلة الأولى والأخيرة التي تجرأوا على خوضها كمهربين.

الربح الذي كسبوه كان مؤونتهم الوفيرة حين جمعوا حقائبهم واتجهوا صوب دمشق ليدرسوا في جامعاتها باختصاصات مختلفة وفي سن متأخرة قياساً للعمر الافتراضي للالتحاق بجامعة، أما «راكان» فركب الطائرة متجها صوب روسيا ليدرس الطب هناك.

❖ ❖ ❖

أصبح «طراد» بضيافة السيدة دمشق ، وهي أخطر امرأة عرفها التاريخ، ذاكرتها مثل أرضها، طبقات وحقب، مدينة فوق أخرى بفارق أمتار بينها، ومن دون محو شيء، مدينة لها بوابات سبع، لماذا لهذه المدينة كل هذه الأبواب ؟!..

twitter @mjanen٢٣

كيف استثمرت جهات أربع لتصنع فيها سبع ثغرات؟!..

كيف تعلمت مراوغة التاريخ بهذه الطريقة؟!..

هل تكمن المسألة في أنها تكتيك عسكري، ست بوابات وهمية وبوابة واحدة هي التي تؤدي إلى قلبها!.. ثمة وميض خدعة.

باب يستسلم للغزاة، وباب تخترمه النصال ويصمد، وآخر يحدق بأعدائه مستخفاً متعالياً، وباب يلاعبهم النرد يتظاهر بأنه سيسمح بالدخول ثم بلحظة أخيرة يوصد نفسه ضاحكاً.

من يضمن استسلام بوابات سبع!..

امرأة.. باب يخلص، وآخر يخون، باب يفتح، وباب يغلق، وآخر يوارب، بوابات كثيرة للخديعة، وواحد للقلب، وهذا لا يعلم أحد متى تفتحه.

وحدها لها امتياز جمع المتناقضات بطريقة مذهلة لا تجرؤ مدينة أخرى على فعلها، وإلا كيف نفسر بأنه يمكن لشارع واحد من شوارعها أن يجمع بين بيتي يهوذا الأسخربوطي وبيت يوحنا المعمدان، أي أيدولوجية هذه التي منحها التاريخ لهذه المدينة وحدها، وحدها فقط؟!..

❖ ❖ ❖

في الجامعة، من بين عيون كثيرة استوقفته عينان بالذات، ليس

twitter @mjanen٢٣

لأنهما جميلتان وحسب. وليس لأنها تشبهان تماماً ما يحبه بدوي في امرأة نحيلة، بطنها ضامرة كفرس، كما يجب أن تكون الفرس قبل الحرب، يومها بدت له مثل تلك الريح التي تنفذ في عزِّ الظهيرة بين رواقين، وكانت له أيضاً مثل رائحة قُبَّة الطين في القيظ حين يُرش بالماء أرضها.

أيضاً مثل صباح ينتشر على الأرض المحيطة بقصر ابن وردان وسهول الأندرين عقب ليلة شباطية ممطرة، وكل تلك السرابات التي تداولت لازورد السماء لتؤرخ لأعتى أكاذيبها، كيف يمكن له أن يخطئ ذلك البروفيل الذي لا تنجبه إلا سلالة عتيقة، قديمة، تضرب جذورها حتى عاد وثمود، وتلك المشية تخطر قادمة من الطرف الآخر من التاريخ.

❖ ❖ ❖

«كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب وابن قبينة مازال نائماً ، لمسته كي أوقظه وبحركة واحدة كان على قدميه ساحباً خنجره ، كنت قد نسيت أن لمس بدوي نائم يجعله يقفز مستعداً دون وعي للمقاتلة»

❖ ولفرد تِيسيغر

twitter @mjanen٢٣

«الأحب إلى قلبي بيت العرب العاري» عبارة قالها يوماً واحد من فلاسفة الوجودية يوم جمع أغراضه مغادراً قصر مضيفه الذي كانت حنفياته من ذهب، وقرر أن يقضي ليلته في فندق بسيط، متذكراً بيت العرب العاري. كان يقصد: الخباء، الخيمة، بيت الشَعْر، كلها مسميات واحدة لبيت البدوي. يمكنك أن تسمه ما شئت وفق ما يمكن أن تترجمه أحاسيس إنسان يتوسد وسادة من الصوف بغطاء مطرز بكل الألوان التي يمكن أن تصل لأنامل فتاة بدوية يمكن أن ترسم جملا أحمر، وخياماً بلون أزرق. فقط العيون لن تطرزها بغير اللون الأسود.

التطريز عادة طارئة على عادات فتيات النصف الثاني من القرن العشرين، في تلك المرحلة الانتقالية ما بين البداوة الصرفة إلى البداوة المؤقتة. وخلال ليالي الشتاء الطويلة اعتادت الفتيات المراهقات صرف عدة شتاءات متتالية في ركن مضاء بلمبة الفتيل في قُبَّة الطين حيث اعتاد البدو نصف الرحَّل قضاء شتاءاتهم بتطريز أقمشة ستحتاجها يوم تتحول إلى امرأة ، تطرز قماشا أبيض تزينه بأحلامها.

عادة يقايضن التجار المتجولين ذلك القماش بقليل من الصوف، وتبدأ رحلة التطريز الموسمية، و أكثر ما سترسمه إبرة البدوية تلقائياً العيون، الكثير من العيون، كبيرة وصغيرة واسعة وضيقة برموش طويلة لتشبه عيون الجازية في السيرة الهلالية وعيون الجليلة في سيرة الزير سالم وعيون عبلة الحبيبة الأزلية لعنترة.

twitter @mjanen٢٣

دخلت تلك السير لياليهم الشتوية أيضاً تقريباً بذات التوقيت الذي عرفت فيه فتياتهم التطريز وأصبح محتملاً جداً أن يكون في العائلة من يعرف القراءة، وراحوا يقضون سهراتهم بين غبار معارك تلك السير، والفتيات يطرزن أغطية وسائد ومفارش ستشهد ليلة الدخلة.

جلب «لورنس» و«طراد» معهم وسائدهما المحشوة بأصواف أغنام العشيرة بأغطية مطرزة بكثير من العيون والجمال.

twitter @mjanen٢٣

١٧٠

twitter @mjanen٢٣

رقاص الساعة الجديد

«وثيقة رقم: ١١١٥

قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة بالقانون رقم ١٦٦ لسنة ١٩٥٨ في شأن إلغاء قانون العشائر في الإقليم السوري..

باسم الأمة/ رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الدستور المؤقت:

قرر القانون الآتي:

مادة١ - يلغى قانون العشائر الصادر بقرار رئيس مجلس النواب السوري رقم ٣١ وتاريخ ١٣-٦-١٩٥٦ ويخضع أفراد العشائر إلى كافة القوانين والقرارات والأنظمة المطبقة على المواطنين الحضريين في الإقليم السوري.

مادة٢ - ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به بدءاً من تاريخ نشره.

صدر برياسة الجمهورية في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨»

❖ **جمال عبد الناصر**

حين حاول «طراد» إقناع أبيه بأن ختم المشيخة لم يعد له قيمة رسمية ولم يعد معترفا به وأن مديرية دائرة العشائر العامة في دمشق

twitter @mjanen٢٣

ألغيت وأغلقت، ووثائقها وأوراقها اختفت، ووحده الله يعلم أين ذهب بها الثورجيون، لم يفلح باقناعه، ومراراً وتكراراً شرح له كيف أن «المشيخة» لم تعد ذات شأن عند الحكومات. وشيوخ العشائر أصبحوا مكروهين ومشبوهين عند الحكومات الجديدة. أبوه وشيوخ آخرون لم يصدقوا بأن دائرة العشائر ألغيت ولم يقتنعوا بأنه يمكن لأي «شاطر» حذف كلمة عشيرة من حياة العرب، وهم الذين ظلوا كذلك لعدة آلاف سنين خلت.

انحشر خمسة من شيوخ عشائر ديرة الشمبل في سيارة جيب وِلِس مهلهلة وقصدوا دمشق، وهناك أمام مبنى مديرية العشائر الكائن في أبو رمانة أفهمهم عسكري يجلس أمام بوابة مديريتهم العزيزة بأنها لم تعد كذلك.

اتجهوا صوب مقهى الهافانا شربوا القهوة وترحموا على زمانهم الذي مال، وعرجوا على بزورية الحميدية ملأوا جيوبهم بالسكر نبات وعادوا أدراجهم إلى مضاربهم والتاريخ قد غيّر لونه في نظرهم وذبحوا خرافاً كثيرة ترحماً على روح العشائرية.

وتيقن «النوري» أن ثمة زمن لن يعود ولن يكون مقدراً حتى لتحقق عادة التاريخ يعيد نفسه، وولى ذاك الزمن الذي كانت فيه قبيلته قادرة على إمداد الأتراك ذاتهم بالعون العسكري، و«طراد» كان يعرف أن أجداده أجَّروا الأتراك أكثر من أربعة آلاف جمل من أجل الحملة على جورجيا، ويوم حاصر السلطان مراد الرابع بغداد

twitter @mjanen٢٣

أمدَّته دولة الموالي بعشرة آلاف جمل كانت تنقل له الطعام قبل سنين طويلة وبعيدة.

❖ ❖ ❖

«إن البدو يحبون كثيراً تفكيك البنادق»

❖ ولفرد تِسيغر

كان عليه أن يقرأ كثيرا ليعرف ماذا تعني مفردات مثل: الشيوعية الاشتراكية، البرجوازية، الإمبريالية، النازية، الفاشية، «الإقطاعية» كمفردة كانت سبباً رئيساً ليتعمق فيما بعد بفهم ما تعنيه المفردات الأخرى.

«الإقطاع» الكلمة التي أُشهِرت في وجه أبيه لانتزاع أراضيهم حين جاء مصطلح «الإصلاح الزراعي» واختزل أرض عشيرتهم وتحديداً أرض أبيه، سألهم:

- «لماذا»؟!..

قالوا له:

- «أنت إقطاعي».

- «كلا نحن بدو».

- «شيوخ البدو وأمراؤهم هم في الواقع إقطاعيون».

twitter @mjanen٢٣

- «يا أفندي شيوخنا ورثوا المشيخة منذ مئات السنين وأنتم لا دخل لكم بمشيختنا لتأتوا وتسموها مثلما تريدون، اليوم تقولون عنا اقطاع وربما غداً تسموننا إمبرياليين»؟!..

- «عليكم أن تفهموا، لا أمراء بعد اليوم، عبد الناصر ساوى بين كل الناس لا سادة ولا عبيد».

- «وما رأيكم بأمراء هم كذلك منذ أكثر من ألف عام»؟!..

- «قيصر روسيا ذات نفسه خردقوه بالرصاص، أين أنتم من تاريخ قياصرة روسيا»؟!..

- «ما دخلنا بروسيا»؟!..

- «أيضا أنتم من الآن ملزمون بالخدمة العسكرية وقد تم تسجيلكم على القيود المدنية مثلكم مثل الكل».

- «الكل»؟!..

- «نعم الكل، ماذا، ألم يعجبك هذا الكلام»؟!..

إذن لا بدو بعد الآن، لا أرض عامرة بالخيول، لا أحد على استعداد للموت لأجل قطرة دم، لا ضرورة أن تكونوا سريعين في انتزاع حنجرة من يشتمكم، لا داعي لأن تكون مشرئب الأنف، ولّى زمن «شُمُّ الأنوف من الطراز الأول» نهائياً.

«طراد» يكره ماركس ويحقد عليه وهو متأكد بأنه هو السبب، من الآن سيصبح العالم قرية صغيرة، اجمعوا سيوفكم وبنادقكم وخرطوشكم وعنادكم، وكل متاع خيلائكم لا يعني

twitter @mjanen٢٣

شيئا لماركس. ظل «طراد» متيقظا حيال الذين يزعمون النضال من أجل قضية عادلة. عموماً هو يكره القضايا ويخاف من قضية عادلة تجرُّ وراءها ذرائع مغالية.

صارت الأنوف من الآن وصاعداً موجودة فقط لتتدسَّ بما لا يعنيها ولتملي الأقلام ما تتضمنه التقارير الأمنية.

البدو وأنوفهم الناتئة كانوا قد استسلموا ليقين يجعلهم يصدقون أنه لا يمكن أن تتقلقل أنوفهم في سياق أي تاريخ منذ زمن، أخيراً، أصبحوا مفردة تختزل التخلف؟!..

واكتملت كارثة «طراد» المعرفية حين تثقف وقرأ عن النظرية التي تقول بأن أجداد البشر هم القرود العليا، حلو؟!.. قرود عليا وسفلى ووسطى وسعادين ؟!..

حسنا أنا بدوي، لن يكون جدي قرداً بالمطلق، لكن يمكن أن يكون جدكم أنتم المثقفون، أخبروه لتكون مثقفاً يجب أن تؤمن بأن جدك قرد، نظرية داروين. هذا الزمن زمن نظريات..

فليصنفوا أنفسهم أينما يشاؤون في الثدييات، الفقاريات، اللافقاريات؟!.. وأرى أن ما يناسبكم هو أن تكونوا عظاءات ليرضى عنكم ماركس أكثر وتكونوا مثقفين بحق.

وعبارة «من لحمي ودمي» وَهْمٌ وراثي عظيم و حسب، والبعض يسميها نرجسية، ماركس فعلها وانقلبت الدنيا، عاليها سافلها، بسبب ماركس قرأ وتثقف بعد أن شخصوا عدم إعجابه به بسبب قلة

twitter @mjanen٢٣

ثقافته، العالم الجديد رأى الاعتداد بالنفس عُصاباً، وهكذا وجد نفسه كبقية أثيرة تنبض باقية على قيد الحياة من ماضٍ قضى نحبه.

دفع ثمن عاداته البدوية وشعاره، «أنا قيسي ولست من الثدييات العليا». ودفع ثمن عادته بالضيافة الخالصة غير المشروطة عندما خلع بابه عناصر من الأمن ليقتادوا صديقاً لهم قدم من منطقة ريفية بعيدة ليدرس في الشام، كان ملاحقا دون أن يدري هو نفسه، بتهمة سياسية أودعته السجن طويلاً.

بعدها تعلم «طراد» و«لورنس» أن يغلقا بابهما وأن لا يكونا مضيافين كيفما اتفق، أول درجة نحو التحضر.

في حماة سألوه ذات مرة :

- «شافعي أم حنبلي»؟!..

أجابهم دون تردد :

- «أنا قيسي».

ضحكوا، ظنوا أنه يمزح فيما هو لم يكن كذلك مطلقاً.

twitter @mjanen٢٣

سكرى الثانية

إنها الدرجة صفر من الحب.

وحدها أنصتت أكثر عندما سمعت اسمه، سأله المحاضر حين دخل متأخراً، (خالف تعرف يا أستاذ «طراد»). ضحك الطلاب جميعهم، ظنوا أنهم أمام نكتة. لم يكترث لأحد غيرها، وبالفعل لم تشارك زملاءها دهشتهم الساخرة. و عن بُعد تحرَّى عينيها.

مرت السنة الأولى من الجامعة و هو يعاني من سيادة الخجل وتعسف الكرامة. ماذا لو لم تحدث تلك الدهشة التي يتوقع أن يراها في عينيها. لن يحتمل مثل تلك الخيبة، الأفضل أن يظل في حال الحلم.

مرت السنة وهو يتعمد الجلوس في مقعد قريب تكون في مرمى نظره القريب، حين كان يتابعها بعينيه شعر بأن كل الكلية كانت تعرف بأمره، وللتمويه تقبّل تقرب زميلته «صفية» ذات عينين ذابلتين مربوعة القامة وشفتين خمريتين مع شعر خمري، أهم ما يميزها أنها لم تكن قريبة من ذائقته البدوية، لكن جرأتها ومباشرتها جعلته يقضي ليالي طويلة بين ذراعيها.

twitter @mjanen٢٣

أصبح شاعراً وأقام الأمسية تلو الأمسية، وزرع إعلانات الأمسية في كل أنحاء الكلية والأماكن المحتملة لمرورها، عند البابين الرئيسين لكلية الآداب والمقصف، وعند مداخل المدرجات والقاعات والهنغارات.

ومرت السنة الأولى كشاعر خجول.

وفي السنة الثانية أصبح ممثلاً، مثّل في المسرح الجامعي، وشارك في حفلات التعارف الجامعية ورقص الديسكو في أكثر من دور هزلي قام بأدائه. وكف عن الاشتراك باستعراضات الكليات لأنه تأكد أنها لا تحضر تلك الحفلات، تخرج من محاضرتها وتغادر إلى منزل زوجها.

خلال ذلك الوقت تعرف إلى حانات دمشق وجرب السكر بشهوة، ونام مع الشقراوات والسمراوات، وظلت «صفية» هي محظيته الشرعية. وقرأ كل ما وصل إليه من كتب، وبعد جرعات مكثفة من الثقافة قرر أن يكون فناناً تشكيليا.

حدث ذلك في السنة الثالثة حين أصبح رساماً، وللدهشة أفلح أن يكون تشكيليا بعض الشيء.

شيء واحد عنيف ورقيق حاد ظل يشده إليها، تجرحه دون أن تكلمه أو حتى أن تنظر إليه تقريباً، قربها منه كان يخنقه، دسَّها في كل لوحاته.

ردفاها الممتلئان نصب عليهما جذع فينوس وذراعيها وبروفيلها

twitter @mjanen٢٣

اقتنصه و جعله لربة الصيد و الغابات «ديانا» الرومانية. وجعل الثغر موحداً في جميع بورتريهات إناثه، ثغرها هي.

كاد ينفلق فرحاً حين رآى «سكرى» تعبر عتبة القاعة التي أقيم فيها المعرض، رفض عروض أصدقائه الفنانين بافتتاح معرضه في واحدة من صالات باب توما. أصرَّ أن يكون في واحدة من قاعات الكلية ليضمن أن ترى بروشوراته لعلها تفكر بزيارته، بدءاً من تلك اللحظة تيقن من أمر واحد: لن يحب امرأة أخرى.

وقتها لم تدخل وحدها. رجع الزمن إلى الوراء، وسريعاً استحضر كل ذلك الماضي الذي كان يخصهما وحدهما.

يمكن للتاريخ أن يخفف من خيلائه فيتعلق بطرف فستان امرأة، كما فعل وقتها وولج وراءها متعلقاً بأذيالها الكثيرة، وظلّها يستحضر كل غبار وعجاج الدروب المؤدية إلى قصر ابن وردان وكل جان الأندرين ومردتها.

لا يمكن لأحد أن يغش التاريخ. فجأة جني خفي أشهر في وجهه مفتاحاً كان قد سقط سهوا في عمق مياه الأيام.

تاريخ سلف، أعطاها حق الدخول إلى المشهد، وقف متظاهراً بالاستماع إلى «صفية» وهي تحكي له شيئا دون أن تنتبه إلى أنها تقف على ناصية شارع مهجور، لم يكن يسمعها، يهز رأسه وعينيه متأهباً للزائرة المنتظرة طويلاً: فلتأتِ، فلتأتِ، تأخرتِ في المجيء تظنين أنك مثل كل العابرين.. حذار فلا مكان يمكن أن يكون خطيراً أكثر

twitter @mjanen٢٣

من البلاطات التي تقفين عليها وتظنين أنك تعبرينها مصادفة، تدخلتُ في اللعبة، عذراً مارست الغش لأجل جرّ خطواتك إلى هذه العتبة..

عذابه الرائع قريب منه أخيراً، ماذا يمنعك؟!. افتعل بضع خطوات ليتقرب منها ليقنصها قبل أن تعبر اللوحات الباقية وتفر منه مرة أخرى، أربكه التفكير فيها كوثيقة ثمينة يمكن أن تنقذ حياته من حبل مشنقة، توقف عند قرطيها، لا يمكن لحضرية أن تمتلك مثل هذه الأقراط، خرزتين ناعمتين من الفيروز الأزرق مغروزتان بتشكيلة من هلالين مقلوبين تخرج منهما تخريمات إلى الأعلى، صياغة لا يتقنها إلا صاغة حمص وحماة تماشياً مع الذائقة البدوية التي تعشق الذهب وتخاف العين الحاسدة. هل يمكن لتلك الأقراط أن تكون قد نجت من خرم ذلك الزمان؟!.. تلقف طرف شالها الصوفي المتدلي أمسكه وتظاهر أنه يشيله عن الأرض. لأول مرة يكون قريباً منها إلى ذلك الحد، مذبحة حقيقية، تحمل ذات العينين تقريباً اللون العسلي المسكون بشئ من الخضرة، لا يمكن لذاكرة أن تشيخ، اللون ذاته حملته الأختان، «منوى» و«سكرى».

التاريخ كله حلّ في وجهها. استولى عليه خبل عاشق ملعثم مرتبك أمام حبيبة لتوها وطأت أرض الواقع. وقف أحدهما قدام الآخر:

ـ «عفواً».

قالت مع ابتسامة كتومة لم يفهمها حتى يوم حاولت أن تشرحها له بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ. خرجت من الباب، تبخرت وهي

twitter @mjanen٢٣

تُحكم لفَّ الشال حول رقبتها. خلفته وراءها كغبار سيارة شفروليه في البرية.

غادرت المعرض ليسقط هو في فخ الموعود.

وقتها لم يحزر أن ثمة روائي خبيئ في داخله يقبع مترصداً لقصة تأتيه مثل مهر يصهل ملء خيشوميه لائذاً بأمه. أو قد تأتيه بجموح حصان يصهل فرحاً متأهباً بفعل حالة شبق مفاجئة. أو قد يجد نفسه مثل ابن عرس يخرج ليلاً، مقتفياً أثر الرائحة حتى يلتقط الفريسة بلحظة صحيحة، يصطادها ويلتهمها، مستلهما طعمها ورائحتها ونكهتها، أو ربما يجد نفسه وقد صار واحداً من عسس الليل، يجول في شوارع مدينة مهجورة، تنتظر من يكتبها، ويثبتها على صفحة الزمن، لتصبح ذاكرة، أو أن يفاجأ بحاله وهو ينوح بصمت على أرضه الشاسعة. فيكون مثل رسام جسور، يزاحم النوارس على شطآنها. فيما ذاكرته تعوم في حلم خاطف تنتظر المدّ، وريشته تخطر كما وحش صغير مضطرب برفقة أمه برحلة صيده الأولى.

حين قرر أن يصبح كاتباً اختار أن يبدأ منها.. الكلمات وحدها كان يمكن أن تكون على قدها بعض الشيء. حين لا يكتب عنها يعود إلى أول السطر ويكتب من جديد، بنى لها قصراً من ألف طابق، أحياناً بدت له «يوتوبيا» لا طائل منها، دون أن يدري توغل في سيرته، كانت فائقة الوصف في وجدانه، قابعة في طيات كل مذكراته.

مرت السنة الرابعة ينظر إليها نصف متعالٍ، كله عاشق،

twitter @mjanen٢٣

وبمجمله يائس مفزوع، رآها تخرج من الكلية وهي ترتدي ثوباً أخضر وتمشي مسرعة صوب سيارتها، لحق بها، لهث، وعندما اقترب أصبح جباناً تماماً عاد أدراجه، ومساء عند خلوته مع أوراقه كتب: «نخب لعبتي الأخيرة يا جنّة، نخب الهزة الأخيرة لنخيلك، من الآن لن انخرط في القتال معك، يا عدن نظفي خلدك من بقايا طيني، كفي عن تيهك يا عدن فما نخيلك المشرئب إلا من صلصالي، يا شطحة خيال بشرية، قد أخليت كل مابي منك، الآن أودعك، أتأذنين لي بنرجسي؟!.. بذاكرتي؟!.. بكامل مستحقاتي من القبل والعرق والاعترافات؟!.. لكن لا، انتظري، كل ما قلت لا تصدقيه لم أمت بعد، ذئبي يخاتلك»..

كان يعرف أنه كاذب ولن ينساها قط ولن يودعها يوماً.

❖ ❖ ❖

كان «لورنس» مستاء للغاية من موقفه الجبان كما وصفه:

- «يا أخي امسكها من كتفيها و قل لها من تكون»..

- ماذا لو لم تعرف حقا من هي أمها ؟!.. ماذا أقول لها! أنا ابن «منوى»!.. فتقول من «منوى»؟!.. ربما لا تعرف شيئاً عن نصفها البدوي!..

يكفر «لورنس» و يصب المزيد من الشاي:

- «يا أخي اشرح لها، احكي لها كل الحكاية»..

- «واذا اعتبرت الحكاية شأناً قديماً لا يعنيها»!..

twitter @mjanen٢٣

- «تكون قد فعلت الذي عليك»!..

- «لا.. ستنهار أحلامي».

- «يا شين واللهِ شين»..

كان هدوء «طراد» وصبره وانتظاره لمعشوقة لا تعرف بأمره، أمراً يدمر أعصاب «لورنس». وكلما جاءت سيرتها يتحمل «طراد» توبيخات شتى يسوطها لسان «لورنس»، و يقترح عليه دائما:

- «اخطفها».

بكل الأحوال، لاحقاً فرّ «لورنس» من خدمة العلم واستقر في دولة عربية أخرى، و قام بخطف ابنة خاله بموافقتها وتعاونها الكامل بعد تعنُّت خاله ورفضه القاطع تزويج ابنته لابن شقيقته المزاجي، وكان أن اشتغل «طراد» بالأوراق الرسمية اللازمة لخروج العروس الهاربة من البلد، وفي مدينة حماة عند حديقة النواعير انتظرها «طراد» في موعد محدد وكانت مهمته اصطحابها إلى دمشق وبذات الليلة ودعها في المطار لتلتحق بعريسها.

❖ ❖ ❖

تزامن وقت دراسته الجامعية مع وقت دراسة «سكرى» فقط لخاطر تكتيكٍ محض قدري. لأنه لم يدخل المدرسة في السن المحدد.

وبفضل ثعلب القدر الذي يجتاز بصمت كل الخطوات الفاصلة بينه وبين العنب، لمح اسمها الكامل ضمن قائمة طلاب السنة الأولى

twitter @mjanen٢٣

ومن وقتها عرف كيف يمكن للحياة أن تكون مشحونة بالمصادفات ببراءة تامة.

وقف هناك أمام قائمة الأسماء الطويلة مشبعاً بالدهشة، ومنذ ذلك الوقت ظل القدر يشربك مصادفاته لكن بشروطه هو، وتوقيته المختار.

تقصد المقصف لتشرب قهوتها بين محاضرتين، يخاتل خطوها ليتزامن دخوله مع انتقائها لطاولتها. يختار أقرب طاولة ويمارس التمويه الشهير، يقرأ جريدة.

مع الوقت تحول توقه إلى عوز ملحاح يهدئه بعض الشئ حين يراها أو يلمحها عن بعد. ويصير سدى نهار لم يبصرها فيه، وكم يعاني حين يصادفها قادمة باتجاهه يصعب عليه اجتياز فتنتها، يلحقها من بعيد، و تبدو حياته كلها ملائمة لانتظارها.

معركة نقية خاضها معها عن بعد. حارب في معركة لم تدر أنها كانت في صلب معمعانها، وحين يذهب في الإجازات إلى أهله أصبح يأخذها معه بصمت.

لم يحك عنها قط لأحد من أهله ماذا لو ذكر أحدهم أمام جده أنه ثمة حفيدة له: ابنة «سكرى».

منذ أكثر من عشرين سنة أرسل لهم البيك ثياب «سكرى» مع قريبة للعائلة تقطن في حماة، لتخبرهم بأنها ماتت هي ووليدها أثناء الوضع.

twitter @mjanen٢٣

ذات مرة حين كلفه أبوه بتوصيل كمية كبيرة من السمن إلى حماة. في سوق «الحاضر» جلس مع شريك أبيه يدخن التتن الحموي في انتظار تفريغ حمولة السيارة من عنابر السمن، خطر له أن يسأل عن أحوال البيك الذي سلبهم يوماً «سكرى».

دون أن يعلم ذلك التاجر سرّ سؤال «طراد» عن «حازم» بيك الذي تربطه صلات قربى وطيدة مع عائلة العظم في حماة، حكى له عن الزفاف الخرافي الذي كان قد أقيم في وقت قريب لابنته الجميلة جداً وبصوت خافت همس له عن حكاية ترددت في كل أنحاء المدينة عقب الزفاف.

التاجر العجوز أكد أن أصل تلك الإشاعة ليست إلا بسبب غيرة نساء حاسدات للفتاة. تقول الحكاية إن الفتاة ابنة لامرأة بدوية كان البيك قد أغرم بها وقد سممتها واحدة من قريباتها وماتت عقب ولادة الطفلة.

قطع شكه باليقين الصعب، حين رآها لأول مرة في الحرم الجامعي، القامة ذاتها، الذقن المقسومة بفلق عميق مع فم، جدته «شمس» بالذات، لفتاتها وسكناتها ، تَرِكة خام من خالتها «منوى».

وبذات الوقت كانت زوجة لواحد من أولئك محدثي النعمة الذين يلحون دائماً على أن يعاملهم الناس كأرستقراطيين حقيقيين إضافة

twitter @mjanen٢٣

إلى حساباتهم في بنوك الخارج يتملقون العائلات الفاخرة ذات الحسب والنسب. ومقابل المال يحصل ذلك المسؤول له أو لابنه على واحدة من بناتهم. وهي كان نصيبها واحدا من أولئك، يكبرها بأكثر من عشرين عاماً.

twitter @mjanen٢٣

سلطانة

«سلطانة»، كل الشمبل يتذكرها.

لم تكن عربية قط، كانت «نَوَرْية» من أولئك القوم الهنود المرتحلون أبداً، يطورون أنفسهم لإرضاء غيرهم من الشعوب، في القرن العشرين كان النَّوَر هم المطربون المفضلون لدى البدو، مع قدوم الربيع يبزغون مع حميرهم الكثيرة وبغالهم الضخمة التي تقود عربات مغطاة بأقمشة قذرة يدعون الواحدة منها «طمبراً»، حتى النَّوَر كانت لديهم طبقية بشكل ما. فالقرباط يعتبرون أدنى مرتبة ولا يرافقون النَّوَرْ ولهم مخيماتهم الخاصة يصنعون السكاكين والغرابيل وفي الربيع يجولون بين البدو لبيع مصنوعاتهم المتواضعة. إضافة إلى براعة نسائهم بتلبيس الأسنان بالذهب ووشم أجساد البدويات، والنَوَرْ هم مغنون محترفون تأقلموا مع ذائقة عرب الصحراء على نحو مدهش فقد أتقن رجالهم العزف على الربابة أكثر مما فعل البدو، صدحت حناجر فتياتهم ونسائهم بكل أنواع الغناء الصحراوي، وشاعت عنهن تسمية بدوية وفق أصول التسميات العربية الجاهلية العتيقة حين يعمدون إلى تسمية

twitter @mjanen٢٣

الشيء بعكسه فقد دعوا مغنيات النور «حجيّات» وعلى مدار سنين طويلة جالوا بين البدو تعلموا لهجتهم تماماً، وسموا أبناءهم على أسماء الشيوخ والأمراء وأولادهم كوسيلة ارتزاق فكل شيخ تسمي النورية وليدها على اسمه ستحظى بشكل سنوي بخروف أو نعجة..

لم تكن المدن لتكترث بخدمات هؤلاء القوم، والفلاحون كانوا أفقر بكثير من استضافتهم لقاء الليالي الملاح، وهكذا أصبحوا رفقاء البدو في السنين الخصبة.

و«سلطانة» واحدة من تلك الحجيات اللواتي اشتهرن في الشمبل لسبب رئيسي، جمالها النادر بين النور، لم تكن تشبههم مطلقاً، كانت طويلة بجدائل كستنائية وعينين خضراوين ووجه لا يرتوي منه النظر. وبفضل سلطانة ودماثتها أقام قومها صلات طيبة مع الكثير من القبائل وكانت «شمس» تمازح العجوز والدة سلطانة بقولها : «قولي لي من هو أبو هذه الفتاة وحق الله لن أخبر أحداً أو من أيّ قوم سرقتها أخبريني وأعطيك كل سنة خروفا مع مؤونتك من السمن».

كان الجميع يتداول احتمال أن لا تكون «سلطانة» واحدة من النور وأنهم قد سرقوها من قرية ما، مروا بها مصادفة.

ضوء الشمس يتوهج ويغدق الربيع حسنه ومنذ أن بلغت «سلطانة» السادسة عشرة من عمرها والعربان ينتظرون الربيع لتمر بهم ويحظون بليلة أو ليلتين تغني لهم وترقص مع بقية أفراد عائلتها. كان شبان البدو يمازحونها ويتوددون إليها على غير عاداتهم مع الحجيات،

twitter @mjanen٢٣

يعلمونها الرماية أو ركوب الخيل فقط ليحظوا بفرصة القرب منها، لم يكن لـ«طراد» نصيب في منافسة أبناء عمومته الذين يفوقونه رجولة ووسامة، فكان يكتفي بمراقبتها عن بعد.

حين حدث واقترب منها كان ذلك مصادفة، كانت تريد التنكر بهيئة رجل لممازحة جدته «شمس»، أومأت له أن يأتي، وحين وافاها طلبت منه شماخاً وعقالاً، جلب لها ما أرادت وكومت شعرها وراء عنقها وطلبت منه أن يحكم اللثام لئلا تكشفها «شمس» سريعاً.

لم يدر إذا ما انطلت الحيلة على جدته الذكية لكن الذي يذكره أنها فجأة قالت له:

- «أنفك جميل يا ولد.. كم عمرك»؟!..

- «واحد وعشرين»..

- «تبدو أصغر من ذلك».

وسألته «سلطانة» مرافقتها إلى القصر الأثري المهجور الذي لم يكن يبعد عن الخيام أكثر من كيلومترين وهي تقول:

- «أريد أن أراه من الداخل لكن خوفوني من حية ضخمة تسكنه».

عصر ذلك اليوم رافقها إلى القصر وقد حملا كلاهما سكيناً لنبش الكمأ الذي قد يعثران عليه بين أرجلهما أثناء المشي.

لم يثر الأمر ريبة أحد، وكل السنين التي مرت عقب ذلك العصر لم يدر حتى «طراد» إذا ما كانت قد بيتت ما حدث سلفاً أم أن

twitter @mjanen٢٣

المسألة كلها مصادفة، عند باب القصر طردت بضعة صبيان وفتيات من قومها قد لحقوا بهما.

كان يجول بها بين أروقة القصر وأكوام الحجارة حين بدأت الشمس بالمغيب وفي ركن معتم سحبته واضجعت تحتة وجعلته فوقها وثبتته بين فخذيها وهي تطلب منه تقبيلها على عنقها وكشفت عن صدرها وجذبت رأسه نحوها أكثر وهي تهمس له:

- «مص هنا.. ضع هنا»..

عيناه ترودان سطح السماء فوقه، ومرّ ربيعان عقب ذلك المغيب و«سلطانة» تمر مع قومها وتتجاهله تماماً وتؤلمه كثيراً وتجنّن الرجال في الحفلات التي كان يقيمها أبوه لضيوفه من ضباط وصيادين لبنانيين، وحين سمع بنبأ موتها كان «طراد» مع «راكان» يخيمان في مكان أثري يمارسان نبشهما المعتاد للمدافن..

«النَوَرْ» لا يقتلون فتياتهم لأسباب تتعلق بالشرف، وإن حدث ذلك فإنه يحدث لأسباب عاطفية. لكن سلطانة بالذات قتلت، حين اكتشفوا أمر حملها وأكدت لهم أنها لم تتذكر الفاعل، فقط قالت لهم :

- «كنت سكرانة».

وجاءت فرصة من ذهب لغريماتها من زوجات أشقائها اللواتي متن مرات عدة من الغيرة، كن يمقتنها وفي غفلة عن أبويها دفعن شقيقها الأصغر لطعنها، رغم محاولات إسعافها الجادة إلا أنها لم تنج.

twitter @mjanen٢٣

بعد مقتلها رفضت كل قبائل الشمبل استقبال قومها أو الاستماع لغناء نسائهم.. وبعد سنين طويلة علم «طراد» أن ثمة ضابط أخذها عقب سهرة شربت فيها لحد السكر إلى القصر وقضى وطره منها وابتليت بالحمل على إثر ذلك.

خفيف ونظيف يمر السراب، مثل زورق يبحر على خط الأفق وهناك كبر «طراد» وكبرت عيناه، يميزهما الالتماع مثل أسنانه، براقة صقيلة و نفاذة.

مبكراً ازدان وجهه بخطوط و تجاعيد سببتها هوايته بمرافقة الرعيان إلى المراعي، وجهه يمارس عليك حيلة أن يثبت في ذهنك.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

الضفة الأخرى

كان دائماً لابد من سراب كاذب كي يهدئ الظمأ ويشحذ صبر «فكرى» وهي تناور صقيع عواصم أوروبة تتنقل بين المطارات، وتلوح لها كل أيامها الغابرة وهي تتهالك على مقعد الانتظار حتى يحين موعد طائرة ما أو قطار ما. تهادن حنينها لضفاف الفرات وبصوت خافت تنشد لنفسها حداء قبيلتها الحربي: «حرشه وعطشانة تريد الشر ماتهاب طوابك والعسكر». دائما تحت دثار ذاكرتها تلعب على حبال جبنها وعزمها.

كانت «فكرى» تقوي نفسها ودائماً تشتري المجلات والصحف الثقافية لعلها تلتقط ـ ولو مصادفة ـ شيئاً كتبه شقيقها «طراد» الدَنْدل. تركض وراء كلماته وتحلق معه متناسية عالمها لوقت قصير وتعود إلى حياتها كثرية وشيخة وأميرة تتنقل بين قصور زوجها كخطو في وحل.

لم يتخثر قط دم جرحها البعيد، يوم انتزعت من أحضان ابن عمها وزفت لرجل لم تقابله إلا ليلة دخلتها، جلدها وكامل لحائها ولا

twitter @mjanen٢٣

ميليمتر واحد منه ينسى لمسات ذلك الشاب المفتول الشاربين.

أول شيء لفت نظرها في زوجها التناقض الكامل بينه وبين الصورة التي رسمتها لرجل تنام بين ذراعيه، نزلت أول دمعة، ارتبكت وتعثرت بذيل فستانها الأبيض من تحت مقص ايف سان لوران، اندلقت كل حسرتها على طعم شفتي ابن عمها. وبلحظة صعبة غدا كل شيء لديها خالياً من المعنى، لا نسغ له ولا روح. وجرجرت قدميها باتجاه عريسها الذي كان بدوره مخذولاً بلون بشرتها السمراء وشعرها الكثيف الأسود، وهو المولع بالنساء البالغات البياض، ووجد أن فمها كبيراً وممتلأ أكثر من اللازم، ووجنتيها عاليتين أكثر مما يجب، وعينيها صغيرتين مقارنة مع عيون الغزالة التي تسكن مخيلته الصحراوية. دنت منه وتأبطت ذراعه وخنقها بكائها وسدت حنجرتها وهي تتذكر كل ماضيها القصير المتخم بالتبرم منها ومن وجودها بين أفراد عائلة تكره أمها وتحقر من شأنها، وأول صفقة مصاهرة متاحة زفها أبوها لواحد من أقاربهم البعيدين الذي غدا من شيوخ النفط.

ينفتح ماضيها وينغلق وتظل ملوحة بشرة ابن عمها طازجة، نقية، شاسعة. أحياناً يرغي حنينها ويزبد ويبتلعها ليلفظها وهي مشرعة لريح الحزن.

مرَّ وقت طويل لتعلم من أحد أشقائها عقب وفاة والدها أن شقيقها «طراد» لم يعلم قط برغبتها بالتعرف عليه، غفرت لأبيها كل

twitter @mjanen٢٣

محاولاته بزرع البغضة تجاه «طراد». كانت تعرف دائماً أنها ستحزم حقائبها وتطرق باب «طراد»، ومثل من نسي كل شيء ينهض السراب من جوارها وبإصرار طيور هاربة تغيب أكاذيبه في عباب البعد.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

ربما المياه تلتقي

«كان البدو يتكلمون عن النساء، عندما تكون معدهم مملوءة، ويكونون قد أكلوا اللحم. وهم على العموم شعب قوي ذو عواطف جياشة وحديثهم عن الجنس حيوي وصريح ولكن غير بذيء، كما أن سبابهم مباشر ومقصور على - لعنة الله عليك - خرب الله بيتك - وليس كالبذاءات التافهة التي يستعملها العرب الذين يسكنون المدن».

❖ ولفرد تيسيغر «الرمال العربية»

كانت «سكرى» شهيرة بعشقها للثياب والموضة، تحديداً بعد أن افتتحت أول وكالة لأفخر العطور الفرنسية ومحلاً للألبسة المستوردة من أهم الماركات.

لونت شعرها بالأشقر الغامق، اكتسى وجهها بمكياج ينادي بالالتباس، تدرجات البيج والألوان الترابية مع شعر أشقر وتسريحة من خصلات ملفوفة على شكل أساور ذهبية لماعة تصنع امرأة سرابية مخصصة للحيرة، النظر إلى وجهها أصبح مثل مغامرة بلا بوصلة.

ترفض أن تكون بيتاً شعرياً منقحاً، ليصعب على الرجل قراءته

twitter @mjanen٢٣

وتحديد معاني مفرداته، تتعمد أن تضعه في حالة حلم صعب التحقق. وتنبهه ليصنع أحلامه مع النساء من كفاف يومه ليتجنب المفاجآت.

أخذ محل الألبسة الذي افتتحته لاحقا شهرته وخصوصيته عندما اقتصرت أزياؤها على أقمشة بألوان النمور المرقطة والمخططة وبألوان أفاعي البوا والأناكوندا، مستعيدة زمن المرأة الوحشية الكاسرة التي لا تخبيء انفعالاتها إنما تعلنها وبشراسة لا مخاتلة أو مواربة.

لاحقاً أصبحت تتعامل مع مصممي أزياء تخلوا عن فكرة ترويض الرجال، رأوا أنه ليس من مهام المرأة ترويض الرجال، ثمة طرق أكثر ذكاء للفت انتباههم وتعزيز براثنها، ذلك يأتي عبر وضعهم على شرفة الأسئلة وصنع الغموض ليكون الفضول ردة الفعل المبتغاة، لأن الفضول تجاه شخص بعينه هو أول خطوة صوب الحب.

الأجدى أكثر من الترويض الصريح، ترويض من طراز دقيق كأن تخترع ملامح بحيث تدفعه للبحث عن اللامرئي فيها، تعوده على رؤية مالا يُرى. لم تعد تنتظر اعترافاته إنما تتربص بزلات لسانه، كأنها تتعمد تلوين شفاهها بالأحمر مثل شيء يومض كصدمة، لا تتخلى عن الظلال الدخانية للجفون حتى يعجز الرجل عن رؤية ما وراء الأفق.

فن حقيقي أصبح المكياج، ساعي بريد يوصل رسائل لا تُحكى لكن تُعرف، هكذا راح يتعمد المرور من أمام محل العطور ليلمحها عن بعد.

twitter @mjanen٢٣

تعجبه وهو يلمح ثيابها الملونة بالطبيعة بين هدوء زهرة وتواضع طحلب على جذع شجرة، أو عرق زهور يشرئب في موسمه، بفضلها لم يعد بدوي ينفر من الأزياء المدينة، تثقف بصريا وأصبح يعرف أن هناك فكرة وراء كل تفصيل، شكل القبة وحجم الأزرار، ألوانها، طول التنورة أو قصرها.

في الجامعة كانت تعتمد الظلال القوية و الكحل الذي يحدد العيون على نحو وحشي، الشعر المتناثر دون بكلات، وفي السنة الأخيرة لم تتوان عن إعلان تمردها، كأنها تريد إثارة الرجل بشكل مباشر وصريح عبر مفاتن ظاهرة والالتفاف على شهوته وصنع إثارة من خلطة جديدة بعض الشيء، من مكوناتها زئبق المعنى، كأن توهمه بأزلية مشاعرها نحوه ثم بلحظة مغافلة تزوغ منه، تغادره، تطير مثل باشق خبيث، ترشده إلى الكلمات الخطأ لتحمي صحيحها، تقول.. ولا تقول، ترهف السمع لتعرف متى تتقن الصمم ومتى تجعل كل كلامها بكماً مدروساً.

الثياب والمكياج ولون الشعر وتسريحته، طلاء أظافرها واكسسواراتها، كلها مفردات من قاموس أنوثتها، إن علم الرجل أسرارها تعلم فن فتح الأقفال، والألوان يمكن أن تكون عناوين لما تريد قوله.. تحبك بالأحمر وتكرهك بالأصفر وتموه بالرمادي وحين تخلط الألوان فليحذر الرجال.

لم يستغرب أن أنوثتها التي تفتحت في سنتها الجامعية الأخيرة

twitter @mjanen٢٣

ستجر المتاعب لها ولمن حولها، لم يفته أبداً يوم لفتت أنظار ابن مسؤول كبير في البلد وراح يلاحقها كظلها. ترك محاضراته في كليته وأصبح مداوماً على حضور محاضراتها هي، وبعد ذلك انقطعت عن الحضور لمدة شهرين والسبب لم يخف، انتشرت الاشاعات حول اصابتها برصاصة من مسدس زوجها الغيور الذي علم على ما يبدو بحكايتها مع ذلك الشاب.

يعود إلى أوراقه ويدس غاضباً في أحد أعماله الأدبية: «لا تخدشي صمتي بخرير أنهارك، أندبيها جهنمي وعليها تكوّمي بكلّ أبهة رياضك، أنهارك، لم أعد أسألها وِرْداً، بعد الآن لن أتلو سطوري عليك، كيف يمكن أن أواجه أنهاراً اختارت سماواتٍ سبعاً لمصباتها؟!.. أنا من ضيعتني مصبات نزوة، حوّلي مصبات أنهارك عني، لا تناوريني حتى في أحلامي، لا تراوديني عن نفسي وعن بركاني، لا تحبيني، أنا أرحل وأترك ورائي أكثر من خيط لتتوهي أكثر، دائما كنت أرغب أن أكون مسافراً دون أمتعة و مؤونة، دون ذاكرة، فقط مركب شراعي يتيه بين النوارس». يكتب كل ذلك ويعرف أنه كاذب لن يعاتبها قط مثلما لن ينساها.

❖ ❖ ❖

ثمة سنين مرت خالية، وأخرى كانت مكللة بالتوقعات المتفائلة تحطمت عند أول عزقة غدرت فجأة بالعجلة وانفكت لا مبالية،

twitter @mjanen٢٣

لياليه الطويلة يحييها فقط سادة الذاكرة الغابرون.

في النهار صحفياً يحمل آلة التسجيل ويتسوق صحفاً ومجلات وكتباً، يأخذ فطوره من كرواسان مخابز باب شرقي.

في شأن الحب، كان حاله مثل حال نعجة ذُبح حملها فأتوا بحمل غريب ليرضع منها كي لا ينضب حليبها.

اعتاد المشي بين بيوت باب توما المهلهلة، وجدرانها التي بدأت منذ زمن تتقشر وتتساقط كاشفة عن لحاء ترابي. مولعاً بصنابيرها النحاسية، يغلفها الصدأ وماؤها مقطوع.

كل شيء غدا متواطئاً مع نهر بردى الذي تحول إلى ساقية تفوح منها رائحة عفنة، كل شيء فيها يعرّف الزمن ويوثّق لمرور السنين، سنين لم تترك شيئاً لم تمرّ عليه.

في السماء حمائم، وعلى الأرض قطط، ومساجد تجاور المقابر والتكايا.

وحده، ظلَّ «البدوي» في تلك البقعة، حاول أن يموه كل ذلك العجاج الذي يسكنه، كيف ستمر ليلة باردة دون أن يشم رائحة الغنم الحامضة مخلوطة برائحة بول الإبل المعطرة بروائح ورود الربيع يداخلها التراب كرائحة تعشقها كل أنوف البشر، كيف ينسى رائحة دم مخاض عنزة وضعت وليدها في ليلة زمهرير، مع الصباح ينفق المولود برداً!..

كيف يتفادى رائحة «الخظيظ» الصباحي المبكر، رائحة الجلد

twitter @mjanen٢٣

الذي تصنع منه «الشكْوة» التي يخض بداخلها الحليب حتى ينقسم إلى لبن خالي الدسم وزبدة. كيف يهرب من رائحة الزبدة التي تسخنها البدوية في القدْر لتحولها إلى سمن.

يزيح رائحة قبة الطين التي سكنتها العشائر الغنّامة في إولى لحظات تحضُّرِها وممارسة الزراعة، واستعملوها لاحقاً كمخازن للسمن الذي يوضع بالعنابر المصنوعة من الخشب المبطن بصفائح الألمنيوم، روائح يرغمها على الانزياح لصالح الروائح الجديدة.

يغسل يديه حتى تصل أصابعه إلى مرحلة النسيان، نسيان ملمس جلد الضب و دفء كلبته السلوقية «سوده».

مع كل إجازة يقضيها في ضيعته يرجع وفي حوزته المزيد من التحسر على البدو العتيقين ونفوره من البدو الجدد، لم يعودوا كذلك مذ أدخلوا مدافئ ومصابيح البترول التي توفر الدفء والنور، وفي الكثير من البيوت أجهزة الراديو التي تعمل على البطارية، حلت الصفائح محل الضروف الجلدية لحفظ الماء، ومن اطارات السيارات المستعملة يصنعون دلاء سحب الماء، هكذا كان «طراد» يرى الأمر.

❖ ❖ ❖

مسموح أن تحب هذه الأشياء: تطرب لأم كلثوم وأنت عاشق..

الغيوم الشتوية الخفيضة التي تحجب الشمس عن فنجان قهوتك وهو يبرد ، وأنت شارد مع أحلامك وخيالاتك، ورائحة وردة زرعتها

twitter @mjanen٢٣

وسقيتها وقطفتها وأنت تفكر بأحدهم..

من بين فجوات الذاكرة يمرق السراب في الوقت الضائع ليلعب، وتعبر السنين مستلهمة مكر الزمن الشهير ، و«طراد» مدلَّهٌ صامت.

في كل ذلك العالم الحضري لا سند له غير حضورها الفريد في محيطه، ثبتته على عرشه الفانتازي، كاد ينمحي من فرط انتظارها.

أضناه غيابها الذي يشبه هجراناً غير مقصود، أيام كثيرة مرت مثل ظهيرة خاوية نائمة ببلادة، مرت الأيام لتترك له درساً وحيداً يذاكره كل يوم: الصبر.

حين يلوح له فجأة أن كل قصور السراب ومردته فقاعات كذب، ينتبه إلى أن السنين مرقت ليظل هو ذلك الغرّ الذي يوسوس فيه حلم.

خوّافٌ كان. ويصبِّره يقين يقول له: «لابد من الكثير من العتمة لتتكشف نجومك».

شكلت الأرصفة سيراناً طويلاً مارسته أقدامه، تسكع وشرد، أصبح يكتب عموداً يوميا في أهم الصحف المحلية، و شارك بمقالات هامة في الصحف العربية، وكتب سيناريوهات ناجحة لفلمين ومسلسلين وكتب ديواناً شعرياً نال جائزة عربية مهمة، كل ذلك كان مهدى إليها و إلى جوعه لها.

دخن السجائر والغليون وأدمن الأركيلة، ثمل، سكر، ولم تتحرك من دماغه «قيد أنملة» وقلبه مبسوط على قدِّها.

twitter @mjanen٢٣

يعبر من أمام المقاهي المطلة على الأرصفة، الكثير من الكراسي المقشَّشة تأخذ مكانها تحت مؤخرات البشر، في لحظة تبدو كراسي للاعتراف، وأيضاً مكاناً للنسيان مثلما هي للتذكر. تهيمن على الناس تعابير وجوه أناس سئموا كل شيء: الحياة، الحب، الأمل، الكره، الغضب، الكلمات، الدهشة.. بعيونهم يصقلون بلاط الشارع الحجري، يراقبون المارة كما لو أنهم يمنحونهم نظرة أخيرة، فيما دخان الأركيلة المتصاعد يرسم قلقاً ودوائر من الحيرة.

خلال ذلك وصل إلى يقين نهائي بشأن دمشق، مدينة قلبها مثل قلوب ساكنيها، خضع لأكثر من عملية استئصال.

وأمام الذهول الصامت لحجارة تاريخها، جفّ نهر بردى، حوَّلوه إلى جثة متفسخة تصدر الروائح العطنة.

ما زال الشعراء يكذبون ويتحدثون عن رائحة العطر التي تفوح في هوائها، كذب. إنها مكوَّنة من تلك الرائحة العطنة التي بات يطلقها بردى مع رائحة أزهار الياسمين الذابلة التي تسقط من أشجارها منتحرة ومنغرسة بين تجاويف البلاط الحجري وروائح دسمة غريبة مصدرها مطابخ البيوت والمطاعم.

رائحة التراب الجاف مع الخشب المنخور بالموت مازال يمثل بنية بيوت هجرها أهلها خوفاً من انهيارها فوق رؤوسهم فظلت تشبه نعوشاً خالية.

فقط في الصباحات الباكرة ثمة رائحة نقية بعض الشيء، روائح

twitter @mjanen٢٣

نباتية، مليسة، زهر الليمون، قهوة، قرفة، هال، فتشكل دون عمد رائحة بشرة أحد ما.

مدينة قد تشعرك بأنها امرأة هزمها ثقل السن، وبلحظة تمنحك شرارة أنثى لعوب.

ترهقه «دمشق» و«سكرى»، يدلف إلى أوراقه ويكتب: «مهما جرت أنهارك لن تلتقي إلا بيّ».

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

فكرى

عالياً على مستوى الريح والأفق تبصر ظلّ القادم إليك.

أنوف النساء تقدر على شم رائحة ضيوفهن عن بعد لا يقل عن كيلومترين. لكن في باب توما ، بابه كان يحب السكوت، يغلقه فيظل على حاله دون أدنى حركة. تلك المرة عندما سمع الطرقات القوية خمن أنها طرقات بدوي لم يحسن التهذيب يوماً مع الأبواب لأنه تقريباً يجهلها.

كان الوقت مساء حين نهض تاركا شايه الساخن وبيده سيجارته المفضلة «حمرا طويلة»، أول شيء رآه عينين ثاقبتين لا يمكن أن تكون لأنثى حضرية مطلقاً، في العينين الغامقتين التقط وميض شَبَه، لكن الوجنتين كثمرتين مكتملتي النضوج، والذقن الممتلئة المدورة، وضعته بحيرة مؤقتة قبل أن يتذكر أنه رأى ذات الوجنتين العاليتين الممتلئتين كثمرتي كمثرى بالمقلوب في الصورة الوحيدة التي

twitter @mjanen٢٣

استطاع اقتناصها بواسطة امرأة «نوَرية» لشقيقته «فكرى» وهي في السابعة عشرة ترتدي الزي البدوي الخاص بعشيرتها.

- (ياشين ماعرفتني.. قواك «طراد»).

ثمة دمعة ماكرة لم تستجب لأعصابه المتينة المعتادة، طَفَرَت دمعته المؤجلة، فرّت بحنين مهشم بالحسرة.

احتضن «فكرى» الأخت المنشودة والتي ظن أنه فقدها إلى الأبد وغيمة من رائحة القرنفل غطت البيت وأمطرت على شقيقين لم يتقابلا قط ولم يشعرا بأنهما افترقا لحظة.

«فكرى» المتأنقة على الطريقة الباريسية، شعرها مرفوع «شينيون» مثبت بدبوس من الذهب مزين بفصوص من الفيروز لتتناغم مع قرطين ذهبيين مصوغين على شكل هلالين محشوين بالزخارف وفصوص الفيروز. هذا الطراز من الأقراط ميَّز صاغة حماة الذين صاغوا ذهبهم ليتوافق مع ذائقة البدويات لأنهن الزبونات المحتملات دائماً في محلات الذهب هناك.

أقراط أمها «منوى» التي نسيتها يوماً مثلما نسيت «فكرى» في غمرة انشغالها بهجر زوجها لتغادره نهائيا إلى أحضان «النوري»، وحدها الأقراط ظلت تربطها بذلك الماضي الذي لم تنسه يوما.

twitter @mjanen٢٣

حين صبَّ لنفسه كأس الشاي المخمر والشديد الحلاوة كما يحبه كل البدو لم يخطر في باله أن الكوب سيكون من نصيب «فكرى» التي حفرت ذلك المساء الذي لن ينساه بحياته، بعد ساعتين من الكلام تذكرت خادمتها وسائقها الذي أرسلته لينهي حجزها في الفندق وحطت رحالها عند شقيقها الذي عثرت عليه أخيرا كما تخيلته وكما حدثوها عنه، كانت تحفظ معظم مقالاته، كانت حامل في شهورها الأولى بولدها الثاني. ابنها البكر التحق بجامعة برنستون بالولايات المتحدة، وزوجها بالكاد تراه مرة في الشهر لأن ترتيبها بين الزوجات كان الرابعة، قررت انجاب طفل قبل أن تبلغ سن الأربعين وقد أصيبت بنوبة وحام غريبة توحمت على شيئين، رائحة الربيع في جنوب الفرات حيث أراضي عشيرتها ، وطعم البيلون.

- «بيلون»؟!..

نهض «طراد» وهو منهنه من الضحك، ومن أحد أدراجه جلب كيس ورقي فيه بضعة كتل صغيرة من البيلون.

- «خذي».

كل شيء مغرم بماضيه، جلس كلاهما على مصطبة الذاكرة أمام كيس البيلون.

twitter @mjanen٢٣

- «من خبّرك أن أمك يرحم ترابها كانت تتوحم على البيلون»؟!.

جاوبته «فكرى» بدمعة دهشة صامتة مثل عصارة زمن عتيق:

- «لم يخبرني أحد»..

العثور على شيء ضائع يفاجئنا، قضت عنده أسبوعاً من السوالف والحكايا والسهرات الطويلة، انهمك بتدليلها بحنان كبير كاد يؤرجحها مثل طفل في مهد، لم يسمح لخادمتها بخدمتها، فعل هو ذلك، طبخ لها وحضر الشاي وحرك قهوتها بملعقة صبره الطويل.

عفويتها ساعدته على تجنب الاعتذار عن تواضع بيته أمام فخامة قصور زوجها، حكى لها كيف تسمَّر مرة أمام بقايا قصر زوجها في عاليه الذي راح ضحية أحداث لبنان.

قرأ في وجهها ذلك الشيء الحزين الأنيس بنفس الوقت، تسربه عادة ملامح وجوه استطاعت التعامل مع جرحها الخاص حين تعمد الأصابع إلى التحقق من تضاريس الجرح ذاته، تتلمس عمقه واتساعه وفي الغور تقلِّبه الأصابع، عندها يبلغ الوجع حدّاً فيه، لا رد فعل، ولا حتى ألم.

سردت له كل كبيرة وصغيرة في حياتها، حكت له كيف حدث وأن رمتها ضرتها بالتعاون مع الخادمات من شرفة الطابق

twitter @mjanen٢٣

الثاني، ظننَّ أنها ماتت وبعد عدة ساعات عثر عليها سائق زوجها وهي ملقاة بين زهور الحديقة الصيفية لمنزل الاصطياف في موناكو وهي شبه جثة وشبه محطمة، ظلت ما يقارب السنة تحت مراقبة الأطباء، وعقب تعافيها بعدة أشهر تلقت ضربة من سكين ابن زوجها السكران الذي اغتصبها بوحشية ليلة كاملة، ظلت ندبة في عنقها موهتها عمليتي تجميل تذكرها بليلة لم تنسها قط، حين بلغت الثلاثين من عمرها استوت شخصيتها ونضجت وحاكت لعائلة زوجها أمكر المكائد وأوقعت بين زوجات بعلها وأبناؤهن، خلال ذلك تبادلوا أحياناً إطلاق الرصاص.

حكت لـ«طراد» ذلك وهي تبرر بقولها:

- «فرق تسد».

«طراد» يصب لها المزيد من الشاي ويقول لها:

- «يا مستعمرة».

أعادت ابتكار نفسها واهتمت بهندامها وقوامها، كانت معجبة بجين فوندا وتقلدها كثيراً، طلت أظافرها بالطلاء الأحمر وأطالتها وأصبحت لا تنتعل إلا أحذية كعبها عال، وحين تمشي تؤرجح ردفيها، تمارس التمارين الرياضية بانتظام، وتعلمت التحدث باللغتين

twitter @mjanen٢٣

الانكليزية والفرنسية واستطاعت إقناع زوجها بتمويل عدة مشاريع صغيرة مع الوقت جعلت منها سيدة أعمال من الطراز الأول.

انتزعت كامل أسمال ذلها السابق، وتعلمت كيف تحب وتشتهي ولم تعد مقتنعة «بالاخلاص الزوجي»، لم تعد تبخل على جسدها بما يشتهي، وحرصت على انتقاء الرجال الذين يشبهون ابن عمها الغابر وشرطها الأول ليدخل رجل فراشها أن يكون له شاربين فاخرين معقوفين للأعلى، وفيما يضحك «طراد» تقول هي :

- «قلبي أصبح مثل شعري، أصبغه، ألوّنه، أقصقصه، أشذبه، أعقصه للخلف، أو أبعثره حول وجهي أو أتركه مثل طير حرّ».

- « والحب»؟!.. يسألها «طراد»..

تجيبه دون تردد:

- «خيبة خالدة».

ساهم «طراد» بإنعاش الماضي الموغل بسريته، حكى لها عن «منوى» الأم، خلال السنوات القليلة التي عرفها فيها.

«فكرى» كانت بريئة مثل قلب حمامة، وهو كان في حالة انخطاف تام.

كانت أطول منه قامة بحوالي عشرة سنتيمترات، سمراء مثل

twitter @mjanen٢٣

رغيف خبز مقمر، لم يتوقع أن تكون بذلك النضج، لأول مرة يشعر بمتعة وجود منحة اسمها أخت كبرى.

حين تمشي معه تلفت نظر المارة بقامتها الصخرية، شرهة للأكل، تحب الأكل الدسم ، تتكلم بصوت عالٍ رنان، تحتال على صغر عينيها اللتين ورثتهما عن أبيها بتوظيبهما بالماسكارا فتبدو أنثى ذكية وشهوانية وجريئة، قبع نهائيا في طيات عينيها.

في اليوم الأخير قالت له:

- «لماذا هذا الصبر»؟!..

كشفت أمره كما تفعل كل الأخوات الكبيرات، عرفت أنه مدلَّه صامت سألها:

- «كيف عرفتِ»؟!..

بمكر جاوبت:

- «من عينيك يا أخوي الصغيرون».

كان قد مرّ أسبوع دون أن توجعه بحضورها الدائم، تلك الخرساء العنود، قاوم رغبته بالحكي عن خيط الدم الخبيث الذي ربطه يوماً «بسكرى» وصار غاشماً، حاسماً، ونقياً إلى الأبد.

قبل أن تودعه نبهته:

twitter @mjanen٢٣

ـ «اذا كان حبك لا أمل منه»؟!..

خجل أن يعترف لها أن «سكرى» ثقبته وانتهى الأمر، اكتفى بهز رأسه بالنفي مؤكداً أنه سينتظر.

ـ «إذن لاتمشِ كثيرا تحت الشمس ستصير زنجياً إذا ما تسكعت دائماً تحت شمس الظهر لتنساها».

ابتسم لذكاء أخته المتوقع، حزرت عادة العاشق حين ينسى نفسه، يمشي لساعات دون أن يتذكر الوقت، قيظ أو مطر أو برد، كلها سيَّان أمام درجة حرارة العاشق التي لا يغيرها شيء.

تركت له واقياً شمسياً مصنوعاً من خلاصة أعشاب البحر ورحلت تلك البدوية التي تسافر كل سنة إلى أحد منتجعات سويسرا لأجل «ماسك الذهب» قناع خاص بالبشرة، رقائق من الذهب الخالص عيار أربع وعشرين قيراط، تطحن وتمزج مع العسل والزيوت وخلاصة الزهور والمعادن وتدهن على الوجه والرقبة واليدين وكامل جسدها، ولا تفوِّت أسبوع الموضة السنوي في باريس، مولعة بتربية الكلاب البولسية وتسميها، صقلاوي، كحيلان، عبيان.. غادرت وهي تؤكد له أنها تنتظر ردَّه حول عمل عرضته عليه في أوروبا يخرجه من حالته المادية المتواضعة جداً مقارنة بأموالها.. فيما السراب سبقت عيناه فمه،

twitter @mjanen٢٣

سكت في ضجة صنعتها السماء وهي تتبادل المجاملات مع الأرض وتُدخل كل الغزلان والذئاب والضباع والأفاعي والعقارب والثعالب، كل الكائنات المحتملة في جسد الصحراء، تدخل في حاشية الأفق، اهدأوا إنه صخب الاحتيال حيث قصور من لا شيء تمشي على حبال المدى.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

الخيول

«أسَنَفَهْم أنفسنا؟.. أسنفهمهمُ يوماً؟.. لا أظن ذلك!.. فالعرب يخشون حتى أعمالنا الخيرة، إننا سنبيدهم بالأحرى أكثر مما نجعلهم يخضعون لنا»

❖ مستشرق

فضوله تجاه نصوص الماضي أمرٌ دفعه للتوغل في صميم النصوص الكبرى التي كتبت عن الشرق.

كان بصدد كتابة نص فيلم وثائقي عن الخيول، الوسيلة التي كان يستخدمها البدو في إفساد موظفي الحكم التركي، كانت الأحصنة الجميلة التي تَبْرعُ بإنتاجها الصحراء أهم الرشاوي الممكنة، وأجمل ما يتطلع المرء إلى امتلاكه في الشرق.

ناور مفردة «الشرق» وقرأ عن الاستشراق معظم الكتب التي وصلت يديه، قرأ باللغة الإنكليزية كل ما كتب عن العرب سكان الصحراء متعجباً من الغرب الذي كان مولعاً بالبدوي أكثر من

twitter @mjanen٢٣

الحضري.

كان يريد أجوبة لأسئلة كثيرة تخص بداوته وذاكرته القَبَلِيَّة، وكل ما يقرأه كان يقوده إلى الخيول، كان السائح الغربي يغادر الشرق ومعه حصان عربي لإثبات أنه حقاً كان في الشرق.

ثم يمطرونه بأسئلة مثل:

- «أتملك جواداً عربياً»؟!..

- «أرأيت رأساً تقطع بضربة سيف واحدة»؟!..

- «كم جلبت من الأنتيكات»؟!..

- «هل رأيت النساء وهن يحملن الجرار»؟!..

يحدّثون من حولهم عن أمراء وشيوخ يقطرون فضة وأحجار كريمة ونساء محمولات على الهوادج والمحفات، ويرون أن العربي يقيس ترفه بما يملك من نساء وجياد.

ليالي طويلة عاشها بين أوراق الاستشراق لعله يفهم لماذا تجتذب الصحراء المبشرين والضباط والجواسيس والمغامرين؟!..

الآن تفوَّق الحضري، والفلاحون زال خوفهم العتيق من البدو وأصبحوا يملكون جيشاً، شرطة، دبابات، طائرات، مدافع.. وظلت تلك النظرة الغريبة التي يراها في عيون كل الذين أخبرهم يوما أنه بدوي، كان عليه أن يستمرئ نكهتها ويعتاد على وجودها.

twitter @mjanen٢٣

حين كلفته محطة أجنبية بكتابة نص وثائقي عن الخيول وافق لأن رائحة أرغفة الخبز المخلوط بتبن الشعير التي أطعمها يوما لخيول قبيلته لا زالت تفوح بإصرار.

أيضاً من راحتيه أحياناً تنبعث رائحة البلح الممزوج بحليب النوق لتذكره بتلك الوجبات الخاصة التي كان يعدها لفرسهم المدللة «تُفُنْكة».

شرح في النص أسماءها الكثيرة، يسميها البدو «عاطف» حين تطلب العشار، ويدعونها «القاحة» حين تلقح. وبعد أن تلد يقولون «راغوثاً»، وصغير الحصان إذا كان أنثى يسمونها «مهرة»، وإذا كان ذكراً يدعونه «فلواً» وفي عامه الأول «حولي»، وفي عامه الثاني «جذع»، وفي الثالث « ثني» وحين يصل عامه السابع يسمى «جارحاً».

بيديه صنع أجمل الذيول، أتقن تلك العملية التي يعمد إليها البدو مع أمهارهم، حين يعمدون إلى ضغط الذيل إلى أعلى حتى تصبح منطقة حامل الذيل بشكل أفقي.

أيضاً كان بارعا بخياطة قمتي الأذنين معاً لبعض الوقت لكي تحافظا فيما بعد على وضعهما المنتصب.

واحدٌ من أفراد قبيلته كان قد رافق عقيداً في الجيش الملكي النمساوي، جاء في رحلته الثانية إلى الشرق الأوسط، في بداية القرن

twitter @mjanen٢٣

العشرين جاءت بعثة قصدت المنطقة لشراء الخيول العربية الأصيلة، رافق بعثتهم ليدلّهم على القبائل التي تقتني أفضل الأفراس.

كان قد سبق لذلك العقيد أن جال الباديتين السورية والعراقية في منتصف القرن التاسع عشر، حكى له ذلك الضابط العجوز كيف أن حصاناً عربياً أُخِذ من البادية الشامية اسمه «شاجي» في العام ١٨٣٦ وكان ذلك الحصان بداية لأشهر عملية تنسيل للخيول العربية في أوروبة. حدث ذلك في اسطبلات قصر بابولنا القريبة من بودابست، قابله في وكالة كول للسفريات في بيروت. وفي حديقة رستم باشا تحدثا بتفاصيل الرحلة، بعد إقامة في فندق الشرق لمدة أسبوع انتهت تحضيرات القافلة المرافقة للبعثة. خلال ذلك الأسبوع ألقت الضابطية التركية القبض على «مخيلف» مرتين لأنه كان مسلحاً واضطر العقيد إلى توزيع المجيديات بسخاء للإفراج عنه. حكى «مخيلف» لـ«طراد» يومها عن بيروت وعن جمال أراضيها المدرَّجة ورمانها وبرتقالها ونخيلها وتينها ونسائها. الثلوج التي تغطي قمم الجبال في الطريق إلى دمشق، وكيف استطاع تمييز الصحراء عن بعد في ضهر صوفر.

في دمشق زارو اسطبل أحمد باشا ولم يلمحوا حصاناً يلبي طموحهم، جالوا في البوادي و«مخيلف» لا يكاد ينام لأن العقيد كان

twitter @mjanen٢٣

يحمل معه عشرين ألف «كورونا» ذهبية. وصلوا النجف، وبلغوا أقاصي الفرات، وحصلوا على أروع الخيول الممكنة لتقفيزها على الأناث، «حمدان سميري»، و«صقلاوي جدران»، وخيول من نسل «الهدبان» ومن نسل «المعنقي».

خرج «مخيلف» سعيداً من تلك الرحلة، أعطاه العقيد إضافة إلى أجره عشر قطع ذهبية عن كل حصان وجده له، وحصل على كمية كبيرة من المعلبات والكونياك والشمبانيا وترك له تذكارات متنوعة منها قفازات من الجلد الأسود ومصباح كهربائي ضوؤه أزرق ومنظار يقرب المسافات كما السحر.

كان الضابط ممنوناً لمخيلف الذي استطاع - مثلاً - أن يخبز للقافلة الخبز على نار روث الجمال في الأجواء العاصفة عندما عجز عن ذلك طباخ الرحلة وخدم العقيد، وينقي لهم الماء بحجر الشب.

حين بحث «طراد» عن الأسماء التي ذكرها له يوما «مخيلف» الذي توفي في أواخر الستينات، عرف أن بابولنا تلك أصبحت فندقا يتباهى باسطبلاته، وبذات الوقت منتجعاً يقصده أثرياء العالم وقادة وسياسيون منهم نيكيتا خروتشوف، وحوله افتتحت متاحف للوثائق المتعلقة بتربية الخيول وصور قديمة للخيول الأصيلة التي جلبت من الشرق الأوسط والهيكل العظمي للحصان «أمبريال» أشهر الخيول،

twitter @mjanen٢٣

وخصصت قطعة أرض لدفن الخيول، وتعد بابولنا مركزاً لمؤتمرات عالمية عن الفروسية، ولازالت خيول من نسل الكحيلان والعبيان والصقلاوي تحصد جوائز السباق العالمي السنوي لقفز الخيول قرب بودابست.

احتفظ «طراد» بصورة فوتوغرافية لمخيلف، كان قد التقطها له أحد أفراد البعثة المجريين، الملازم أول هالاتشي مع فرسه «فرحة» التي بادلها بمئة وخمسين قطعة ذهبية وودَّعها في بيروت وهي تبحر مع بقية الخيول في سفينة «الأمفرتيت».

بعد رحلة دامت حوالي الثمانين يوماً خرج الضابط العجوز بآراء حاسمة بشأن البدو الذين كان معجباً بهم وبنفس الوقت متعجباً منهم، قال: «البدوي هوابن الطبيعة العاق» ربما وصل إلى تلك النتيجة وهو يستهجن من مرأى «مخيلف» وهو يثبت بوز بارودته الموسكوفية بين أذني الفرس «فرحة» ويطلق النار على أرنب يقبع عند صخرة قريبة دون أن تتحرك فرحة «قيد أنملة» عندها يقول الضابط بيأس : «كم هو عنيف الحب الذي يميز حياة البدو الصعبة»..

عندما عثر «طراد» على مذكرات ذلك الضابط الذي تقاعد فيما بعد برتبة لواء، قرأ تفاصيل الرحلة دون أن يقرأ شيئاً عن «مخيلف»، لكنه قرأ باستمتاع مذكرات الضابط وهو يسمي أبناء الصحراء

twitter @mjanen٢٣

بالعرق الشهم، «الذين يركبون خيولهم دون لجام، يستعينون باللجام فقط وقت الحرب».. مئات من الخيول التي تفحصَّها لديهم كانت تخفي تحت سروجها ندوب وجروح الحروب والغزوات.

عاد إلى بابولنا وهو يتساءل: «هل تبقى تلك الأرض ملكاً للراحل في الصحراء إلى الأبد»؟!..

صافنات الخيل، صافيات العرق، متأججات النسب، مدائحيات طويلة بدا أحياناً ما يكتبه «طراد» عن الخيول، كتب العديد من النصوص عنها. وفي كل مرة يكتب يفعل ذلك بقلم يتحدر حبره مثل خبب الأفراس التي هي سُحب البدو التي تتحرك تحتهم، يحبونها هادئة لا تصهل، تتقن التواطؤ الذكي مع تحركاتهم في ظلام ليل حرب أو التسلل كمقدمة لعملية غزو كبيرة، تشارك فارسها شجاعته وهو يحدق في وجه القدر الغامض الملامح. تشاركه في عادته بالمشي تحت أضواء كواكب منتصف الليل.

على مضض قد يبيع البدوي واحدة من أفراسه. إنهم يبيعون الأحصنة ويتركون العتاق الأصائل منها لأجل التلقيح، يربون أفراسهم مع أولادهم ومعهم تعدو مثل حياتهم على جناح الريح.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

صقور

«كان الصقر مُدرباً جيداً وأكبر من الباز الجوال، ومدرباً جيداً لأنه بمجرد فقده لطريدته يعود في الحال اذا ما سمع نداء سيده. إنه شيء رائع أن ترى هذه الصقور تجثم زوجياً على كفل فرس سيدها وربما هودج زوجته، وهي تحافظ على توازنها بمد أجنحتها. بينما انهمكت الكلاب السلوقية في عمل دائم تطارد الثعالب والغزلان التي هيجها الصف الطويل من الجمال الذي شغل مساحة واسعة، وتطاول عدة أميال»..

❖ الليدي آن بلنت / في كتابها «قبائل بدو الفرات»
خلال مرافقتها لعرب العنزة وقوم جدعان ابن مهيد في عام ١٨٧٨

منغوليا، البدو لحقوا بالصقور إلى منغوليا. فعلوها في أوائل الثمانينات حين أخفق الكثير منهم بالتحول إلى فلاحين أو حضريين.

حين طرق باب «طراد» في أواخر شهر أيار الصديق القديم «راكان»، لم يصدق «طراد» المشروع الذي يعرضه عليه «راكان»

twitter @mjanen٢٣

قنص الطيور الحرة في منغوليا، عملية تدرُّ ذهباً، حَظر صيد الصقور شمل تركيا وروسيا وايران. في منغوليا يقولون إنها كثيرة كالعصافير والمنغوليون شعب مازال على الفطرة والحكومة لا تعرف شيئا عن هذه التجارة.

فكرة ثاقبة ومجنونة وتساوي الملايين في حال نجحت، استفاقت بداوة «طراد»، أغرته الفكرة، رمى القلم والأوراق وهو يسأل «راكان»:

- «ماذا سأنفعكم؟!.. ليس لدي خبرة حقيقية بأنواع الطيور؟.. ولا أعرف أي من اللغتين الروسية أو المنغولية»..

- «بأسوأ الأحوال تقود سيارة»..

أجابه «راكان» الذي يعرف ولع «طراد» بقيادة الشفروليه على الدروب الترابية وأخبره عن حقيقة أن الطرق المعبدة شبه نادرة في منغوليا.

هكذا تشكل فريق القنص، من «راكان» الذي فشل بإنهاء دراستة للطب في أوكرانيا بسبب غمرة استعجاله على جمع المال، «طراد» و«لورنس» وشاب بدوي آخر بالغ الشجاعة اسمه «فضل» شاركهم مغامرتهم رغم أنه كان أمياً تماماً.

العملية تكلف ما يقرب مليون ليرة سورية، ودخول الأراضي

twitter @mjanen٢٣

المنغولية ثم عبر الحدود الروسية من سيبيريا..

اشتروا سيارتي «نيفا»، الواحدة بحوالي ستة آلاف دولار وانهوا أوراقهم الرسمية، تزودوا بالوقود والمؤونة وانطلقوا متبعين الطرق التي يشير إليها الترجمان الذي قادهم إلى «أرتيفيت» حيث قرية صغيرة، اشتروا منها خمس عشرة حمامة ورافقتهم امرأة عجوز قيل لهم إنها خبيرة بأماكن تواجد الطيور الجارحة.

لم يكن يوماً موفقاً، وقفوا على مشارف سيل جارف يسندون بلور السيارتين بأيديهم حتى لا تحطمها عاصفة من البَرَدْ استمرت لعشر دقائق مضنية. وبعد ساعتين من انتظار هدوء عاصفة مطرية أعقبت عاصفة البرَد، تقدموا صوب سهل يطل عليه جبل مغطى بالأحراش وعبروا نهرا سطحيا خلال عبوره انطفأت السيارتان عدة مرات وحين بلغوا السهل وجدوا أن سماءه مليئة بالعقبان والبياشق وصقور صغيرة الحجم ومن أنواع لا تصطاد حيواناً أكبر من الجربوع.

أعادوا العجوز إلى ديارها، لم يعثروا على الترجمان الذي اختفى مع أجرته التي دفعوها سلفاً. اتجهوا جنوباً وفق إحداثيات أدلت بها العجوز.

تابعوا المسير جنوبا حوالي أربعمئة كيلومتر عبروها على دروب ترابية لم تعرف التعبيد يوماً، وحين لاحظوا أن الأرض بدأت تصبح

twitter @mjanen٢٣

رملية ولم تعد تتقدم سياراتهم أنبأتهم الخريطة بعد أن تفحصوها جيداً أنهم تقريبا قطعوا سبعين كيلومترا من صحراء غوبي.

عادوا باتجاه جنوب شرق.

مروا بمحافظات تعتبر مدناً مجازاً، حيث مجرد تجمع لبضعة بيوت مبعثرة لا توجد فيها بقاليات أو أي من الدكاكين المتواضعة حتى، تربطها شبكة طرقات ترابية، ومروا «بألطاي» مدينة شهيرة باستضافتها السنوية لرالي السيارات الروسية، حيث فيافي واسعة، طافحة بالآفاق، وككل شيء يصمت على شرف الامتداد.

بعد مضي ثمانية أيام على بداية رحلتهم، نفذ منهم الخبز ومرت بقية الأيام يطبخون خلالها البطاطا بالزيت و يأكلونها بالملاعق وذلك مرة كل أربع وعشرين ساعة، ويغلون الشاي و يشربونه على عجل لينطلقوا من جديد متمعنين بالأراضي التي يقطعونها بحثاً عن اليرابيع التي تدل عادة على وجود الطيور الجارحة.

من «ألطاي» أخذوا مترجماً جديداً كان موظفا بالبريد له معارف في كافة أنحاء منغوليا ويعرف الخارطة جيداً، بادلوه العملات، أعطوه الدولار وأ عطاهم «الدوكرك» العملة المنغولية وزودهم بالخبز المقلي بالزيت و«الكوبيس» حليب الخيل، أقلعوا عن فكرة أكل الخروف الذي اشتروه بثلاثين دولاراً عندما رأوا كيف ذبحوه لهم،

twitter @mjanen٢٣

بدايةً بقروه في بطنه وشقوها وصولا إلى القلب ومد أحدهم يده إلى قلب الخروف وقام بلوي القلب حتى فارق الخروف الحياة على مضض، فقط لأجل الفضول تابعوا بعض عمليات الاستفادة من أجزاء الخروف على الطريقة المنغولية، فقد صرفوا الدم بطاسة وعبؤوه بمصران ثم سلقوه، باتوا الليلة في السيارات، وصباحاً اشتروا الحمائم اللازمة لقنص الطيور. على الطريق أوقفتهم شرطة البيئة فتشوا السيارتين وتوقفوا طويلا أمام الشباك التي ثبت فيها الريش. والشباك الغريبة الأخرى التي خلت من الريش، بصعوبة أقنعهم «راكان» أنها شباك لصيد الطيور المائية، نبهوهم إلى أن الصيد يحتاج إلى رخص من العاصمة أولان باتور.

أكملوا طريقهم صوب الشرق نحو سهول شاسعة رهيبة الامتداد، بسمائها حلقت أفخر الطيور الحرة بالعالم. ووجدوا كنزهم الموعود.

سهول شاسعة مثل دثار أزلي، تزينها وديان مثل آثار جراح مندمل، أمداء لا تنتهي، غيوم تلف الدنيا، جوارح تحزُّ الغيم، تحوم فوق مسرح البرية، تطير في حلقوم السماء.

طريقتان لصيد الصقور كان يتقنها معظم أبناء البدو، «الطُرْح» شبكة بالغة الذكاء، كانوا يوظبونها بدقة، تلبّس للحمامة مثل

twitter @mjanen٢٣

الصدرية وتكون خيوط الشرك معقودة على ظهرها بعناية لأنهم يعرفون بأن الصقر يضرب ضحيته في الجو بالظهر.

عادة يتربصون بالصقر عن بعد لا يقل عن خمسمئة متر، يتابعونه بنظرهم وبمعظم الأحيان بالمنظار لا يقتربون منه أكثر من ذلك، تجنباً لانتباهه لهم. يختارون توقيتاً بعينه لرمي الحمامة الملبسة بالشبكة، يتعمدون إثارة الغبار أثناء ذلك ويرمونها من جهة معاكسة لموقعه بحيث لا يبصرها إلا بعد انقشاع الغبرة وتكون بذلك السيارة قد ابتعدت عن المكان الذي راحت تطير به الحمامة ببطء بسبب الشبكة التي تعرقل حركة الجناحين لتبدو عن بعد صيدة سهلة للصقر الذي يطير إليها من فوره، عادة يضربها بكف واحدة لأنه يراها صيداً خفيفاً.. يضربها في الظهر ويعلق الشبك بظفره وتصبح معلقة أسفله بحوالي عشرين سنتيمتراً تتأرجح ويختل توازنه وتضطره للهبوط معها، القناصة عادة يرون كل ذلك بالعين المجردة والمنظار، وينتظرونه حتى يقتلها ويرون أن ريشها بدأ يتطاير، بهدوء وبخطوات بطيئة، يقترب واحد منهم يحاول إمساكه من بين كتفيه ليضبّ جناحيه بهدوء لضمان سلامة ريش القوادم لأن تلفان أحدها يفقده قيمته في السوق، ثمة مثل بدوي يقول: «الحر مايلاوي» أي أن الصقر حين يقع في الأسر لا يفرفر ولا ينتفض يستسلم لآسره مستثمراً كامل كبريائه وكمله يصمت..

twitter @mjanen٢٣

بعد ذلك تأتي مرحلة «البرقع» التي يفترض أن تتم بذات الدراية والدقة دون استثارة الصقر. والقناصون الذين يذهبون بعيداً وراء الطير ويضطرون لتمريره عبر الحدود والمطارات مخبئاً، يلفون الصقر برداء خاص يدعونه «مهاداً».

«النقْل» هو الطريقة الثانية لصيد الصقر. عادة يكون باشق، يعمدون قبل إطلاقه إلى اجراء عملية تخييط مقدار قطبة من كل جفن للباشق بحيث تكاد تنعدم الرؤية السليمة وقبل إطلاقه يربطون برجله شبكة محشوة بريش طائر من الطيور المحببة للصقور مثل الحبارى أو الحجل أو القطا، عادة يقومون برميه وتركه يحوم في الدائرة ذاتها بسبب وضع عينيه المخيطتين تقريبا. يرتفع عاليا دون أن يكون بوسعه التحرك أفقياً كثيراً، يدور بذات المكان مع طيران مرتبك، يقال أن الصقر يمكن أن يرى الباشق مع صيده عن بعد لا يقل عن عشرين كيلومتراً. بعد مدة من تحليق الباشق بتلك الطريقة اذا وجد حرّ في ذلك المحيط فإنه حتما سيراه ويبادر إلى مهاجمته وممارسة القانون الطبيعي الشهير، القوي يهزم الضعيف، ويخلصه قوته، ينقض عليه في الجو مسرعاً ويحاول أخذ الطريدة التي ليست إلا كتلة من الريش ملبسة بشرك خبيث يعلق مخلبه بالشبكة ويختل توازنه ويضطر للهبوط مع الشرك وبعد ذلك يعامل بذات طريقة

twitter @mjanen٢٣

التعامل مع «الطُرْح».

في «بيان تيس» طرحوا عشرة من أروع الطيور الحرة تتميز بكامل المواصفات المطلوبة، عدد ريش القوادم، الرؤوس البيض، العيون مزدانة بالمدمع الأسود، لا تقف إلا على الصخر العالي النظيف المشرئب، ولا تعطي صيدها حتى للعقبان.

باتوا في تلك السهول وصنعوا منامة بدائية للصقور التي اصطادوها والحمائم المتبقية وشربوا الشاي الحلو مع القرنفل وناموا، في الصباح وجدوا أن واحداً من الطيور فك وثاقه وأكل واحدة من الحمامات وطار.

قرروا العودة إلى الحدود الروسية والعبور من حاجز ناءٍ ليتمكنوا من رشوة الضباط دون تعقيدات، في طريق العودة أخبرهم المترجم بأن شرطة البيئة عممت أوصافهم وسيتم احتجاز جوازات سفرهم وأول شيء عليهم فعله هو الحصول على رخصة صيد من أولان باتور، بسرعة تقرر ترك «لورنس» و«طراد» على الطريق العام لينتظروا هناك مع الصقور عودة «راكان» و «فضل» والترجمان مع رخصة الصيد المطلوبة.

في أولان باتور علموا أن كلفة الرخصة المذكورة لا تقل عن عشرة آلاف دولار. ونبههم الترجمان أن الحكاية برمتها يمكن أن

twitter @mjanen٢٣

تكون حيلة مشتركة بين أحد أعضاء شرطة البيئة وعصابة تشليح.

عادوا ما أمكنهم صوب المكان الذي تركوا فيه السيارة الأخرى، ولأن طول النهار في منغوليا لا يتجاوز الست ساعات فقد بدأ الليل بالهبوط وقبل منتصف المسافة تلاقوا مع السيارة الأخرى، «لورنس» و«طراد» خبأا الطيور العشرة في خندق قريب من الطريق، تركوها هناك ممهدة ومبرقعة بعد أن شاهدوا شرطة البيئة قادمة من بعيد. فتشوهم وحين لم يعثروا على شيء تركوهم يغادرون.

كانت فكرة «طراد» المغادرة فوراً صوب الحدود الروسية التي لم تكن تبعد أكثر من ثلاثين كيلومتراً، وابرموا اتفاقاً مع الترجمان بالعودة إلى الخندق الذي تركوا فيه الطيور وتأمين عبورها مع أحد الروس العابرين إلى سيبيريا.

اتجهت السيارتين ليلاً صوب الحدود، خلال ذلك تبعتهم سيارة بيضاء مليئة بشبان حليقي الرؤوس، تمعنوا جيدا بركاب السيارتين، تجاوزتهم اللادا البيضاء بسرعة. خمن «راكان» أن الشبان ليسوا إلا أفراد عصابة روسية قد يكونون عصابة موت أكثر منها عصابة تشليح. أوقفوا السيارتين تحادثوا بسرعة وأطفأوا الأضواء تماماً، غادروا الطريق العام ومارسوا خبرتهم الطويلة مع شق دروب البادية في فيافي الشمبل.

twitter @mjanen٢٣

كان الطريق يقود إلى جسر يعقبه جبل عالٍ مغطى بالأحراش، أماكن مثالية للكمائن وأيضا للاختباء. انحرفوا بعيداً عن الطريق واتجهوا صوب الجسر، خلال ذلك تأكدت لهم شكوكهم، عادت اللادا صوبهم بغاية سد الطريق عليهم وإيقافهم لكن ركابها لم يروا السيارتين في العتمة وتجاوزتهم بأمان تام. عبروا الجسر وبدؤوا رحلة صعود مضنية للجبل.

ساعدهم ضوء شاحب للقمر وترجل «راكان» مع «طراد» ومشياً على الأقدام استكشفا المنعطفات والدرب الضيق أمامها ليرشدا السيارتين إلى الاتجاهات السليمة واختارا بقعة آمنة بين الأحراش على مكان من السفح يشرف على السهل وراحوا يراقبون اللادا وهي تجول السهل طولاً وعرضاً بحثا عنهم.

ظلّت كذلك إلى ما بعد الثالثة بعد منتصف الليل وصباحاً قضموا الخبز المنغولي مع الشاي وعادوا للانطلاق صوب الحدود الروسية. لمدة ستة ساعات راقبوا الروس وهم يفككون السيارتين بحثا عن المخدرات.

باتوا الليلة التالية قرب النقطة الحدودية وصباحاً وافاهم الترجمان ليخبرهم بأنه عثر فقط على خمسة صقور ممهدة ومبرقعة وميتة سلمهم البراقع والمهد وودعهم ناصحا ألا يعودوا إلى الصيد دون

twitter @mjanen٢٣

رخصة وأن يستبدلوا سياراتهم الصغيرة بسيارة زيل.

❖ ❖ ❖

الصقور لا تقرأ الصحف..

لا أدوار تمثلها، ولا إيعازات تحاصرها..

وليس لها أجندات ولا دفتر ملاحظات..

الصقور تلوح، تنوف، أنيقة كالعادة، طاغية السماء كرمح طليق، تشق قدرها حيث تتفرع كل الطرق صوب الشمس.

مسار تحليقها لن يتقاطع يوماً مع نسيج عنكبوت أو قمة ناطحة سحاب، والصقور تحب أن تحمل الأسماء. وإن لم تدعوها بأسمائها لن تستجيب لك. ولا تقبَل أن ينساها أحد وإن لم ترافق صاحبها فإنها لن تألفه، تنساه ولا تعود إليه حين يطلقها لتصيد له، تهجره دون أن تلتفت إلى الوراء.

الصقر كائن له شخصية، أنيقاً في علوه، أرستقراطياً في تكبره على جرحه، كائن يعرف أنه مجروح بحريته، مأسور، مثقوب القلب، لا يشفى من حنينه لظله العالي البعيد، كآبته الجميلة تأتي من أنه لا عرافاً يقرأ له كفه أو يضرب الرمل بالودع ليخدعه بأحلام تتحقق كذباً، يرى «الحبارى» هوى عابراً، نزوة، غضباً، حنقاً، كائن

twitter @mjanen٢٣

متفوق في عزة نفسه، كلما حلق كلما ازداد فتنة في ذلك المقام الحزين.

عاد «طراد» إلى باب توما، استأنف مرافقة أقلامه وأوراقه وذاكرته محملة بصور لا تنسى، سهوب مرعبة الاتساع، آلاف من قطعان الأغنام والخيول والماعز، أيائل وبقر مغطى بالصوف وجمال بسنامين رآها قبيحة مقارنة مع جمال العرب.

قنص ذاكرة باللغة المنغولية وقليلاً بالروسية يجففها ويقضمها حتى ذلك اليوم الذي فاجأته فيه رصاصة، للأبد امتلأت سماء ذاكرته بالعقبان السوداء والصقور والحمائم..

ومن اللغة المنغولية احتفظت ذاكرته دائما بعبارة: «سان بانو» السلام عليكم، و«زام خاشا» أين الطريق، «وصول»، ماء، «خنشر»، صقر.

كل الطيور كانت تحلق في دماغه: الذي يدعونه «أشقر» لونه بني مشرب بالحمرة وعلى ذيله نقط بيض، والذي يسمونه «أدبس» البني الغامق. والكثير من إناث الصقور التي يسميها البدو «شيهانة».. وظلت عالقة في ذاكرته نظرة الصقر عن قرب حين يخلع عن رأسه البرقع كيف ينظر إلى عينيك مباشرة يتحرّاك ويتملى أعماق عينيك يستقرؤك ويستنتجك..

twitter @mjanen٢٣

عاد إلى صحيفته يشرب القهوة مع زملائه الذين كلهم تقريباً لم يعرفوا في حياتهم أكثر من المدرسة والحلاق والبقال والفرن والحديقة..

بعد عودته من منغوليا اكتسب شجاعة في التعامل مع مسودات أعماله دون أدنى تردد، أصبح يلقي ما لا يعجبه في القمامة، يشطب بسرعة، يمزق، سابقاً كان يحتفظ بتلك الأوراق بدل تمزيقها، عيوبه أصبحت أكثر جلاءً.

بالمليمتر يتفحص سطوره وأوراقه، يسحب بطله المختبئ في معاقل العتمة ويكشفه ويعريه.. ثم يزوده باللحم والشحم والعرق والغبار.

دائما يذهب إلى هناك، صحرائه جسد وطنه الشاسع المترامي الأطراف، يرفض جواده الخطو على الورق دون أن يشم رائحة البارود مع الغبار.

كان ذلك مقدمة لـ«طراد» الروائي الموهوب الذي يكتب الرواية وينهيها كطلقة نارية.

❖ ❖ ❖

عيناه ترمشان ذاك الخبيث، سراب، يبزغ مقطوع الأنفاس مثل ثعلب سلاحه الزوغان والتواري. يمضغ طرف الأفق ويقفل مدبراً نحوك

twitter @mjanen٢٣

ببراءة خالصة، بينما تعاود ساعة الزمن دقاتها «الروتينية»، كان الوقت «يتك» حول «طراد» ويوبخه.

خلال ثماني سنوات مرت عقب تخرجهما من الكلية رآها مرات قليلة، فور انتهائه من الخدمة العسكرية انخرط في ورشة الدهانين الذين أعادوا طلاء جدران فيلتها الكائنة في المزة. حين تمر مرورها العابر دون أن يخطر لها أدنى التفاتة أو نظرة إلى الأعلى يكون هو متربصا بتلك اللحظة، في ذلك العالم الحضري لا سند له غير حضورها الفريد في محيطه.

بعد ذلك بسنتين تقريباً رآها مصادفة. كان يشارك في مهرجان شعري بالاسكندرية وكانت إقامته في منتجع شهير على الشاطئ، في التاسعة صباحاً أخذ كرسيه في مقهى الفندق الذي ينزل فيه الشعراء المشاركون، كان المقهى شبه خالٍ يجاوره ممر يعبره من يقصد البحر للسباحة. مع فنجان قهوته سمع وقع أقدام ظبي بمحاذاته، عبر التفاتة عفوية، رآها، مفاجأة صلبته، مرت قربه تركض مع طفلها ذي الست سنوات. كانا يركضان، يتبادلان الضحك، ترتدي البكيني. لم تره مطلقاً - أو هكذا ظن - مشغولة بضحكة ابنها المتحمس للعب مع أمه التي جارت خطاه الراكضة الطفولية، تعقبّها إلى الشاطئ، وعلى كرسي تحت مظلة قريبة من المكان الذي نزلت فيه مع ولدها راقبها

twitter @mjanen٢٣

لساعتين وهي تعلّم ابنها السباحة، تقبله، تمجه، تمازحه، ترشقه بالماء. وأشعل السيجارة الأخيرة من علبة الجيتان التي أتى عليها وهو يراقبها إلى أن مرت من قربه خارجة من البحر مع ابنها المرهق من دروس أمه، وقتها انتبه لأول مرة أنه بدوي لا يجيد السباحة.

وفي أمسية خريفية بعد عامين كان مسرعاً يقطع شارعاً مزدحماً، التقت نظراتهما خلال لحظة عفوية محض عابرة، كانت ترتدي ثوباً من الموسلين الأخضر و تمشي ذات مشيتها قبل سنوات، تتمختر، طَرقات كعبي حذائها المدبب تتناغم مع الاهتزاز الأنيق لردفيها. حين مرت إلى جواره كانت قد أزاحت عنه عينيها وحاذاه كل ذلك الألق المرّ وانهمك هو بتطريز نهاراته متململاً من قدره الفولاذي.

ثمة لقاءات، مصادفات، لا نرى الآخرين فيها، إنما نلمحهم، وقتها كان يحاسب التاكسي، وبين نظرة وأخرى لمحها، اختفت ضاعت مرة أخرى، فرّت، عبرت كل السياجات والشباك والفخاخ والخطط التي تكتكها لتلقفها في حال رآها في لحظة عابرة خبيثة.

يحيطها بكل الأسوار الممكنة ويشاطرها قلبه لكنها مرت كطير جارح.

النساء في المدن جميعهن حمائم أو عصفورات أو قطط لكن أن

twitter @mjanen٢٣

تلمح فجأة طيراً جارحاً حتما ستكون هي.

يومها خرج من التاكسي وشمَّ كل الجهات الممكنة والمحتملة لعل رائحتها الحرة تمر طوعاً عبر أنفه.

هو الذي يحفظ عنوان بيتها بكامل حذافيره، ولأنه عاشق تجنب المرور من هناك، كان يصيبه الرعب حين تأخذه مصادفة قسرية، كان مثل أي عاشق مزمن، يتهيب لقاء من يحب ويتهيب المرور في أمكنته، ويعزيه أن بعض أكاذيب السراب كانت جاهزة كالساحرات الطيبات لترسم له آمالاً شاسعة.

يكتب عنها ويدس بين أوراقه غضبه المتنكر بهيئة شعر: «أيتها الهرة، أيتها النمرة، أيتها الجنة، من أين أتيت؟!.. من صوب الدهشة؟!.. أم تراك جئت من صوب الحيرة لتزيدي حيرتي حيرة»؟!..

❖ ❖ ❖

«بدوي الصحراء كان مميزا عن غيره بعمامة مخططة فوق رأسه، وعليها جديلة مرنة...كان متوحشا، طليقا، وذا نظرة مستعرة خاطفة، وطلعة متوفزة قلقة. لقد بدا وكأنه ملك الخلائق»..

❖ الرحالة وليام هود في نوفمبر ١٨١٦

twitter @mjanen٢٣

ما إن يطأ أرض ضيعته حيث أصبحت العائلة شبه مستقرة هناك، حتى يعود إلى ذلك البدوي الذي يرتدي جلابية بيضاء و شماخاً مثبتاً بعقال المرعز الأسود، يلف السجائر لجده.

منذ زمن كف عن المكوث في قصر أبيه الذي شيده على طريقة البدو. حيث انتشرت في المنطقة قصور بناها البدو، نوافذها خالية من الدرفات، كل القصور التي بناها البدو عقب نهضتهم الاقتصادية بسبب العمل في دول البترول، بدت أبنية خلبية غريبة، فقد أرادوها قصوراً وبذات الوقت مفتوحة مثل خيامهم السالفة.

نوافذ بيوتهم الاسمنتية و قصورهم الحجرية لا تكاد تغلق تقريباً إلا خلال شهرين في الشتاء، وفي باقي أيام السنة تظل مفتوحة على مصاريعها. إلى حدٍّ أن معظم نوافذهم اختفت درفاتها، وفي الربيع ستذهلك قصور يعشش فيها السنونو.

الطيور التي يسميها البدو «الخشاف» تبني أعشاشها الطينية بحرية مطلقة وفي الركن الذي تختاره السيدة سنونوة، وسرعان ما تنصب الخيام إلى جوار تلك القصور ليقضي الرجال أغلب أوقاتهم، لازالوا ينصبون الخيام لخاطر ذاكرة ملحّة.

إضافة إلى قطعان الماشية التي يملكونها، أصبحوا يعيشون من المحاصيل الزراعية وظلوا يطلقون على أنفسهم اسم «عرب»، ربما حتى

twitter @mjanen٢٣

يتفادوا نعت فلاحين أو حضريين.

القرن العشرون نجح بتوطينهم عقب محاولات سابقة أفشلها عشقهم لحريتهم ولحياة الترحال، عملية سعت إليها الامبراطورية العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر حين عمدت إلى القضاء على إمارات البدو ومن ثم توطينهم لأجل بسط نفوذها عليهم لاتقاء شرهم وتحييدهم على الأقل.

حين عمد رسلان باشا إلى بناء القرى على ضفاف الفرات لعلها تغريهم بالاستقرار، سرعان ما فشلت العملية، وخلفوا وراءهم تلك القرى، خرائب مهجورة.

وفي عام ١٨٩٢ أنشأ السلطان عبد الحميد في اصطمبول مدرسة فريدة من نوعها، مدرسة «عشيرة مكتبي»، أراد من ورائها تعليم أبناء الشيوخ والأمراء والأعيان من البدو وحدهم، وقد ضمت تلك المدرسة في سنتها الأولى عقب تشييدها واحدا وستين طالباً. من بينهم جدّ «طراد» دَنْدل الذي مازالت صورته بالزي الأخضر الضيق معلقة في مضافة النوري.

كانت تلك المدرسة تتحمل كل مصاريف الطلبة بما في ذلك مصاريف العودة إلى مواطنهم في العطل وخصصت وحدة عسكرية لمرافقتهم حتى أن حمّالة «تخت روان» تجرها البغال ترافقهم تحسباً

twitter @mjanen٢٣

لمرض أي من الطلبة خلال الطريق. وفيها درسوا اللغة التركية والجغرافيا وعلوم الحساب والدين وتاريخ الامبراطورية العثمانية.

لو أن تلك الحيلة اتبعت مع جماعة غير البدو كانت لتكون غاية في الذكاء إلا أن كل الضباط الذين تخرجوا من تلك المدرسة برتب عالية سرعان ما التحقوا بجيش الأمير فيصل في حربه الشهيرة لإخراج العثمانيين من البلاد؟!..

أحد المستشرقين الألمان الذي زار تلك المدرسة في بداية تأسيسها أكد في كتاب له عن البدو أن تلك البدلات العسكرية التي كان يرتديها أولئك الصبيان لم تغير في ملامح وجوههم، وحكى عن ذلك البريق الذي يتلألأ في عيونهم، بريق عيون اعتادت الضوء والحرية.

ظلَّ «طراد» مولعاً باختلاس أوقات رائقة حميمة في قباب الطين المخروطية التي هجرها أصحابها بعد أن امتلأت جيوبهم. فحوَّلوها إلى مخازن لأعلاف ماشيتهم وأماكن ممتازة لحفظ مؤونتهم بسبب ذكاء الطين بالمحافظة على درجة حرارة متوازنة لا تتسبب باتلاف السمن المخزن بالعنابر الذي يمتنعون عن بيعه في الربيع ويخرجونه في أوائل الخريف لضمان أسعار مضاعفة.

كان «طراد» يعشق تلك القباب المصغرة التي يسمي البدو الواحدة منها «شونة». سابقاً بنوها في بداية استقرارهم الفصلي

twitter @mjanen٢٣

للاستفادة منها كمطابخ وحمامات وبيوت للدجاج وأماكن شتوية لخبز الخبز، حيث تتناثر تلك الشوَن الطينية الصغيرة الحجم قياساً بالقباب الكبيرة المخصصة للسكن.

لطالما لاذَ بشونة لإيواء نعجة بحال المخاض حتى لا يموت الوليد بسبب البرد، يفرش أرضها مسبقاً بالتبن ويهيئها تحسبا لحالة ولادة مستعجلة بين الماشية.

كان «طراد» يقضي اجازاته متفادياً أباه قدر ما يتاح له. يقضي أيامه منعزلاً في واحدة من تلك القباب، ويستمتع بالاستحمام الطويل فيها منتشيا بالعزلة النادرة التي يمكن أن يلفقها بناء من الطين في عمق بادية نائية. رائحة صابون حلب مختلطة بأرضية القبة الترابية متحالفة مع معجون الحلاقة، رائحة أثيرة.

وليتجنب أباه أكثر أصبح يؤخر إجازاته ليقضيها في الفترة التي يغادر فيها أبوه في رحلته السنوية إلى «القنيص» بعد أن تقاعد عملياً عن قنص الطيور الجارحة وأصبح يرافق الصيادين في رحلات القنص الطويلة كخبير طيور. يكفي أن يراقب تحليق طير في الجو، يخمن نوعه وسعره المحتمل. وابتكر طريقة تهريب أذهلت السلطات الروسية، حينما فتحوا حقيبة «سمسونايت» عادية يمكن لأي مسافر أن يحملها، عثروا على أربعة صقور بكامل صحتها؟!..

twitter @mjanen٢٣

وحده كان قادراً على مناورة أي ضابط في أي مطار في قارة آسيا، وإقناعه بتمرير تلك الصقور، ويعرف كيف يدسّ الرشاوي التي تساعد الفريق على تمرير أندر الطيور التي تباع في مطارات الخليج، بعد أن تجاوز البدو ذلك السوق العتيق في الشام الذي ضم سماسرة طيور دمشقيين امتلأت جيوبهم بفضل سمسرة بيع الصقور لأمراء النفط لأكثر من عشرين عاما، قبل أن يكتشف البدو الجدد طرقهم الخاصة في تصريف بضاعتهم الجارحة تلك بحيل تفوق حيل التاجر الشامي.

❖ ❖ ❖

في المدينة يمكن للرجل أن يشبّه أنثاه بالفراشة، لكن في الصحراء لا يمكن ذلك، الفراشة لها عادة الموت على حافة الضوء.

أيضاً يمكن في المدن للنساء أن يشبهن النرجس والنرجس لا ينبت في الصحراء. والبدو لا يعرفون الياسمين ولا يحتاجون إلى خدمات الياسمينة و هي تتقن التعريش على الزواريب والأركان الظليلة لتخبئ عاشقين، هناك القمر وحده يغدو المجرم الجميل الذي يمكن أن يشكل احتمال وشاية مفاجأة تكشف أمر اثنين، لهذا عشاق البدو لا يتواعدون في ليلة مقمرة.

twitter @mjanen٢٣

القرنفل هو الوردة التي يعرفها البدو عز المعرفة، فقد وصلتهم منذ دهور عتيقة عبر القوافل القادمة من الهند المحملة بعقود القرنفل المجفف، تصنع منه البدوية عقداً على مقاس جيدها تماما. و لا تخلعه قبل مرور عام أو أكثر لتستبدله بعقد آخر، لأنها تعرف مقدار أهمية هذا العقد الذي تتجدد رائحته كلما بللته الماء. لهذا تفوح عادة رائحته عقب الاستحمام وفي حالات التعرق.

هناك تغدو المرأة نبتة شيح، أشواك كثيرة وزهرة صغيرة منمنمة تبزغ بحذر شديد، تصبر على الفقر وصعوبة العيش والجوع لكن لا تصبر على الضيم، ولا تقبل تسوية تتعلق بكرامتها، أنفها فقط يهمها أن يظل ناهضاً.

لهذا لم ينس قط أول جثة وقعت عليها عيناه، حين نهض في صباح شتوي مبكر في أول عهده بالتدخين يرافق الرعيان إلى المراعي ليدخن سجائر الصباح الأولى بعد أن يبلّ ريقه بحليب النوق.. على بعد أميال قليلة من الضيعة كانت بقايا جثة امرأة شابة بالكاد ظلّ رأسها المدمى معلقا ببقية أشلاء كانت جسدها، البطن نهشت تماما، والأرجل اختفت، فقط جدائلها السوداء الثخينة ظلت سليمة.

رغم ذلك التشويه الذي مارسه الضبع أثناء أكله لضحيته، إلا أن «طراد» تعرّف على ابنة عمه التي تكبره بعشر سنوات. طالما رافقها في

twitter @mjanen٢٣

رحلات طويلة للبحث عن الفطر والكمأ.

كانت أبرع فتيات القبيلة بغناء «الهجيني».. وحين عشقت شاباً ليس من أبناء قبيلتها وافقوا على تزويجها له دون تعقيدات لخاطر محبة الجميع لها.. ولأن الحب هو ذاته في كل مكان وزمان، إفراط في العمى. لم تكن علاقتها بزوجها على ما يرام، وعقب شجار أذلَّها فيه خرجت ليلاً قاصدة ديرتها غير عابئة بمخاطر المشي راجلة، وعلى مشارف الضيعة لقيت ضبعاً جوَّعه الشتاء.

الذاكرة البدوية حافلة بقصص النساء اللواتي أكلتهن الوحوش بسبب نوبة كبرياء، إثر مشادة مع الزوج، يأنفن النوم لليلة واحدة على ضيم وذل وتكون النتيجة موتاً بين براثن البرية.

يذكرهن حين كانت البدويات لا يزلن يرتدين الثياب التقليدية قبل أن تجتاح موجة التحضر في اللباس كل البوادي والأرياف لتكون النتيجة مزيجاً هجيناً من الأزياء، قبيحاً ولا يمت بصلة للماضي الأنيق، عقد الثمانينات سجَّل أواخر ملامح اللباس البدوي التقليدي حيث كان يمكن أن تشاهد لباسهن الطويل والحرير الارجواني الشهير الذي يخالطه السواد، يؤطرن فيه روؤسهن يأخذ شكل القلنسوة المخروطية، مضفياً ملمح التاج على الرأس و يمكن أن تشم رائحة تلك المستحضرات التجميلية الخاصة بهن، القرنفل والخضيرة

twitter @mjanen٢٣

والمحلب و المسك حيث وحدهن كنَّ يمتلكن أسرار تلك الخلطات.

❖ ❖ ❖

لم يغير شيء من حبه للشفروليه العنجهية رغم أنف الشرق الأوسط المولع بالمرسيدس إلى حد أن أديباً فرنسياً حين زار لبنان في الثمانينات وصفها قائلاً : «بنايات نصف مهدمة وأكبر نسبة سيارات من المرسيدس في العالم» فقط كان عليه أن يكمل جولته في دول المنطقة ليعرف كم أهلها مولعون بالسيدة مرسيدس.

أقاربه البدو خانوا الشفروليه بعد تعبيد الطرقات في المنطقة، وبعد أن عملوا في بلاد النفط وامتلأت جيوبهم غدروا محبوبتهم الشفروليه واستبدلوها بالمرسيدس، بدلوا غرامهم وهم الذين ألهموا يوماً ذلك الذي غنى: «يا أهل الشَفَر دوسوا و سلموا ع الغالي».

«طراد» كان يدرك أن المسألة ليست خيانة أو غدر إنما مسألة تطور، ألم يستبدلوا خيولهم في مطلع العشرينات بسيارات الجيب ولّسْ والدودج والفورد.. كل تلك السيارات التي تقدر على ملاعبة الطرقات وحرفها عن مسارها أو قادرة على صنع الانعطافات التي تهوى ببراعة تقارب براعة الخيول التي رافقتهم دهوراً طويلة.

ربما بسبب الذاكرة اشترى سيارة أبيه من أشقائه الذين رأوا

twitter @mjanen٢٣

فيها سيارة «كهلة» تصرف الكثير من البنزين.

دفع لهم ثمنها الذي لم يكن مبلغاً عالياً مقارنة بأنواع السيارات الأخرى وركنها قريبا من بيت جده «دنْدل» الحجري القديم الذي قايضه من أخواله مقابل أرض خصبة.

❖ ❖ ❖

«فكرى» ترسل له المزيد من الهدايا، عطور، شوكولا، ربطات عنق من أشهر الماركات الأوروبية، وأحذية من جلود التماسيح، شفرات حلاقة، صوابين للحمام، ودعوات بالجملة لموافاتها في الخارج، و كل ما كانت تعثر عليه من كتب عن العرب، كمية هائلة أصبحت بين يديه من الأوراق امتلأت بالكلام عن الشرق العربي والصحراوي تحديداً، ستون ألف كتاب ما بين عامي ١٨٠٠ و ١٩٥٠ عن الشرق، وبالمقابل فإن عدد الكتب التي كتبها أبناء الشرق عن الغرب لا يمكن مقابلته قط بهذا الرقم.

عرف «طراد» كيف غدت أرض العرب رملاً قسمته يد الغرب وبعيداً عن رومانسية الأفق الموشى بمخمل السراب وحيث الأفق مفتوح لهوى الرياح فهم التاريخ أو هكذا ظنّ. أيضاً وصلته كمية كبيرة من الكتب عن الشرق أرسلها إليه «لورنس» الذي استقر به المطاف في

twitter @mjanen٢٣

ولاية ميامي الأمريكية، يدير مزرعة كبيرة لتربية الخيول وتهجينها يملكها أحد الأمراء العرب. ومؤلفات من روسيا يتذكره بها «راكان» الذي ظل مواظباً على قنص الطيور الحرة في آسيا، يسافر سنوياً برفقة شيوخ الخليج يعمل معهم بخبرته وقدرته على تحديد مواقع الطيور الحرة وعلى تمييز أنواعها وتحديدها عبر المنظار .

لم يكن «طراد» مُهندساً إلا للالتصاق بوطنه، هكذا يفكر وهو يقرأ قصاصات الأوراق الكثيرة التي كانت «فكرى» تتعمد دسَّها بين طيات الكتب التي ترسلها له: «اصح، وتعال أيها البدوي الأخير». أو أن تكتب له عبارات مختلسة من ذاكرتها لن يفهمها إلا بدوي مثل: «حيّاك، أخو بتله ذيب الخلا». كلمات مجتزأة من قصيدة قالها شخص كان اسمه «شلاش» قبل حوالي مئة وخمسين سنة، استطاع أن ينجو مع رفاق له من البدو من معتقل جزيرة «إلبيا» في بحر ايجه بعد اعتقال دام عدة أعوام.

خلال تلك السنوات عاش الكثير من الصمت وقرأ المزيد من الكتب تدثر بأحلامه و آماله الكثيرة.

ظلَّ يذكر كيف أنه قبل عدة سنوات، عندما انتهت «عسكريته» وعاد إلى منزله المستأجر في باب توما، بعد أقل من شهر تدبر أمر انخراطه في ورشة الدهانين.. كان مشتاقاً إلى سكرى

twitter @mjanen٢٣

بسذاجة غرّ مع كثير من الألم الصريح، استطاع فقط اقتناص نظرتها المتغلغلة في الأشياء.

رآها، ودّ لو شربها، وفي أعلى السلم فيما كان يطلي شرفتها فهم أن الحياة مازالت تضع في وجهه المزيد من الرفض المهذب. أقنع نفسه أن هذا العند القدري ليس إلا رفضاً مؤقتاً، وحين قرر إرسال تلك المجموعة الحريرية من الثياب الداخلية النسائية التي جلبتها يوماً جدته «شمس» من بيروت كهدية زواج من السيد «جرجس» وزوجه، وحدث أن احتفظت «شمس» بالمجموعة لـ«سكرى» التي هربت مع البيك وخلفت كل شيء وراءها وانتهى الطقم الحريري بين أغراض «منوى» التي لم تستخدمه قط، واحتفظ به «طراد» طويلاً قبل أن يقرر مَنْ ستكون صاحبته.

أرفقه مع علبة من السجائر «النسائية» الفاخرة المنكهة بالعسل، جلبها معه من كوبا خلال رحلة قام بها إلى هناك حين تلقى دعوة لحضور مهرجان أدبي. أرفقها برسالة مختصرة: «لكِ» وبتردد كبير دوّن عنوانه و رقم هاتفه أسفل الورقة.

❖ ❖ ❖

«لقد خان العرب حلماً إنجليزياً جوهرياً حول ما ينبغي أن

twitter @mjanen٢٣

يكونوا عليه. تعلمنا أن نحبهم على أنهم، بشكل بطولي، بسطاء وفقراء، أما الآن، مع شركات استثمارهم المتعددة الجنسيات، ورجال أعمالهم المسافرين على طائرات الكونكورد، وبيوتهم الريفية الإنجليزية، وكاميراتهم ومعداتهم الصوتية العالية الجودة، وسياراتهم الباهظة الثمن، فإنهم قذفوا أوهامنا العاطفية في وجوهنا».

❖ ولفرد تيسغر

يلقي نظرة صوب الجدار.

الجدران تفعلها حين تحتال على عريها الأزلي وبطيب خاطر تحتملنا ونحن ندوسها بمسمار ونعلق عليها بوسترات لذاكرتنا.

على جدارن الغرفة الواسعة التي يفضلها على بقية أرجاء المنزل استثمر الجدار المقابل للمنضدة التي ينجز عليها كل كتاباته وعلق بندقية «موزر» ألمانية، ظلت كشيء خلّفه الألمان يوم قدموا آلافاً من البنادق الموزر في الحرب العالمية إلى العشائر العربية التي كانت تحت الحكم التركي.. سرعان ما أشهروها في وجه الأتراك أو استعملوها لتصفية قضاياهم الثأرية أو تعاملوا مع الفائض كبضاعة مهربة.

بمقابل بندقية الموزر تسمرت حليفتها البارودة التركية. وعلى

twitter @mjanen٢٣

الجدار المقابل بندقية مصنوعة في بوشهر.

في أحد أدراجه احتفظ بذخيرة متنوعة، خرطوشات تحمل تواريخاً متنوعة، فقط لأجل الذاكرة.

ثم يعاود الشرود مع أوراقه.

ليست كل الأوراق سواء.

ليست كل الأوراق تملأ بوقت واحد. هنالك دائما بضعة أوراق يقفز عنها، يتركها فارغة إلى وقت محدد. يتعامل مع الورق مثل بدوي يقصد الغزو ويصطحب معه حصانه الأثير ممسكاً بعنانه دون أن يمتطيه، يركب ذلوله حتى بدء الغزو إذ ينتقل إلى متن فرسه.

ثمة أوراق بعد أن ندونها نفضلها بشكل قاطع على أوراقنا الأخرى، حين يفعلها القلم ويشبه الفرس، يخبُّ قليلاً لورقة أو اثنتين وبعدها يحنجل لأربع أو خمس صفحات، عندها يهدب لعدة صفحات أُخرْ وعند السطر المناسب يغير.

دوَّنَ كلمات كثيرة على أوراق بيضاء من وحي اللحظة، اللحظة التي لن ينساها في حياته مطلقاً، حين طرق باب بيته سائق «سكرى» يحمل له شيئاً مغلفاً. كانت بارودة «موزر» ألمانية عتيقة معتنى بها عناية فائقة.

إذن هي تعرفه.

twitter @mjanen٢٣

- «لم أتحسن يوماً لازلت جباناً كما كان أبي مقتنعاً دائماً».

هكذا قال لنفسه وهو يشم الرائحة المعدنية للبارودة، ويفكر كيف أن السراب لم يوزع حصصاً بعدْ من لعبه.

twitter @mjanen٢٣

سكرى . طراد

داخ من فرط عصف تلك اللحظة وهي تخبره عبر الهاتف بأن البارودة التي أرسلتها هي ذاتها البارودة التي أشهرها أبوها «حازم» بيك في وجه ابن عم «سكرى» عندما اختطفها إلى الأبد من قومها. أخبرته بذلك فوراً عقب كلمة «ألو» وسألته عن المجموعة الحريرية، وحين أخبرها، صمتت قليلاً كأنها تغالب دموعاً عنيدة ابتلعت ريقها وضربت له موعداً.

رومانسية، حلم، غموض، إبهام، صدى نظرة، إغواء من بعيد، أنثى مسالمة لكن ليست مستسلمة.. برمش عينها تعلن حرباً وبابتسامة تفاوضك على هدنة.. ودٌّ مشفوع بعدائية تتقنها الأنثى الحقيقية.. لأول مرة يميز الجانب الحضري المخلوط ببداوتها وهي تقف قبالته مثل نفاد صبر لا يخفي تخطيطاً مسبقاً لخطوة عتيقة، وقفت أمامه وقالت :

- «هذا كثير علي.. ماذا عنك»؟!..

العار وحده كان الشعور الذي طغى عليه في تلك اللحظة العملاقة الهائلة والهائجة حين جاء العالم كله ليقف أمامه مختالاً بها،

twitter @mjanen٢٣

فيما هي تبدل نسيج القدر وتقترح عليه ما يشبه سفينة إنقاذ قررت أن تمر بمحاذاة ضائع في البحر.

أخيرا فكرت تلك الزهرة بأن تشربك شوارع حياته. قالت له تلك العبارة وكأنها تعلّمه درسها المحفوظ عن ظهر قلب.

أخبرته بأنها تعمدت إعادة طلاء فيلتها ثلاث مرات خلال السنوات الفائتة لعله يندس بين الدهانين كما فعل قبل سنوات.

وأنها قصدت ذات الشاطئ في الاسكندرية بوقت يتزامن مع المهرجان الشعري لتحظى بمصادفة ذلك الجبان الذي يراقبها من بعيد مثل كلب وهناك تقذفه في البحر وتتفرج عليه وهو يتخبط بالماء كهر وقبل أن يغرق بقليل تشفق عليه وتسحبه إلى الشاطئ..

لم يتوقع أنه سيطرب لفم ينعته «جبان وكلب»، مثلما حدث في تلك الأمسية، أنصت إليها بكل حواسه وبكامل قلبه، أنهت حديثها برشقة ماء من كأس كان قد شرب نصفها على طاولته في واحد من مقاهي باب توما حيث اعتاد الجلوس فيه يومياً.

رشقته بالماء، انتقام مخفف جداً من جبنه العتيق. ظل مذهولاً، أيقظته عندما آلمه عقب السيجارة الذي أطفأته على يده الممسكة بالولاعة، اكتفت بالماء والحرق الذي خلفته على ظاهر يده وسط جملة تقول:

- «لا تكن شبه ميت.. اشربني».

ثمة قدر لا تبتره أية قوة، الذي تعزز كرهه للساعات عندما قرأ

twitter @mjanen٢٣

عبارة لشاعر ألماني تقول: «لا تنس أن عدم حملهم ساعة يجعلهم يذهبون دوماً إلى المواعيد المتوقعة كلها»..

حرفياً، كان مذهولاً من الفرح المرّ، الفرح مثل الموت، شهقة أولى وأخيرة..

بالفعل كان أمامها مثل كلب وفي قَلَبَ الدنيا على صاحبه إلى أن وجده بلحظة كاملة البراءة، فرغ العالم من كل الآخرين وظلت هي وحدها العاصفة.

ثلاث ساعات مرّت تحكي له عن نفسها.. كيف كبرت وعاشت كيف اختلطت أوراق قدرها وحرمت من أمها بسبب غيرة نساء عائلة البيك.

دسسن لها السم أثناء ولادتها. امرأة اسمها «معزز» رصدها البخت لتنهي حياة «سكرى» القادمة من أقصى المفاجأة.

ترعرعت مع الشتيمة التي تسمعها من زوجة الأب ومن معظم قريباتها: يا بدوية.

تمردها عليهن وفضولها الكبير صوب البدو وهمجيتهم المفترضة كما صوَّرها أهلها لها.

الأثاث الذي أتلفته بنوبات غضبها، كل اللاءات التي سمعوها منها، قابلوها بتبريرهم المنطقي، بدوية.. وحكت له عن رصاصة

twitter @mjanen٢٣

الغيرة التي كادت تقتلها لولا أنها انحرفت قليلا عن قلبها.

ـ «تزوجني وهو يعرف أنني لن أحبه في يوم»

قالت لـ«طراد» مبررة نفسها ونزواتها الماضية والقادمة، وتأكدت كيف أن الجمال مع الوقت يصير أشد صعوبة.

عن قرب تأكد كم هي متأججة بالرفض والصبر والفولاذ، حكت له كل شيء تقريبا من غير رتوش.

اعترفت بشوقها القابع تحت أضلاعها النائمة لجسد بدوي يعيد تعبيد جسدها المخرب بلمسات رجل تكرهه.

كانت تحفظ معظم عناوين زواياه الصحفية ومقالاته وتحقيقاته وكتبه وأفلامه ومسلسلاته، شتمته كأم ضبطت ولدها المدلل بعملة مشينة.

مع كل كلمة كانت تقولها يتأكد كم هو مربوط بها نهائياً، افترقا بعد أن اتفقا فيما بينهما على جعل الحياة أجمل.

لثم قدره وهو يعرف أن كل ما سيتخطاه قلبه سوف يصير لغماً أزلي التربص بخطاه القادمة، تحت لحاء الوقت سوف تدمي يديه أشواك الانتظار، كل سنينه السابقة كانت توطئة لتلك اللحظة.

اللغة ليست «زبالة» عند بدوي مثل «طراد»، دجنت رفضه بكلمة، كلمة «شرف» كانت كافية لتضمن سرية قصتهما القادمة.

twitter @mjanen٢٣

وضمان كف الأذى المحتمل من زوجها الذي أصبح مريضاً ومقعداً.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

التُرْغُل

حين تطير تبدو كأنها طافية في الهواء.

تركض بالكاد ملامسة الأرض، مستعجلة مثل طفلة ضائعة في غابة يتملكها إحساس بحضور مفترس غائب، مأخوذة بخوفها بين لفتة تفقد وأخرى تلتقط دودة، وتستأنف حذرها واستعجالها، تغريها حشرة وقبل أن تلملم وجبتها بمنقارها الأنيق ويأتي الباشق بالوقت المناسب ليأكلها.

ولتظل بقية الطيور عُمياً خرساً مبهورين، تناولت «سكرى» أكلها وفق منطق البروتوكول الصحراوي، السواعد المشمرة، الأيدي تمزق لحم الضأن وتضغط الرز أو البرغل وتحولها إلى كتلة واحدة والدهن يسيل من السواعد تقلبها كف بدوي تعصرها تكورها ثم تقذفها في الحلق ويأتي دور «الشنينة» شربتها وهي تقول أن طعمها حامضاً وتساءلت مازحة: - «ألا يوجد كوكا كولا»؟!.. وأخذت حمّاماً كاملاً عقب غدائها الذي تناولته بأصابع يديها.

twitter @mjanen٢٣

تذوقت الحياة في عالم بسيط التأثيث.. واعترفت أنها محظوظة لأنها لم تولد في البادية لتعيش حياتها في تلك البيوت المصنوعة من شعر الماعز، وقالت لـ«طراد»:

- «لا يمكنني أن أكون بالفعل بدوية، سأكون كاذبة لو قلت لك أني أشتهي هذه الحياة، إنها المشقة بعينها».

حين أعجبها السراب حكى لها:

- «الأكذوبة لا تمشي، تزحف على وجه الأرض اسمها السراب».

السراب «مفردة» رومانتيكية تبدو للحضري. كلمة قد يطلقها على مطعم أو فرقة غنائية دون أن يحزر أن السراب عملاق أزلي نابض بأعتى الأكاذيب.إنه التحدي الذي يروضك على تذوق الحقيقة، هي وجدت في السراب لحظة نقاء صرف.

في الصباحات الباكرة تسمع قبرة الصحراء الشهيرة التي يسميها بدو ديرة الشمبل «صَعْوَة أو أم قنيبرة».

القبرة لا تغرد، تعزف دو، ره، مي، وتختار قفلة مناوئة، فا، صول، لا، سي.. حين تعبُّ حنجرتها الريح وتبعث بلحنها تصبه بأذنك على شكل نوبات غناء متقطعة، تملأ صباحاتك بمعزوفة منفردة كل أذن تسمعها بطريقتها، حكى لها عن قُبّرة الصحراء. أخبرها أيضاً أن القبرات قبل المطر تصمت.

أخذها إلى هضبة تحوي قرية رومانية داثرة.. أدخلها مدفناً قديماً يحتوي ناووسين متجاورين، ذلك المدفن لم يعثر عليه أحد قط غير

twitter @mjanen٢٣

«طراد»، وحده يعرف مدخله السري.. معه جالت بين بقايا كنيسة أركانها شبه نائمة.. وأخيراً استطاعت أن تسمع صوت طائر القطا الشهير حين حلقت مجموعة منه عددها لا يتجاوز العشرة طيور.

البدو يسمون عزفها «نغيطاً». القطا لا يشدو إنما ينغط معزوفة قصيرة لنحيب صاف، مهما تزامن صوت القطا مع أصوات لطيور أخرى لن تضيعها، ستأتيك مباشرة مثل سهم حزن.. لا يتردد مطلقاً في تشذيب حواف قلبك الخشنة، هناك لا تتبعثر النغمات إنما تطفو وترفرف حتى تبلغ مسامعك.

كلبلابة شقية تتسلق جسد شجرة، تنمو، تحيط بالشجرة، تتعمشق عليها بكل ما أوتيت من حيل الالتفاف والدوران، هكذا كانت «سكرى» مع جسد «طراد».

هو كان بارعاً بالانهمار، كالمطر، بدأت حركاته مثل حبكة رواية مرتبة ومفهومة. وكل أجزاء جسدها التي بلغتها يديه أصبحت أكثر جمالاً.

بفمها تقاوم فمه بلينٍ وخفة، حتى يسلبها منها عنوة. هو الذي تأملها دوماً عن بعد ولا تجرؤ أي امرأة أخرى أن تداخلها، احتوى شفتيها بحقد وحب وجشع. قبلها بكل تلك الشفاه النهمة التي تطرزها أنامل البدويات على وسائد ليلة الدخلة. نتف ريش حزنه الكث، قبّلها حتى النسغ، وجسده ذرف كل توقه وسكبه على جسدها. اتجه مباشرة صوب شغافها الحميمة، أعاد سبك كل حياته في تلك

twitter @mjanen٢٣

اللحظة. تغلغل بها عميقاً واضحاً وقدرياً، قوياً. ذاق طعم فمها، جاله بلسانه كصقر يحوم في سماء لا يعطيها لأحد.

❖ ❖ ❖

- «اسمعي؛ انصتي، سأحكي لكِ حكاية، ذات يوم، قدتُ السيارة وبندقيتي معي إلى ظهر تلك الهضبة وفجأة ظهر غزال أرديته بطلقة واحدة، اقتربت منه ونهض عشرة غزلان منه».

ضحك وهو يقسم:

- «وحق الله».

لكمته، ونعتته بالكاذب، وقبّلته.

ليلة عاصفة مرت عليهما قرب معبد أبولون في «إسرْيَة» عاصمة ديرة الشمبل. فيها حفرت عدة آبار متجاورة اعتادت العشائر «الغنّامة» اعتمادها منهلاً رئيسياً لهم ولقطعانهم لعشرات السنين الفائتة.. وفي تلك البقعة بالذات واجهت القبيلة هجمة من الطائرات الفرنسية، وتفادوا الخسائر التي كانت تنوي الطائرات إلحاقها بهم، عبر الحيلة حين كان جده غائباً وعمدت جدته شمس الذكية إلى حيلتها الواسعة وطلبت من الرعيان بعثرة القطعان وتفريق الجمال والماشية، ومع خدمها المخلصين من العبيد قاموا بتحميل كل بيوت العشيرة الثقيلة المشغولة من شعر المعز، على ظهور الجمال وصاحت بكل أفراد العشيرة بالتفرق والابتعاد عن بعضهم قدر الإمكان، فكانت النتيجة

twitter @mjanen٢٣

مخيبة للطائرات وهي ترمي قنابلها لتصيب جملاً محملا ببضعة قدور للطبخ أو شاة خائفة أو حماراً محملاً بقرِب الماء. وانتهت الهجمة على خير ولم تفقد العشيرة أية روح.

عرج بها على أشهر المواقع التي دارت فيها رحى حرب الموالي والحديديين، عن قرب تعرفت على تفاصيل تلك البيوت المنسوجة من شعر المعز وبفضول طفلة انتظرت هطول المطر لتختبر مناعة هذا الطراز الغريب من المسكن، وهطل المطر ورأت بنفسها كيف أن ذلك البيت لا يسرب نقطة ماء. قالت:

- «معجزة!.. كيف ذلك»؟!..

شرح لها «طراد» أن شعر المعز عندما يبتل يزداد ثقله ويتعزز تشابكه ويصبح غير قابل لتسريب الماء.

وعرفت السر الذي جعل العرب يعشقون هذا البيت لعدة آلاف سنة خلت.. وأن كلمة «خيمة» اصطلاح افرنجي «مفردة» أطلقها الرحالة الأجانب عندما رأوا هذه البيوت لأول مرة، وشرح لها «طراد» أن البيت المتواضع الرث الذي بالكاد يرفعه عمودان جانبيان يدعى «خربوشاً». والذي يرفعه عمود واحد باستثناء العمودين الجانبيين يسمى «قُطْبة»، وذو العمودين يدعى «مقورن»، وإذا رفع البيت بثلاثة أعمدة سموه «مثولثاً»، وإذا رفعته خمسة أعمدة دعوه «مخومس»، هكذا حتى تصل أعمدة بعض بيوت السادة إلى تسعة أعمدة.

خيَّما خلال العشرة الأيام التي قضياها هناك، تفادى «طراد»

twitter @mjanen٢٣

الكلام باللهجة البدوية و أدعى أنهما زوجين صحفيين قصدا المنطقة لإجراء تحقيق صحفي، طبعاً لم يفهم أحد من البدو ماذا تعني كلمة «صحفي» بالضبط، لكنهم مارسوا عاداتهم العتيقة بشأن إكرام الضيف، واستطاعت «سكرى» تذوق معظم النكهات التي تخيلتها، والأهم من كل ذلك أنها تذوقت نكهة روحية وطعماً معنويا فريداً ستحملهما معها حتى آخر يوم في حياتها.

حولهما ترتخي البادية مثل عذراء نائمة، في غفلة منها يشرئب ربيعها، في الليل تهبط النجوم كلها، وتكمم أفواه الأرض ببريقها البعيد الذي يبدو مثل نتوء مضيء خلال أروقة الفضاء.

بعيداً عن ضوء الكهرباء رأت الضوء الذي يبعثه غسق أو شفق، في تلك الليالي عرفت النجوم وأسماءها لأول مرة، دلها على سهيل الذابح.. و لأول مرة تعرف أن أهل البادية يسمون نجمة الزهرة «معشية الرَغّاثة».

في النهار يرطب شفتيها التي قشرهما برد الصبح، وفي الليل يلفها كشرنقة. شوى لها أمعاء خروف لم يدخل جوفه غير حليب أمه وبالرماد الساخن طبخ لها الكمأة و الفطر و البطاطا و البيض.

لأوّل مرة عرفت كيف تكون الرياح في البادية، الرياح تخفق، تصعد، تهبط، تلف، تدور، تقلب، تشقلب، تنحي، إنها الرفش المفضل لشعائر الطقس الصحراوي، تقتلع ظلك وتبعثر الجهات حولك وهي تذرو الرمل وتنزلك بين فكي الحيرة، شمال، جنوب، أو شرق،

twitter @mjanen٢٣

غرب، لا فرق حين يباغتك حلزون غباري رملي، عليك أن تقف حتى تعبرك العاصفة و تبصقك على ناصية الرؤية من جديد و تعود لتحديد اتجاهاتك..

معه تعرفت على «الريح» بطلة الظواهر الجوية في البادية حين تقشر وجه الأرض بأظفارها العنيدة. وعرفت أن الرياح الشرقية الجنوبية تجلب المطر وإذا مالت نحو الشمال الغربي تتبدد الغيوم، ولأول مرة سمعت أسماء الشهور الصحراوية، أدهشوها كيف يقسمون أيامهم.

لا أحد يجرؤ على سب الريح وهم يسمونها مثل خيولهم وصقورهم وكلابهم وربيعهم. الريح الخفيفة «هَبُوب» والقوية «صَلْف»، وتلك التي تنشط في الصيف بانتظام كل يوم عقب الظهر لساعتين فتبرد لهم نهاراتهم يسمونها «بَرَّاد»، وتلك التي تهب في عمق الشتاء تشتت السحاب وتبعثر ماءها تدعى «السَّلاتة» ويحبون في الشتاء ريح «القبلي» تأتيهم محملة بمطر يروي الأرض.

سلكا الطريق الذاهب من تدمر إلى هيت، درب ترابي عفت آثاره بسبب انجراف التربة الرملية ونمو الأشواك. هي ذاتها الطريق التي لمحها أول مرة ضابط فرنسي في آذار عام ١٩٣٠ وهو يحلق في إحدى الطائرات الحربية.

أخذها إلى الرصافة التي يقال إن سميراميس بنتها قبل عدة آلاف سنة خلت، ومشت «سكرى» على أرض يتغلغل فيها سهم التاريخ

twitter @mjanen٢٣

عميقاً وشمس عنيفة يتكسر السراب على وجهها الجريء، أرض مثقلة بالعواطف، كلما اجتاز المرء متراً فيها صعد طابقاً في الحلم، مشحونة بالأمس الصاخب والآن ينتشر الصمت مثل مؤامرة.

هناك اصمتوا؛

لا تنبسوا ببنت شفة؛

التاريخ يرفع كل الأقنعة، سراب، وظباء، وجن، وخرافات، لا تعجّلوا الخطو، من فرط العسل قد تبتلعكم الأرض.

كانت «سكرى» مثل أهم وأجمل عمل أدبي لن يكون بوسعه أن يكتبه، مثل رواية تؤلفها كل الحكايا المدهشة التي فكر فيها يوماً.

معه كانت تبدو «سكرى» طرية وجديدة، شاسعة مثل فسحات هائلة من البياض.

أطلقت كل كلامها المحبوس أيضاً، منحتها البادية شعوراً مليئاً من اللامبالاة وراحة البال. بعينيها تأكل الأراضي الواسعة.

أخذها إلى ضيعته وعرفهم عليها كزوجة. لم تكن مؤهلة للقائهم كقريبة لهم، غافلت الزمن وفرّت منه صوبهم.

لم تجرؤ أن تلقي عليهم التحية وهي تقول لهم إنها ابنة «سكرى»، الذين كان يعنيها أمرهم بحق، ماتوا، جداها وخالتها «منوى». إذن فلتكن الحضرية التي أتى بها «طراد» أخيراً كزوجة، كانوا قد يئسوا من أنه سوف يفعلها يوماً ويتزوج. لعبت الدور بإتقان

twitter @mjanen٢٣

قبلت دعواتهم الكريمة والباذخة وزاد وزنها خمسة كيلوغرامات، أكلت وضحكت كثيراً، قضت سهرات طويلة في المضافة الواسعة المسقوفة بالقرميد. وحملقت طويلاً بالبارودة الفرنسية المعلقة على أحد جدرانها. والكرباج الجلدي الذي تقشر، دهنته بالفازلين وأعادت تعليقه كأيقونة زمن غابر. وكيس تبغ مصنوع من جلد ظبي. سيف دمشقي عتيق كان لجده «دَنْدل»، مقبضه من الفضة المزخرفة بنجوم ونباتات، كانت جدته «شمس» تحب تحريك الرماد برأسه لتعيد إيقادها من جديد. كذلك حذاء من الجلد الأحمر كان لأمه «منوى»، يسميه البدو «زربولاً»، كانوا يشترون مثل تلك الأحذية من حلب، وكل الكتب التي جلبتها يوماً «عنقا - ليز - شمس» من مكتبة بيروت العمومية، عندما خمنت بأن يوماً سيأتي ليكون هناك من يقرأ في عائلتها.

واختلست من «ألبومه» صوراً ضوئية بالأبيض والأسود لنساء بعضهن مُتْنَ وأخريات أصبحن كهلات، بينهن كانت صورة لـ«شمس»، وأخرى لـ«منوى»، صورة لشاب بدوي يافع يرتدي بزة عسكرية في اصطمبول، وصور لأناس حضريين لم تعرفهم قط، كانوا مهمين لها فقط لأن «طراد» عرفهم يوماً وأحبهم. كانت صوراً لعرس مسيحي في دمشق. أناس استأجر «طراد» أول مسكن له في دمشق عندهم. نساء جميلات أنيقات معظمهن يرتدين الميني جوب.

انتقت عملات قديمة متنوعة من علبة فضية كانت مخصصة

twitter @mjanen٢٣

للتتن حوَّلها «طراد» إلى مجمع لعملاته التي عثر عليها في سني طفولته خلال ممارسته لواحدة من هواياته المبكرة: الحملقة بالأرض.

انتقت عملة عليها الاسكندر المقدوني وأخرى نقش عليها سلوقس نيكاتور، وعملتين إسلاميتين، قالت إنها ستعطيها لصائغ ذهب لتحيط بها عنقها.

أيضاً أخذت خرطوشات بارود قديمة، كذلك أعجبها ذلك الكيس الغريب الذي علمت من «طراد» بأن البدويات كن يخزنّ فيه الطحين. كان مشغولاً من الصوف، ومزيناً بالودع والمرايا والكهرمان، قررت أنها تريده بعد أن شمت رائحته. وأعطاها قطعة من حجر أسود لامع مصقولة ومنحوتة على شكل فأس في أعلاها ثقب يدل على أنها كانت يوماً جزءاً من قلادة، قال لها بأنها حجر مسحورة يمكنها أن تكشف الغيب عبر جلب أحلام فيها رؤية، وذلك بعد أن تضعها تحت وسادتها قبل النوم. أعجبتها، وأيضاً رأت أنها تناسب أن تكون جوهرة في عقد أكثر منها حجراً سحرياً.

وأكثر شيء أثار دهشتها كان جلد أسد عمره أكثر من مئة عام كان مصنوعاً للاحتفاظ بالأشياء الثمينة، ولأول مرة كانت تعرف أن لجلد الأسد ميزة ليست بين كل جلود الكائنات قاطبة: جلده لا يصيبه التسوّس.

أخذت صورة عتيقة لخالتها «منوى» عينان عسليتان، أنف برأس مكورة كما لو أنها أنف طفل. تتناقض مع رسمة حاجبيها التي تشبه

twitter @mjanen٢٣

هلالين مقلوبين. الأنف الطفولي يلتحم مع شفتين رقيقتين موضبتين لاقتراف النزوة دون أدنى تردد. جبينها الرحب ومفرق شعرها الدائري جعلها تشبه آفا غاردنر النجمة الهوليودية التي رفضت يوماً أن تنحني للملكة إليزابيث وتبتسم لها منتشية برفض الند للند، وإلى جوارها النوري.. تتهادى على جبينه تقطيبة هادئة تعلو حاجبين كثيفين، سوداوين صقيلين، تقطر من نقطة التقائهما أنف بنهاية حادة متماشية مع حدة ودقة نهاية حاجبيه، تبدو أنفه المحبوكة مع الحاجبين بقطبة مستقيمة «كما لو أنها بورتريه رسم تكعيبي لبيكاسو» تقول «سكرى»، والذقن مربعة مثل صخرة تحمل في ذؤابتها فمٌ بنهايتين تخبئان ثلمتين طبيعيتين محفورتين بعمق يمنح فمه تعبيرا غامضا يشبه مزيجاً من الصرامة والحنان وبعض الشيء من العصبية التي تشي بطبع حازم لا يروقه المزاح. هكذا تشرحه صورته وهو إلى جوار «منوى».

مرت تلك الأيام مثل قبلة طويلة في برارٍ نظيفة منطلقة مشرعة. وسكرى لا تلبث تعيش خوفها من زوج مقعد في الشام حدث وأن أصابها برصاصة غيرة في بداية زواجها عقب انتشار شائعات عن حكاية علاقة غرامية ربطتها بشاب كان ابناً لأحد الوزراء. ماذا كان سيفعل لو رآها وهي تتأبط ذراع «طراد» على أنها زوجته؟!.. «لن يخطئ في التصويب هذه المرة» تقول لنفسها، وحين تتذكر ولدها الذي تجاوز الثانية عشرة يجافيها النوم ويفر من عينيها نهائياً تغادر فراش «طراد» وتنفث المزيد من السجائر.

twitter @mjanen٢٣

التقط لها صوراً بكاميرته الروسية «لايكه»، صوراً بالأبيض والأسود وهي ترتدي عصبة من الحرير الأرجواني المبقع بالأسود، يدعوها فتيات ديرة الشمبل «الطون» وتحت الطون ارتدت «القضاضة» البيضاء. وفي قلبها عاطفة صاخبة مكثفة والوقت يمر زائغاً مع فارق طفيف بينه وبين اللص.

تحت سحب تتحرك أبداً في صفحات السماء المخططة بالسكون، من هناك أخذت «سكرى» معها تلك الأشياء التي لا يبدلها العمر. ومن حولها يمارس السراب لعبته المعتادة، يرسم مدناً غامضة مشتتة في اللاشيء..

❖ ❖ ❖

ممنوحاً، أم مسروقاً، خذ بعينيك ذلك المدى الشفاف وصدِّق السراب حين يقول لك: عندي لك غزالة.

يقرأ «طراد» واحدة من قصاصات «فكرى» المدسوسة بين هداياها الكثيرة: «أنا مثل قنينة في بحر» في اليوم التالي يرسل لها برقية يقول فيها: «كل قنينة تخبئ مارداً». كأنه بذلك يحزر حيلتها باستجداء انشغاله عليها لعله يحزم حقائبه و يحط رحاله عندها، ويحدس أيضاً أنها سراً تحت دثار ذاكرتها تقتات من أرضها البعيدة كقطاة تطلب الماء ولو في الطرف الآخر من العالم.

وفاجأته وهي ترسل له صورة جديدة لها عقب عملية تجميل

twitter @mjanen٢٣

أجْرَتها وقد كتبت على الصورة من الخلف : «أنفي الجديد».

أنفه الأقنى، هل يبتره ويحوله إلى أنف يشبه أنوف من حوله؟!. مرة أخرى يتوقف عند معضلة الأنف، المخلب الجميل الذي يصر على وجوده في وجهه. علامة تاريخ بلا نهاية.

العالم من حوله يوحِّد الأنوف بخيط ومقص وبقطبة وقطبتين تخرج أنفاً جديداً، أنفاً محايداً.

من دون أنفه لن يكون بوسعه أن يعترض الهواء الطلق كما لا يمكن لأي حضري. لا هنوداً لا عرباً لا أفارقة.. فقط جماعات ترتدي الجينز. هكذا مستقبل البشرية؟!.. ظلَّ على قناعته بأن الأنوف تحرك التاريخ، ليتتبع خيط المستقبل المراوغ يعود إلى الماضي، وبأظفار الفضول ينبش أحشاء كتب الرحالة والمستشرقين الذين استثارتهم الصحراء وسكانها.

اندس بين فرنسا وألمانيا وروسيا تلك الدول التي كانت تنافس بريطانيا على مقاليد النفوذ في تلك المنطقة التي تفهم الأساطير باعتبار ردائها موشَّى بذاكرة ألف ليلة وليلة، أناس يركبون الخيول وعباءاتهم مسدلة وفي حياتهم المردة والجن والقدر. بسبب تلك الأفكار بدأت سلسلة رحلات قام بها مغامرون ورومانسيون ليعبروا الصحراء يدفع بعضهم الافتتان بالآثار والثقافة القبلية واللغة، وآخرون تدفعهم الاستخبارات البريطانية.

بعضهم عادوا ليكتبوا ما يشبه بطاقات بريدية عن الصحراء

twitter @mjanen٢٣

والعرب، عمل خيالهم المسبق أكثر من حسهم الواقعي، يريدونها أرضاً منسجمة مع ما تخيلوه.

بعض أولئك كانوا أذكياء حين تنبأوا بحال تلك الأرض لو دخلتها الآلة. فكروا بذلك حين رأوا سكان المدن الذين كانوا قد بدأوا يتأوربون ويتغربنون دون أن يحسنوا ذلك قط.

تمعن بأعمال افتتانية غرائبية تطفو على سطحها الظباء، والقاسم المشترك بين الرحالة جميعاً أنهم استطاعوا مصادقة البدوي ومرافقته عبر الصحراء، استطاعوا الدخول إلى طوية الصياد الذي كانه البدوي، وكتبوا عن ذلك بدقة متناهية.

هكذا يومها شرح «لسكرى» وهي تعدُّ له القهوة في صباح واحدة من تلك الليالي المختلسة من بيتها الزوجي لتقضيها بين ذراعي «طراد»:

- «العقيد جيمس كابار والملازم وليام هود اتفقوا على اعجابهم بما يسمى كلمة شرف عند البدو.. العرب الذين لم تفسدهم اتصالاتهم ولا احتكاكاتهم بالغرب.. داوتي سافر معهم طويلا ووجدهم عنيدين متصلبين متقلبي الأهواء، كرمهم تلقائي، قلوبهم بريئة، صحراؤهم قاحلة لكنها وهبتهم الشعور بالحرية.. كذلك رأوا أن البدوي إنسان خالي البال»..

- «لأن تلك الأشياء التي يملكها البدو قليلة»..

تقول «سكرى» وتملأ له فنجانه و تقسم كعكة بجوز الهند

twitter @mjanen٢٣

صنعتها بنفسها و تلقمه قطع الكعكة بيدها وهي تقول له :

ـ «كلّ ياصقري».

يضحك ويقول لها هازئاً من نفسه:

ـ «وحق الله لم أكن يوماً أشبه الصقور في شيء.. لهذا نصحتني جدتي شمس رحمها الله أن أقصد المدينة»..

يأكل لقمة أخرى ويعض أصابعها، تصرخ:

ـ «أي».

ويتابع :ـ «لم أنجح أن أكون ضباً ولا يربوعاً، ولا عصفوراً، فقط أصبحت مثقفاً».

تضحك وتقول :

ـ «لو يسمعك زملاؤك»..

يباغتها بعضّة أخرى على ساعدها ويقول:

ـ «لم أكن يوماً زميلاً لأحد يا حبي».

تعضّه من شحمة أذنه وتقول له:

ـ «لم أنم الليلة الماضية ياحبي بعد كل كلامك عن ذلك الإنكليزي ولفرد تسيغر الذي حدثتني عنه تسللت من حضنك وقرأت أكثر من خمسين صفحة باللغة الانكليزية، لماذا لم يترجمه أحد بعد إلى العربية»؟!..

تسحب أصابعها من بين شفتيه وتشرب قهوتها وهي تقول:

ـ «كان أصدقهم.. رأى مبكراً الحقيقة القادمة على متون

twitter @mjanen٢٣

السيارات التي ستحل محل الخيول و تدشّن العهد الجديد، بمرسوم حكومي، انسوا تاريخكم وليذهب كل واحد إلى بيته».

يسحبها نحوه ويجلسها فوق ركبتيه ويقول لها وهو يشم عضوها أسفل بطنها:

ـ «سأصبح شامياً لأجلك».

تضربه على يده العابثة تحت ركبتيها وتأتي على آخر ما في فنجانها من قهوة، تقبله على صدغه وهي تقول:

ـ «لكن طراداً يظل طراداً».

يعترض مازحاً:

ـ «ما أدراكِ؟!.. يابدوية».

تغادره عجلى وتتركه بين أوراقه.

كلما قرأ أكثر وتثقف أكثر تأكد أن الحاضر أعمى بدون الماضي، حين تشتغل مهاميز الحزن النزقة، يكتب..

أصر على اقتفاء أثر الماضي. أخذ معه كلبته السلوقية وتربص أمام جحر يلوذ فيه ثعلب التاريخ، فيما السراب الانتهازي يتسلق أسوار المدى مساهماً بانكسار قوام الأفق الناهض.

كان كلما أراد أن ينجز دراسة أو كتاباً يفرّ من دمشق إلى باديته حيث لا عسس ولا جنتلمانات.. فقط إبهام السراب يتواطأ مع سبابة الكذب وخنصر وبنصر الحقيقة وبيده يحلب ثدي الظبية.

هناك يستقر في دارة جده العتيقة، نصفها حجر أسود ونصفها

twitter @mjanen٢٣

من الطين المجبول بالقش، الغرفتان الحجريتان مسقوفتان بالقرميد وبالكثير من الذكريات.

يبدأ نهاراً متعباً مع الكلمات. وعصراً ينفض رأسه، ويأخذ مفاتيح الشفروليه ويجول في أنحاء الشمبل يبتلع كل تلك الدروب التي ظلَّ الكثير منها هارباً من التعبيد.. التي تسمح للغبار بممارسة لعبه الصبياني الطائش.

ثمة مغنٍ عجوز يغني أغانيه بمرافقة الربابة ظل طرازاً فريداً من الطرب يقصده «طراد» ليلاً مع اللحم والدخان والعَرَقْ.

«طراد» يعدُّ الشواء والمغني يغني له عتابات مسروقة من دهر عتيق. من سراب يقول لك إنه كذبة بلا تورية أو تأويل و ينغمس في قوام مستقبل في حاجة إلى مزيد من الماضي.

تسكره حنية الربابة وقسوتها وكبرياؤها مثل نشابة تطلق سهماً يتغلغل في خاصرة الذاكرة، شيئاً فشيئاً ترفع لغتها وتتسع حنجرتها وتلتهم رئتيه بأنينها المتعالي. تغني الصمت كله وتحرك إصبع الحزن الحقود وتمهد كل الطرقات لآخر ذئب مجروح يفرُّ من براري قلبه.. حيث «سكرى».

سيارته العتيقة التي كان يقودها في جولاته كانت تستفز ضابط الناحية في المنطقة. منذ أن تسلم مهامه تعمَّد إتباع عدة وسائل تفتيش ومداهمات مباغتة مذلة للخيام المصنوعة من شعر المعز، ينتقي الخيام الفاخرة المنصوبة على سبعة أعمدة ويترك أفراد دوريته يقومون

twitter @mjanen٢٣

بتفتيشها زاعماً أنه يبحث عن الأسلحة. فيما تتغاضى كل دوريات الشرطة في المنطقة عن السيارات التي تهرب الآثار. وأحياناً البلدوزرات أو طائرات الهيلوكبتر..

لم يمر وقت طويل حتى علم بدو الشمبل أن هذا الضابط ليس إلا حفيداً حانقاً من بذرة أولئك البدو الذين انهزموا في إحدى حروب القبيلة وكان أن مَغَرَتهم «منوى» بالمُغْرَة الحمراء، وسجلتهم في قيود البادية الأزلية على أنهم جبناء الأمس. بعد ذلك انسلخوا ولاذوا بأطراف مدينة حلب مستفيدين من ميزة أي مدينة في العالم الحديث، لا أحد يمحّص أنفك.

ارتاح «طراد» عندما وصلته تلك المعلومة بشأن الضابط الذي يستوقفه كلما صادفه ويقوم بتفتيش الشفرولية الخالية من أي شيء غير أحزان «طراد».

كانت قد حيّرته تلك النظرة الحاقدة التي يراها «طراد» جيداً في عيني الضابط.. ولأنه كان ابن «منوى» الوحيد فقد لقي «طراد» معاملة خاصة.

يشرب العَرَق الكأس تلو الكأس وللربابة فم له ألف شفة تلذعه حتى يستسلم للنوم، يستفيق في ظهر اليوم التالي يودع صديقه المغني العجوز ويعود مع سيارته مثل صديقين قديمين، ومن جديد يستأنف رحلته العكسية صوب الماضي.

تشاركه «سكرى» في رحلاته الورقية تلك حين تأتيه في سيارتها

twitter @mjanen٢٣

المرسيدس هاربة من حياتها كلها. تودع ابنها بعهدة عماتها وهي تؤكد لهنَّ ولزوجها وللجميع أنها مسافرة إلى بيروت لجلب بضاعة جديدة لمحل الألبسة. لم يكن لأحد من أقاربه ليشك بأنها ليست زوجته في الواقع، فقط كانوا يسألونه متى سينجب أولاده.

مع «سكرى» وصل حتى زمن «سنحاريب» الذي ذكر العرب راكبي الخيول في الصحراء في عهده ونقشت بعض أخبارهم في مدوناتهم الطينية، والإغريق الذين حكوا عن بلاد العرب السعيدة فيما أوذيس داهية الإغريق يستخدم قماش الدامسكو ليغري أميرات البلاط الذي توارى فيه أخيل خائفاً من نبوءة. وفي القرون الوسطى أصبحت بلاد العرب محض أرض قاحلة مليئة بالظمأ والخرافات، وجاء الصليبيون وحكوا عن أهل الصحراء كيف كانوا يتربصون كبنات آوى بما تؤول إليه المعارك ثم ينقضُّون على المهزومين من الفريقين.

في أحد الصباحات الباكرة عندما تكون متدثرة بعباءة مبطنة بالصوف وترقبه وهو يفرغ بضع حبات تمر من نواها ويرتبها في صحن خزفي أنيق بينما ينتظر الماء ليغلي ويضيف عليه القهوة يقول لها:

- «هناك من كان متفائلا بأن يظل البدوي حجراً راسخاً صامتاً يتقبل المشقة بأنفة وعزة نفس، كلما كتبت أكثر كلما تورطت في الماضي أكثر، أتوق له، والحاضر يثير حنقي وأستاء منه ويجمدني الخوف من المستقبل.. أكتب روايتي وبين سطر وآخر أخشى أن أكون

twitter @mjanen٢٣

ذلك الروائي الذي ينصِّب نفسه مؤرخاً مغايراً يدبج روايته بالتاريخ، معلومات، شذرات، أقوال، أخبار».

تنهض مرغمة وهو يسحب من فوقها العباءة عنوة:

- «قومي ياشامية».

ترفض النهوض وتنزع العباءة من بين يديه وتتكور تحتها مثل طفلة وتصيح فيه :

- «اتركني يا بدوي.. برد».

من فمه يلقمها نصف تمرة ويتبعها بقبلة عنيفة ويهددها بمشاركتها دفء العباءة وأن أشياء أخرى قد تحصل، تنهض وهي تقول له:

- «قليل أدب».

يتركها لدفء العباءة ويقلِّب أوراقاً كتبها مؤخراً، وبين ورقة وأخرى يتوقف، يدخن سيجارة جديدة تسأله :

- «لمن تكتب؟!.. لأجل أي شيء ؟!.. ما الذي تريده»؟!..

يجاوبها وهو يلف سيجارة جديدة:

- «لست متأكداً بأنني أكتب نكاية بالحاضر.. نكاية بمن هم ماضون ليموتوا. بكل العرب الذين فهموا أن مشروع التحضر يكون لقاء الخروج من التاريخ. ويستبدل العربي فرسه بكرسي على رصيف زقاق ما».

يشعل السيجارة الجديدة ويضعها في فمها ويقول:

twitter @mjanen٢٣

- «أو ربما نكاية بالأنَفَة التي خرجت من أنف الحاضر بعطسة واحدة».

تعطيه سيجارته وتتناول صحن التمر و تقول:

- «ألا ترى إنك تعاني من حنين لا جدوى منه، أراك سلبياً بحق، ترفض أن تبصر الواقع حولك».

صمت حين لاح له أن ما تحكيه أمر حقيقي. ألا يلبس كل ذلك الزمن منفرداً مدركاً أنه أكبر الواهمين وأكبر المدلَّهين وأكبر الخائفين..

يسحب السيجارة تلو السيجارة حتى تفرغ العلبة ويمتلئ فمه بشهوة «المزيد». لهذا عاد إلى تدخين التتن الحموي وسجائر اللف ربما، لأنه الأديب الوحيد الذي يحب مواكبة سيجارته مبتدئاً بتوضيب التتن ووضع الكمية التي يريد وبعد ذلك يلفها وبطرف لسانه يرطب حوافها ليلصقها وبعد ذلك يدخنها مع القهوة المرة المطبوخة بحب الهال. وبرفقة السجائر يعود إلى نبش التاريخ مثلما يتحرى خطم وكر.

كان يتشمم التاريخ مثل كلاب سلوق.. يغرق في كل الكتب المتاحة التي أتت على ذكر القبائل العربية في البادية الشامية. قرأ الأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي، القلقشندي أحمد بن علي في مؤلفه «صبح الأعشى» والمقريزي وكل ماكتبه المستشرقون عن البدو، نيبور، بركهارت، داوتي، فليبي، الليدي آن بلنت، الميس بيل، أوبنهايم، مونتاني، بواديبار، الأب هنري

twitter @mjanen٢٣

شارل، ت. أ. «لورنس»، ولفرد تسيغر. ومن عمال الادارة الفرنسية بمراقبة البدو، الملازم ألبير بوشمان، والمقدم موللر، ورينو ومارتينه.

تسحبه «سكرى» من يده:

- «تعال خذني مشواراً في عجوزك الشفروليه».

فيما يصعدان تقول له:

- «زرت المعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأدنى وحصلت على عدة مؤلفات عن البدو».

تخرج شريط «كاسيت» وتدفعه في قلب المسجل ويصدح صوت نسائي حار وحاد وتغني موالاً باللهجة البدوية، تقرصه من أذنه وتقول:

- «لابد أنها نَوَرْية أنت تحب هؤلاء البشر».

يقول مذعناً:

- «بلى اسمها كان «سلطانة» ماتت منذ أكثر من عشرين سنة ياخانم».

لا شيء يجفلها مثل كلمة «موت»، تصمت قليلاً وتغير الموضوع عن عمد وتقول :

- «المقدم الفرنسي موللر كان يرى أن كرم البدوي غرور شخصي، وإذا كان البدوي ذا أنفة وخيلاء فلأنه لم يدخل بعد تحت سلطة. وذكاؤه يستعمله في الخداع. ورينو ضابط فرنسي آخر رأى أن البدوي، جلود جلادة البعير وجسور جسارة الأسد، نشيط نشاطَ الغزال ، إلا أنه أكثر من هؤلاء جميعا حرية واستقلالاً. لماذا برأيك

twitter @mjanen٢٣

هذا التناقض».

ينعطف صوب مجموعة من قباب الطين المهجورة، تشير إليها «سكرى» ويتوقف بالسيارة أمام تلك المذكرات الطينية الداثرة ويقول بشرود وهو ينظر إلى البعيد:

- «السبب هو السراب».

كلما أنهى «طراد» عملاً جديداً يتذكر السراب.

كيف هو السراب؟!..

رغم القصور التي يلفظها السراب من تخمته، والمردة الذين يوزعهم على عدد النهارات.. رغم كل هذا الكذب الفخم الذي يحترفه السراب يمنحك اليقين بأن هناك وراء الأفق شيئاً ما سيبقى.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

حين تمر الغرانق

«نكون قد فقدنا حتى ذاكرة التقائنا، ولكننا سنلتقي لنفترق ولنلتقي من جديد حيث يلتقي الأموات على شفاه الأحياء»

❖ بول ايلوار

يقولون لك: اكتب وأنت ممسوس بالموضوع.. وبسرعة خاطفة اخنقها آلامك كعصفور أمسكته أخيرا. ودفعة واحدة، فرّغ كامل رصاصك في ذاكرتك وقد أمسكتها بلحظة ضعف، مثل فرس انكسرت ساقها، عاجلها برصاصة الرحمة، إلتقط الزائل قبل أن يغشّك النسيان. ومثل الفراعنة حين يموتون، حضرّ لموتك، أثثّ ضريحك بأثمن أشيائك، ثم أوصده بألف باب وباب. بلحظة واحدة اترك الماضي يمرّ كشريط سينمائي، عندها كن ناسخاً، ووراقاً، وسجل، سجل حتى تشفى، وجِدَ الأدب ليغتال النسيان.

النسيان والذاكرة، لكل منهما بشرة محفورة بأظافر الآخر، صنوان خبيثان يستقر أحدهما في قلب الآخر، مثل الطيران في اتجاه مخالف أو معاند أو معاكس..

twitter @mjanen٢٣

يكتب «طراد» كمن يحلّق مهاجراً هارباً أو مرغماً أو لأنه مولع بالرحيل.. الضياع في طيات السحاب.. تجريب متعة الانفلات من أصابع الريح.. كذلك من طباع السرب حين المناخ يلعب دوره في الخيارات، هنا متعة الخروج على قانون السرب ..

هكذا كان يكتب «طراد».

❖ ❖ ❖

قال الزير أبو ليلى المهلهل
ونار الحزن ترقد في حشاه
فكان كليب ملك البرايا
أتى جساس غدره بالفلاه
جلست مكانه آخذ لثاره
وكنت أنعيه صباحاً مع مساء

❖ سيرة الزير سالم

ذات مرة قال لها: «تصمت القبرات قبل المطر».

تذكرت تلك العبارة تحديداً وهي تلثمه، كان شبه ميت، ولسانها يلحس دم رجل مصاب برصاصة في كتفه الأيمن وتقريباً من الخلف، يد الغدر رشيقة.

ثمة مشهد ربما لن تروه ولا حتى في السينما، لأن الخيول لم

twitter @mjanen٢٣

تتطور بعد وتجهل الفن السابع وخدعه، والخيول ليست موهوبة بالتمثيل. ما من عدسة قادرة على التقاط فرس أصيلة أمام موت حقيقي، إذا ما عاثت حولها ريح القدر وإذا حدث وسقط عن متنها فارسها صريعاً، تجول حوله، تشمه، تتلقف أبخرة روح تغادر الجسد مثل باشق نزق، تحمحم وهي تدور حول الموت تصهل وتزفر من رئتيها نعياً مكتوماً لفارسها، ترثيه، تعاتبه، تبكيه. وإذا حدث ومات على ظهرها تعود به إلى أهله كرسالة قدر.

كل البدو يعرفون أن للخيل ذاكرة. كلما مرت من بقعة شهدت معركة كانت فيها تضطرب وتجفل، وبارتباك تقطع تلك البقعة.

هكذا يومها جالت «سكرى» حول سرير معدني أبيض محاط بأجهزة طبية وبياض المستشفيات الذي تكرهه، وضعت منخريها أسفل رقبته تريد أن تصطاد رائحته الأخيرة تشممته عند تخوم إبطه، خذلها فمه، عضت شفتيه، ظل ساكناً. بأسنانها تسولت أذنه قبلت شحمتها، لم يجب، وحين وصلت لجبينه لحست بلسانها الدم الناشف، وتوقفت يدها فوق عضوه وتأكدت أنه ميتٌ نهائياً. انفرط دمعها ونادته:

- «طراد، طراد»..

نهضت الذاكرة، اشرأبت بأعناقها الكثيرة مثل بنات آوى في ليلة شتوية، أخرجها الطبيب مع ممرضتين وأغلقوا وراءهم غرفة العمليات وتركوها مع أنفها يبحث عن الرائحة الضائعة التي لا تشبه

twitter @mjanen٢٣

رائحة سواها.

«تصمت القبرات قبل المطر».

هل هذه هي الحكاية تنتهي والمطلق الوحيد أن الذاكرة صارت وردة سقطت، ليس في أي ربيع ما يكفي من ورد ليكون بديلاً عن تلك الوردة.

كان كل ما يفضله زمنه يتلخص في يدٍ تتقن اللمس. اللمس وحده على عينيه ليغفو. استعادت طعم تلك اللحظة الغابرة يوم ذاقت دم شفتي ابن عمتها «عاشق» وقد مرق خلالهما الموت لتوه.

أعند الزمن كفاية من هذا العدل؟!.. ما من إنصاف يرقى إلى سلّم حكايته، لا تطبق عينيك دون زمن يصلح ليصنع أحد منه رواية، ساعة الصفر بانتظارك والخيل بدأت عَدْوها:

حاولي «سكرى» أن تنسيه على حافة سريرك يحكي لك حكاية أمام طيف الموت، فَقَدَ قلمه كل حيلة، وانصاع أخيراً أمام كل ما ظنه عابراً ، كل ما سفح حبره لأجل أن ينكره.

أيغادركِ فيما هو يناور زجاجاً تحطَّمَ يريد أن يعيده كريستالاً نقياً.

ملهوفاً يجري السراب مثل شهوة النسيان ودون كبرياء ينجز شكله الأخير كأفعى من ماء عَبَر، والأمر الغريب الذي ـ ربما ـ لا يعرفه الكثيرون من البشر، أن الإنسان حين يبصر مستنقعات وأنهار السراب تغشّه الصحراء، لكن هذه الحيلة الأزلية لا تنطلي على النوق

twitter @mjanen٢٣

والجمال. إنها كائنات ذكية، تعرف أن ليس للسراب مطية غير الوهم، تعرف أنه لا يطيق طموحاتنا بالقبض على الحقيقة في يوم ما، تحافظ على متانة أعصابها أمام إغراء الكذب الجميل، ولا تلقي بالاً للكائن الآدمي الذي يحثها للمشي السريع صوب تلفيقات الوهم، ويظل خطوها الوئيد ذاته في وجه كل الخدع التي حولها حتى عندما تشهر الصحراء غسقاً ويبدو المساء إشراقة دم.

كان «طراد» عائداً بسيارته العجوز بعد ليلة طرب عند صديقه الشاعر الذي تبعد ضيعته عن ضيعة «طراد» حوالي ثلاثين كيلومترا، كانت دورية مدير الناحية تقف في الظلام وفيها ذلك الضابط، لم يتوقف «طراد» ولم يذعن لضوء سيارة الشرطة متأثراً بإشاعة مفادها أن لصوصاً كانوا يتنكرون بلباس الشرطة ومعهم سيارات الجيب نفسها التي يركبها الشرطة في البلد ويتعمدون قطع الطرق في المناطق النائية ويسلبون السيارات المارة وأحياناً يقتلون أصحابها. يومها ظن «طراد» الأمر هكذا وأطفأ أضواء سيارته وأكمل سيره متجاوزاً الدورية التي رشقته عدة رشقات من الرصاص بإيعاز من قائدهم، بسبب شبهة.

قبل الحادث بليلة واحدة كانت بين ذراعيه تعترف له بحبها الأول، كانت المرة الأولى التي تبوح فيها عن الرجل الذي تولهت به بينما هي لم تزل في الثانية عشر من عمرها.

كان يبهرها في كل مرة يزور أبيها، يعبر الرواق ويقصد الليوان

twitter @mjanen٢٣

يمشي وراءه رجل زنجي مسلح يجلس إلى جواره فيما الرجل ذو العباءة الغبراء المذهبة الأطراف يجالس أباها ويحكي له بلهجة غريبة عن كل شيء، الساسة، والخيل، وأسعار الحبوب والأعلاف والأسلحة لكنه لم يكن يتحدث عن النساء مطلقاً.

ذات مرة كانت عائدة من المدرسة ودخلت مباشرة إلى حيث كان مجموعة من الرجال بينهم الرجل الأسمر ذو العباءة حيتهم وخصَّت أباها بقبلة وتسللت إلى جوار ذلك الذي كانت مغرمة به ووجدت شيئاً تسأله عنه:

- «أين هو الزنجي الذي يأتي معك كل مرة»؟!..

لم تنظر صوب أبيها حتى لا تلمح شيئاً قد يدلُّ على انزعاجه، جاوبها بابتسامة خفيفة:

- «مريض»..

قال ذلك وأخرج علبة مذهبة مليئة بالتتن وتسحب واحدة من تلك الأوراق البيضاء الناصعة الشفافة، ويرش القليل من التتن بشكل طولاني ويلفها ثم يبل طرفها الخارجي بريقه ويحكم لفتها ويناولها لحازم بيك وهو يقول :

- «هذه لك».

يأخذها البيك ويقول :

- «لك واحدة في ذمتي يا مير» ..

تسأل أبوه همساً:

twitter @mjanen٢٣

- «ماذا يعني مير»؟!..

شرح لها أبوها البيك:

- «أمير».

إذن هو أمير، لابد أن يكون كذلك، لم يقل لها أحد أن في هذه الدنيا أمراء في غير حكايات جدتها «بوران».

بعد مغادرته شرح لها أبوها عن الخدم الزنوج والعبيد الذين كانوا يعيشون بين البدو منذ العصور الجاهليه، تقاطعه مندهشة:

- «في المدرسة قالت لنا المعلمة إن الجاهليين كانوا كفاراً»؟!..

يحتار لبرهة ماذا يقول لها فيتجاهل ملاحظتها ويتابع:

- «يمتلك شيوخ القبائل عدداً من الزنوج يرافقونهم كحرس شخصي. إنهم مخلصون وشجعان ويؤدون أصعب المهمات لأسيادهم».

- «لماذا لاتشتري واحداً منهم»؟!..

يضحك البيك من سؤال ابنته ويقول لها:

- «أصبحت التجارة بالعبيد ممنوعة والزنجي الذي تشاهدينه برفقة الأمير، هو حرٌّ الآن وله أجر سنوي معلوم وتروق له مرافقة سيده الذي تربى في بيته و سيظل كذلك طوال حياته».

بيت مصنوع من شعر الماعز، شاهدته لأول مرة في حياتها حين أخذها أبوها معه ملبياً دعوة الأمير «محمود». على بعد ساعتين من دمشق وقريباً من القنيطرة وصلت قصراً نصبت أمامه تلك الخيمة الواسعة التي شرح لها الأمير محمود عنها وأكد لها أن ثمه أناس

twitter @mjanen٢٣

يعيشون طوال حياتهم فيها عندها همست في أذن أبيها :

- «لكن أين يبولون هؤلاء البدو»؟!..

بعد مرور ثلاثين سنة على غرامها بالأمير «محمود» كانت تتقلب بين ذراعي «طراد» وتستعمر جسده وهي تحكي له عن رائحة محمود التي تشبه رائحته بعض الشيء.

- «تتوهمين.. فقط بسبب الزمن تظنين ذلك».

تنهض وهي تقول له بأنها جوعانة. يلحقها ويخرج لها بقايا عصافير مشوية من البراد ويسخنها لها ويعد لها سندويشة مع الخس والبندورة وخلال ذلك يحكي لها عن أسلاف ذلك الأمير الذي عشقته في صغرها بعد أن سألته:

- «لماذا بعض الشيوخ هم أمراء كذلك»؟!..

يجيبها وهو يصب لها النبيذ بناءاً على رغبتها:

- «بعضهم هم بقايا سلالات قديمة تحمل اللقب بشكل متوارث منذ الجاهلية وثمة صنف آخر من الأمراء حصل لقب أمير كرتبة عسكرية ، حدث ذلك حين استعان المماليك بارستقراطية شيوخ البدو وجعلوها عسكرية وأحياناً أضافوا لقب - أمير العربان - وكان التعيين في منصب أمير يتم بواسطة تقليد - مرسوم شريف - تصحبه في العادة أعطية شرفية وهذه العطايا الفخرية رافقتها عطايا مادية، منحوهم أراضي شاسعة في صورة إقطاعات مقابل ضمان الأمن في منطقتهم، كانوا أيضاً ملزمين بتقديم القوات عند نشوب الحرب وامدادات من

twitter @mjanen٢٣

الجمال والخيول».

ينتهي من اعداد سندويشة له ويصب لنفسه كأساً من النبيذ ويرفع عن جبينها غرتها التي ترفعها بين ثانية وأخرى، يثبتها بدبوس في أعلى رأسها وهو يقول لها:

- «الآن كلي بكلتا يديك.. طبعاً لم يخبرك أحد قبل الآن عن أسلاف أميرك محمود»..

ترفع بصرها نحوه وهي مندهشة:

- «بحق»؟!..

يجاوبها باسماً:

- «بحق ياشقية، في الثانية عشرة من عمرك عشقت أميراً اعترف لي عن بقية عشاقك»

تهز رأسها بإصرار؛

- «لن تفرح بهذا يابدوي».

يقول هو بأعصاب باردة:

- «ستحكين عنهم كلهم من تلقاء نفسك يا شامية».

تركل ساقه بقدمها:

- «احكي لي عن قبيلة أميري».

- «قبلة».

تمنحه رقبتها وتقول:

- «خذ».

twitter @mjanen٢٣

ينهي سندويشته ويؤكد لها:

- «لا يكفي».

تشرب من نبيذها وتنعته:

- «حقير».

- «شكراً، أخاف أن أحكي لك عن المزيد من الأمراء فتهجريني».

تهز رأسها مؤكدة:

- «سأفعل».

يشعل سيجارة ويقول:

- «هل تعرفين أن أجداد أميرك كانوا في سلمية»؟!..

- «كيف»؟!..

يتابع:

- «الأمير عيسى بن مهنا سلف أميرك محمود كان متحالفاً مع بيبرس، رافقه مع رجاله في عين جالوت وعقب المعركة منحه بيبرس لقب - أمير سائر العربان - وأقطعه منطقة سلمية. وبعد موت بيبرس تورط في مؤامرة حاكها حاكم دمشق ضد السلطان قلاوون انتهت بإعفائه من منصبه، لكنه على ما يبدو استعاد مكانته بعد وقت قصير، لأن - المقريزي - يذكر أن صلاة أقيمت له في دمشق كانت تقام لأصحاب المناصب الرفيعة عندما توفي».

يقبل أنفها وهو يقول لها:

twitter @mjanen٢٣

- «أنا أسمع ما تحكيه الأنوف، أنفك سيدتي تقدر أن تطلق الرصاص إذا لم تخفضيها. هل تظل نفرتيتي أجمل امرأة إذا ما بترت أنفها؟!.. أو أخفضتها؟!.. كم هو مليء التاريخ بالأنوف الجميلة!.. أنف عنترة وأنف كليب وأنف الزير سالم وأنف زنوبيا وأنف كليوباترا وأنف هانيبعل وأنف هكتور وأنف أخيل، حتى المدن لها أنوف، طروادة مثلاً كان لها أنف رائع، لايفتح التاريخ لنا صالة الجميلين الخالدين دون الأنوف، ليصنع الزمن أنَفَته الخاصة»..

عشقت الغبار، لأنها تشمه دائماً في سيارته العجوز وهو يشرح لها كيف تميز الطيور الجارحة عن بعد، يلفّ لها سيجارة ويشرح لها عن العقبان:

- «نسميها سباع الطير، منها دجوجية أي سوادها بسواد لسانها والبقعاء المبقعة بالأسود والأبيض، والصقعاء التي على رأسها بياض، والسفعاء التي لونها سواد مع حمرة، والخرجاء أي السوداء المشربة بالأبيض، والخدارية السوداء تماماً. ولَقْوَة أي تلك التي لا تناور طريدة إلا وقنصتها».

ولأول مرة تعرف أن «لَقْوة» من أسماء المرأة عند العرب وذلك إذا كانت حسنة التلقي لمني رجلها.

- «ويقال للعقاب صومعة لأنها أبداً مرتفعة».

وحكى لها كيف أهدى قيصر إلى كسرى عقاباً على أنها مدجنة وما لبثت أن فتكت بواحد من غلمانه، فأهدى كسرى لقيصر

twitter @mjanen٢٣

نمراً وأرسل يقول أنه ربي صغيراً عنده. وليس إلا قليلاً حتى أكل واحداً من أهل قيصر الذي قال: «فعلها بنا كسرى». وحين بلغ الأمر لكسرى قال : «أنا أبو ساسان».

وتشرد معه وتتخيل مشهد ما يشرحه لها:

- «العقاب حين تبصر الغزال وكان في المكان ماء فإنها ترمي نفسها بالماء حتى يبتل جناحها ثم تخرج فتقع على الرمل وتطير صوب وجه الغزال مباشرة وتصفق جناحيها فوق عينيه وتملأهما رملا فلا يبصر أمامه وتصطاده».

يلوح لها كل ذلك وبياض المستشفى ينهكها، وتشعر أنها ذلك الغزال الذي انطلت عليه حيلة العقاب وشوّش بصرها بالرمل.. لم تكن ترى شيئاً. فقط تسمع صوته وهو يقول لها:

- «كوني جميلة ولا تصمتي، كوني حرباً تلاعب الهدنات، مارسيه تكتيك المدن، المدن إناث مجلببات بخديعة الجدران، قصور وأبراج وأبواب وكثير من الحيرة، دوخيهم، الرجال، كأيّل تخطى كل الفخاخ وترك الثعالب تشمّ الجهات. ارفعيه أنفك كأميرة عربية سالفة، اجمعي حولك طواويس ما يعدل وزنك غروراً، خليِّها بواباتك مثل كبريائك من فولاذ. ملوك، وزراء، عسكر، شحاذين، اتركي الرجال يصنعون تاريخك، وعراقتك. من دونهم لاماضٍ لكِ، فتكونين مدينة تاريخها يوم، اتركي الرجال مفتونين ملعونين فيكِ ومري من أمام عيونهم كسراب لا تلمسه يد آدمي قط»..

twitter @mjanen٢٣

هو بذاته الذي نبهها إلى ضرورة أن يكون حزننا مثل الخيول الأصيلة، يتخطى بنا كل التضاريس الصعبة التي يمكن أن تقترحها علينا الحياة في لحظة نزوة.. كتب لها على ديوانه الأخير. وهو يقدمه لها - ذلك الإهداء المدوخ الذي لم تحزر قط إن كان من بنات أفكاره أو أنه اقتبسه عن أحدٍ ما: «لن أسألك إن قرأتني أم لا، فالجميلات يقرأن أنفسهن، قليلاً ما يقرأن الآخرين، برغم أني لا أكتب إلا لهنَّ من أجل أن يقرأنني.. أقصى السعادة أن نرى كتبنا في أيادٍ جميلة».

دعْ هذه الكلمات تمضي. مشكلتك أنك لا تمرق، تظل عالقاً في الذاكرة، فيما الأفق كان سكراناً دون أن يدري، يخطر عليه بشرٌ رشيقو الخطى، جميلون، ومغرورون مثل شقائق نعمان نبتت عشية نهوض ربيع.

❖ ❖ ❖

كل شيء ساكن، كل شيء مثل الزئبق، إنه فجرٌ مصنوع من غبش وحسب. «طراد» يفتح عينيه ليراهم حوله «سكرى»، «فكرى»، «راكان».

كم من المسافات ينبغي أن تقطعها حتى تصل حافة الموت وتعود، كان «طراد» على يقين أنه ما من مسافات.

«سكرى» و «فكرى» تعارفتا على سرير كان يمكن أن يكون للموت، «راكان» قال له:

twitter @mjanen٢٣

ـ «كنا سنعرض عليك مشروعاً».

يبتسم ويسأل:

«رحلة أخرى إلى منغوليا»؟!..

«فكرى»، طرية حنونة حنونة تقول بإصرار:

ـ «لا أريد أن أفقدك»..

وسكرى بعينيها قالت له كل شيء:

ـ «قاوم كثيراً وأطع قليلاً»..

قال «راكان» وتابع:

ـ «لا أدري أين سمعت هذه الحكمة لكنها تناسبك».

«سكرى» شفتاها صامتتان وتتشبث بيده:

ـ «لا تمض»..

والسراب هذه المرة يجالسهم كرفيق درب، كفنَّان، طبيب، محام، مشاكس، عميق، ملغز، روائي، ساحري، حقيقي، فضائي.. تماماً مثلما هو كان سائحاً دائماً على وجه الأرض يوم كان للأرض وجنات، وجنات ألف امرأة وامرأة تخطر عليها ظباء وأرانب وثعالب ويرابيع وذئاب غبر ونوق وكلاب، وفي الرمل تقيم الأفاعي والعقارب والحيات والعظاءات وهناك أناس كانت تشبعهم خبزة وتمرة.

ذات مرة شرح «طراد» لسكرى شيئاً ستتذكره دائماً:

ـ «البخت لدى البدو كلمة يمكن ترجمتها بالمصير أو القدر أو الحظ، إنها تعني شيئاً أكثر من الخير كذلك أكثر من الشر، تعني

twitter @mjanen٢٣

الاستسلام لأي وجه يمكن أن يخبئه المستقبل تحت قناعه، ويعني كذلك أنه يجدر بنا أن نتعامل مع كثير من الأشياء حولنا كممارسة القمار في كازينو».

بَطُلَ السحر، انحلّ الكذب، كل شيء كان كافياً ليسحب «طراد» قلمه خارج معنى الأشياء العادية.

twitter @mjanen٢٣

twitter @mjanen٢٣

- «مزرعة لتربية الصقور الهجينة»..

تضيف «فكرى»:

- «الصيد بالصقور لم يعد تراثاً وتاريخاً، أيضاً رياضة عالمية.. يمارسها هواتها في شبه الجزيرة العربية والصحراء الموريتانية، وأسر الصقور المهاجرة من أواسط آسيا والصين وأعالي جبال باكستان لم يعد ممكناً كثيراً بسبب المبالغ الطائلة التي تدفع مقابل الترخيص بالقنص، يمكننا اعتماد الصقور المهجنة والمتكاثرة بالأسر لأنواع نعرفها عزَّ المعرفة مثل الحر، والشاهين، والوجري، والسنجاري وبعد ذلك نطرحها في مزادات الإمارات وستكون الأرباح مغرية، الهضاب الصخرية في الشمبل كلها مؤهلة لاستضافة تلك الطيور، المزرعة ستكون هناك».

دماغ «فكرى» البدوي «تأورب» بذكاء، وابتكرت المشروع الوحيد والممكن لخاطر «طراد»، كانت تعرف أنه مشروع ناجح سلفاً، كذلك خَافْت أن يكون المنزل الذي اشتراه في احدى ضواحي

twitter @mjanen٢٣

دمشق عقب شفائه مباشرة، مجرد ردة فعل، وكأنها لا تصدق أنه وافق على التحضر بحق.

عندما كان يمشي وراء «السمسار» الذي يطلعه على أنحاء البيت كانت كلاً من «سكرى» و «فكرى» يمشيان ورائه ويتغامزان على مدى جديته في شراء المنزل، فعلها وباع جزءاً كبيراً من الأرض التي ورثها عن أبيه وبثمنها قرر عقد صفقة تحضّر مع دمشق.

«سكرى» أكدت له:

- «يكفيك بئر من النفط لتنسف كل حنينك البدوي يابدوي».

❖ ❖ ❖

السراب لا ينظر أبداً حيث يضع خطاه ، والبادية ليست سحرية ، لكن ثمة اعتباطية سحرية في تشكيل غموضها. يكتب «طراد» ويملأ أوراقه وسط صمت يقطعه صوت الصقّار وهو يدرب الصقر، خلال النافذة تتعلق عيناه بجناح «حبارى» مربوط بحبل يلوّح به الصقار في مرحلة أولى لتدريب الحر قبل أن تأتي المرحلة الثانية في التدريب حين يطلق الطائر في إثر الحمام دون وثاق، وهذه مرحلة «الدعو» وبعدها تأتي مرحلة «الكسير» حين يصطاد الحبارى والأرانب ويحترف الطراد.

حوله جمال هادئ، واضح وغامر، في الظهيرة يبدو نعساناً وخاملاً يرافقه حضور لأشخاص عتيقين تجذروا في الذاكرة.. في

twitter @mjanen٢٣

الإحساس، «أيها الهارب في البراري مع الوقت أخشى أن تكتسي بالوبر أو الفرو وتتحول إلى كائن بري». هكذا كانت تقول له «سكرى» عبر الهاتف وهي تسأله عن احتياجاته التي يمكن أن تحملها معها من الشام عند زيارته.

فجأة افتقد لعواء الذئاب. الذئاب لم تعد تعوي لأنها تقريباً لم تعد موجودة في تلك البقاع كما أخبره «راكان». مامن ذئب يؤنس سكون الليالي هناك. لا ذئب يمشي مشيه العسلان ليحمل قائمة أسمائه الكثيرة، سرحان وأوس وذؤالة، مفردات يغلفها الغبار.. أحياناً كان يسخر من نفسه بمرح ويفكر أنه مثل كولمبس حين اعتقد أن كوبا هي الهند.

ينظر صوب ذلك الأفق اللامتناهي ذلك الأفق الذي لم يلمسه أحد، وثعلب السراب يناثر الساعات التي لا يشعر بمرورها «طراد» في تلك المزرعة، يرافق الزوار الفضوليين ويشرح لهم:

- «الشواهين أسرع الجوارح وأشجعها تراه واسع العين، حادها، سائل المدمعين، حاد المنسر، طويل العنق، رحب الصدر، ممتلئ الزور، عريض الوسط، قصير الساقين عظيم الفخذين، سبط الكف، تام الخوافي، دقيق الذنب، منها الحمر والشهب، والشعلاء أفضلها، وأول من هجن الشواهين كان قسنطين ملك عمورية».

ويسأله سائح:

- «والصقور»؟!..

twitter @mjanen٢٣

يتابع «طراد»:

«الصقور، من أبرع الجوارح تسمى بغال الطير لأنها الأصبر على مطاردة الفريسة البرية منها تقدر على صيد الظباء، لكن المدجنة والتي ولدت في المزرعة لا تصيد غير الطيور والأرانب وشرح بصعوبة معنى أسمائها العربية: ألفت، أحوى، أخرج وأبيض.. يختم كلامه عنها بقوله وأول من درب الصقر وصاد به هو الحارث بن معاوية بن ثور بن كندة».

ويسأله واحد آخر:

- «وماذا تطعمونها؟!..

يشرح «طراد»:

- «لا يطعم الجارح شحماً ولا عصباً أو لحم الساق، ولا يلائمه لحم الدجاج والبقر، يطعم لحم العصافير والقنابر وفراخ الحمام وفراخ الخطاطيف».

يقطع «راكان» عليه خلواته ويسحبه لتناول وجبة ما، أعدتها «ميّر» زوجة «راكان» الذي عثر يوماً على حب حياته في قاع صهريج روماني، ووسط أبناء «راكان» الخمسة يفطن «طراد» إلى أنه نسي أمر الذرية. يسرقه العمر وهو ينتظر ابناً يتمناه من رحم «سكرى».. حين علم أن زوجها دخل في غيبوبة بسبب السكّر، قضى وقته غارقاً في عباب أمنيته الوحيدة تقريباً، أن يموت هذا الرجل.

يستأنف روايته التي كان يكتبها، لأول مرة يقترب من نفسه إلى

twitter @mjanen٢٣

ذاك الحدِّ. استحضرهن جميعاً واكتشف أن النساء ينسجن التاريخ أكثر مما يفعل الرجال أو كما تتوهم غالبيتهم.

ثمة إناث خلقن لتخليَ لهن النجوم مكاناً، كانت تلك قناعته التي دفعته لكتابة روايته الأخيرة أكثر بكثير مما كان يدفعه الماضي: الفقدان مثل الزمن لا يتوقف.

عجاجٌ و دوَّامات من رمل عتيق وأطياف أثيرية تنهض على إيقاع حوافر الكلمات التي تركض على أوراق «طراد»، تنزلق «حمرا الموت» مع أذيالها الكثيرة إلى جواره، أذيال تسحبها وراءها منذ ذلك اليوم الذي كان فيه أجدادها كهنة «الإله يغوث» في جُرش على حدود اليمن الشمالية، من هناك من أرض مذحج حيث كانت قبيلة طي، تأتي «حمرا» و تهمس له بتلك الكلمات التي أرسلتها يوماً لأحمد بيك الأبوريشه، وجننته عن بعد وفتنته، العرب يعرفون عمق الجَمال، لهذا سمُّوه فتنة كإشارة ذكية للحروب التي تنشب بسبب إمرأة. وسمُّوه روعة مستلهمين كلمة، رَوَعَ، إنه الخوف الذي يحبه الرجال ويهابونه، كل ذلك كانته «حمرا الموت».. وكل ذلك مجبولاً بالكبرياء رافق «قطنة» وهي على ظهر فرسها البيضاء، شعرها مجدول بليرات الذهب وترتدي الحرير الأحمر وتشرئب وسط قومها المتخاذلين عن أخذ الثأر لشقيقها، وتزاحم «حمرا الموت» وتهمس لـ«طراد» :

- «بعض النهايات يجب الذهاب إليها دون كبرياء»..

تقول ذلك وتودعه غاضبة من «طراد بن زبن» تغادر حين تفعلها

twitter @mjanen٢٣

الآفاق وتسحب من تحت أقدامنا السراب وتتركنا لوحدنا مع الحقيقة، ومع «قطنة» أدركت مخيلة الرمال أنه يمكن للإختفاء أن يكون أنيقاً وأنثوياً محضاً، تماماً مثلما فعلت «قطنة» وهي تأخذ مكاناً لها في قلب التيه، وتلسع تاريخ الصحراء ببياضها القطني، وتكون الأنثى التي هزمت يوماً قبيلة الرولة.

مهلاً أيها السراب؛

لا تتسلَّل..

حتى في سالف العصر والآوان، كلما التقى العسكران وتقاتل الجمعان كانت الخيول حاضرة، مغيرة:

«القميرة» فرس جساس تؤسس لذاكرة لا تنام.

«الخضرا» فرس ذياب بن غانم تحمله إلى غزواته وتعرف أن المعركة منطقية مثل الشر.

«الأبجر» حصان عنتر يتوحد معه في وجه صراحة عبلة المطلقة: لا أريدك..

«الأخرج» حصان المهلهل يأوي معه إلى فراش النعاس ولا ينام المهلهل ـ لاتصالح ـ فيتبأ بالماضي ويتذكر المستقبل. فيما الندم محمولاً فينا وصولاً إلى نخلة النهاية الكبيرة.

ومن عمق واحة مجهولة تخطر جدته مزدانة بأسمائها الثلاثة «عنقا ـ ليز ـ شمس» فيما السراب ينزِّه ثعلبه وينجب أذياله السبع المدوخة. تشاكسه مرة أخرى وتسخر من نحوله وتدفعه للأكل

twitter @mjanen٢٣

أكثر ليسمن قليلاً بقولها:

- «صيد البازي على قدِّ خرئه».

و«مراية» تختلس مسدس زوجها لتردي قاتل أخيها.. إناث يمطرنه برذاذهن الدموي، وتغني القبرات من دون صوت. جنيات إلهام من لحم ودم ورمل متحلقات معه حول موقد اللحظة، حميميات، ذكيات، ملهمات..

خالته «سكرى» تمازحه بأشعار سيرة بني هلال التي تحفظها وتقول له ما قاله الزيناتي خليفة لابنته سعدا :

«أيا سعدا قلبي من العبد خايف، أرى كفوفه لطعن الرمح كبار».

وتجاوبها «منوى» مختلسة أشعار سعدا عقب طعنة من سيف ذياب بن غانم. وتقول كلماتها الأخيرة قبل أن يدخل القدر بهيئة موت ويفوز بالقضمة الأخيرة :

- «وما نلت من مرعي مناي وبغيتي.. نسيني ولم يرعي لي زمام.. زرعت جميلاً قابلوني بضده.. وكيف الذي زرع الجميل ينضام».

وسط كل ذلك الحُسن.. كان «طراد» مجرد «عرّاب» التذكر.. "العرَّاب" الذي يحترف مناورة الورق المتكبر، ها أنا آتيك بما خَلَتْ منه كل أرشيفاتك الأدبية والشعرية والنثرية، أرشقك بنثار ذلك الزمن، تعرف أيها الورق حين نصعد جبالك باهرين، هائلين، ونتركك مطأطئاً مذعناً لمدونةٍ قدرنا أن نكتبها. لا فرسان عندي ولا مشاة ولا

twitter @mjanen٢٣

مدفعيين إنما عندي أبطال يطلعون من حشا السراب.

الأطياف لا يمكنها أن تكون حيادية أو هادئة لأنها تحضر في عزِّ اللحظة، يتواصل المد والجزر في الذكريات ويكتب «طراد»، يتكئ على جذع اسطورته الحميمة ويسقيها حروفاً وكلماتٍ ونقاطاً وفواصل.

في الخارج، السراب نخيلٌ صنعه لعاب الضوء الوحشي حيث الأفق لا يقبل للشمس أن تكون أقل اشتعالاً، ولا أقل غروراً، كيف لا!.. والأفق ذاته عبره إصرار الزير سالم على صهوة الرفض ورمحه يعفِّرُ كل الدروب بالدماء فقط ليظل وسيماً بلا شبهة، لتكون جميلاً يهمس لك السراب بسره: تعلّم من الخيول خيلاءها، كن حصاناً، كن صعباً ووعراً وعالياً وعاصفاً وناتئاً وصاخباً وهادراً وملعلعاً، كن خرافة!.. فكم مرة سنوقظه هذا التاريخ ليحتفي بحسننا وألقنا نحن الجارفون الموجِعون والمؤلِمون، ندلّلها ونعزها أنوفنا وكما السراب نمشي ونترك كلمات كثيرة دون نُطق.

❖ ❖ ❖

لن يطرق باب الهواء.. أو يتناول حنينه الغافي المعلق على عمود يرفع ثقل توقه إلى مدى ينهض ماوراء الرمال.

حين يقصد خيمة «راكان» المرفوعة قرب شرفة منزله المحاط بدربزونات من رخام، يستسلم لرائحة الهال ويجلس «مبعثراً» على

twitter @mjanen٢٣

قارعة المسافة بين بداوته السالفة ومدنيته اللاحقة.. الجهات الأربع لا تكفيه، يبحث عن جهة خامسة وهو يرتب أفكاره بفنجان قهوة يناوله له «راكان».

يتنشق روائح كثيرة مموهة برائحة طاغية متخمة بالهال فيما المدى غامض، إلى جواره تجلس وشايات كثيرة، وشايات جلبها الحنين الموحش فيما يتعثر في التفافات دوروب الذاكرة، ضيقة دروبها مثل أوردة القلب.

يستأنف تدخين سيجارة جديدة و«راكان» ينبهه:

- «الطبيب منعك من التدخين على الأقل لمدة عام عقب الرصاصة التي مرقت من كتفك»..

يذعن «طراد» ويطفئها بالتراب ويرميها عن بعد لـ«راكان»، يسند ظهره إلى واحد من الأعمدة الخشبية التي اعتاد البدو رفع بيوتهم بها لقرون خَلَتْ، ويتساءل «طراد» إن كانت تلك الأعمدة هي ذاتها التي استلهم منها «ت.أ. لورنس» عنوان مؤلفه الشهير «أعمدة الحكمة السبعة»، هل كان يكتب عن الأعمدة السبعة وفي ذاكرته منزل شيوخ «العنزة» المنصوب على أعمدة سبع، أطنابها تبلغ قلب نجد..

لماذا «أندريه مالرو» وزير ثقافة حكومة «شارل ديغول» أكد ذات مرة: أن شمس العرب أفسدت «ت.أ. لورنس» إلى الأبد؟!..

هل كان يقصد أنها شوشت ذاكرته نهائياً، ذوبتها وصهرتها وخلطت الأوراق؟!..

twitter @mjanen٢٣

لازال «طراد» على يقين أن ثمة دفاتر مهملة في تاريخ البوادي، أوراق موزعة على آثار ترحالهم بين بئر وبئر. بين واحة وواحة، بين تيه وتيه.. وبلحظة ما ينفتح الأفق كاملاً فتتقاطر أطيافهم، أولئك الذين مروا من هناك وهنا، وبين بين.

مروا دون أن يعلموا أن ثمة زمن سوف يأتي ويكسر بخاطر سراباتهم التي دحرجوها أمامهم مثل وثن.

لازال «طراد» يصر على قراءة تفاصيل الرمل، وخطوط تجاعيده، ضوضاؤه، تغيّراته في لحظة ما.

رغاء ناقة يكفي لتغيير ملامحه، وكل تلك الخيول التي عدَت يوماً وراء ثأر تذوب في الغيب مثل دمعة مكابرة، متعجرفة، تدرك قصر المسافة بين العين والوجنة، تندفع حارّة مصرة وتركض بين أضلاع الكثبان.

ما بين حدين: الماضي والقادم يلملم فوضى حنينه ولا يهرب هذه المرة، يألف ظله الجديد، ينهض، مغادراً - مؤقتاً - من ماتوا وناموا في دثار قلبه ويلبي عصافير الوقت التي تتقافز نحوه كأنه غصن يفيق لتوه من شتاء طويل.

يشم الغياب، يتوسد ماضيين: واحدٌ بعيد جداً يمنحه معنى الأمس، وآخر قريب جداً مفعم بصوت فيروز» الذي يملأ صباحات مقاهي دمشق، كأن «طراداً» يقف بين بحرين ويحتار من أين يصطاد السمكة؟!..

twitter @mjanen٢٣

من يجرّ السراب من ذيله؟!.. إلى أين تمضي؟!.. تحمل «أناي» و«أناهم» إلى زمن مراياه تحيلنا رملاً كان.. للكثبان مخالب من ريح لها خفة الجن، ليّنة، ناعمة، متحركة، حين تصمت فإنها قد تعبئ الوقت ضدك.

❖ ❖ ❖

كأنه يمشي على وترين، كان «طراد» يقطع بضع بلاطات أمام باب ذلك الضابط الذي أطلق عليه الرصاص وكاد أن يرديه بسبب شبهة، حين دخل ورآه وراء كرسيه نافشاً رتبته العسكرية، ابتلّت خاصرته بدم عمره عشرات السنين، ووخزته يد غدر عتيقة، تحركت بعد نوم طويل.

هل الكره أمرٌ تتجزه الوراثة؟!.. لم ينهض الضابط لمصافحة «طراد» كما تقتضي العادة ولا ينكره «اتيكيت» الحضارة، اكتفى «طراد» بابتسامة وجلس حيث أومأ له الضابط بتكلف شديد، وبجفاف أشد كبس زر تحت الطاولة ودخل عسكري قصير القامة وسأل «طراد»:

- «قهوة أم شاي سيدي»؟!..

يبتسم «طراد» بوجه العسكري ويهز رأسه نافياً رغبته بشيء، يخرج العسكري ويبحر «طراد» مرة أخرى بملامح الضابط الذي أربكته عيني «طراد».

twitter @mjanen٢٣

يبدأ الحديث «طراد» ويقول:

- «أنا لا أشبه أمي، منوى الدَنْدل».

تتحفز عيني الضابط ويتابع «طراد»:

- «لماذا أربكك إلى هذ الحد»؟!..

يسحب الضابط سيجارة مالبورو كحركة دفاع أخيرة لعله يخفي شيئاً من ارتباكه الظاهر ويقول دون أن ينظر في عيني «طراد»:

- «لا أفهم ما تقصد، لابد أن خطأ ما وقع.. من هي منوى الدَنْدل»؟!..

لم يكن يعني «طراد» أن يلعب بأعصاب رجل كاد أن يكون قاتله، لكن اللعبة راقت له واستجاب لنازع التحدي لديه وقال:

- «ربما أخطأت، كان يفترض أن أبدأ من مراية بنت أحمد بيك وحمرا الموت».

يتابع «طراد» مايترقرق في عيني الضابط المتظاهر عبثاً باللامبالاة ويقول:

- «ألا يذكرها أبوك؟!.. مراية التي قتلت دويشر برصاصة واحدة وسط شيوخ وأمراء وباشوات، ألمْ يحكي لكَ كيف انتقمت مراية لشقيقها الأمير الذبلان الذي قُتل غدراً؟!.. الرصاصة ذاتها رصاصة «مراية» أردتَ أن تعيدها إلي، لكن خانك البخت، وصلتْ كتفي ووقفت، القدر فعلها هذه المرة، بادلك الخيانة بخيانة، نحن العربان لا نتبادل الثأر وحسب أيضاً الخيانة نتبادلها»؟!..

twitter @mjanen٢٣

يتابع الضابط رسم ابتسامة استهانة بكلام «طراد» الذي يتابع بهدوء ويقول:

- «هل ترتب لدورية جديدة تتربص بسيارتي العائدة من عند صديقي الوحيد الذي يعزف على ربابة ذاكرتي؟!.. عدتَ إلى هنا لتتنفس ماضيك، مَغَرَتكم «منوى» بذلٍّ لن تنسوه قط؟!.. كيف مرت طفولتك في ظلال ضواحي حلب؟!.. ماذا كنتم تقولون لجيرانكم عن أصلكم؟!.. أتقول أنك حلبي مثلاً؟!.. ألم تروقكم شوارع اليتم في مدينة لا تسألكم عن أمسكم؟!.. كيف رضعت كل تلك المسافة بيني وبينك واستكثرت عليّ بقايا ربابة يا سيادة الرائد؟!.. ها أنا هادئاً عارياً من البغض والكره والنقمة على يد أطلقت رصاصة عمرها ما يقرب قرن.. قلْ لي أنا أقصد مطربي العجوز وربابته لأشرب كأس عَرَق على شرف أشيائي.. قلْ لي إن كنت مكاني على شرف أي شيء تثمل»؟!..

يقاطعه الضابط الذي بدا مثل طفل تورط بلعبة يلعبها الكبار:

- «تركتك تقول كل ماتشتهي وأؤكد لك إنك على خطأ، أنا لست من تظنني»..

يقول «طراد» وهو ينهض:

- «شكراً لحسن استماعك إذن، كما ترى لم تعلمني المدينة بعد منطق أزقة الحارات الملتوية، فقط أردت أن أكون صريحاً ومباشراً ومشهراً في وجه رصاصتك المارقة حديثاً بلحمي».

twitter @mjanen٢٣

يغادره، يترك الضابط يتجرع هوة المسافة بينهما وغضبه من وعلى حبل يبدو في الظاهر أنه مقطوع بينه وبين ماضيه.

ينهض الساحر في الرمل الممتلئ سلاماً، ويحتشد السراب في وجهه ويهمس: أصغر ذئب يأكلك مع قبعتك وحمائمك وأرانبك خذ قبعتك وارحل فمضغة واحدة وتغدو كأنك ما كنت.

❖ ❖ ❖

«حنا جماً صافي الذهب وأنظف من الخام الحديد».

عبارتنا البدوية العتيقة لم يعد لها معنى. يقول «لورنس» لـ«طراد» في أول لقاء لهما بعد أكثر من خمس سنوات.

كان في زيارة لقصر أبيه المشهر في صلب العراء، والفارغ إلا من العبدة العجوز «زعيله». آثرت البقاء في القصر الذي تربَّت في كنفه وحين غادره الأبناء إلى دول النفط،. ظلت هي تحرسه من الغبار.

في غرفة أمه، التي كانت يوماً الزوجة الثانية والمدللة وكانت أول عروس بدوية تحظى بغرفة نوم من الخشب والمرايا في وقتها، جلس "لورنس» على السرير الخشبي الواسع فيما «طراد» يفتح درف الخزانة الجميلة يبحث عن أشياء من طراز تلك الأشياء التي تخبئها العليات والسقائف والأقبية والصناديق والخزائن، تلك الأشياء التي نسميها «كراكيب» حيث يمكن أن يتم العثور على سر مدفون، مخبأ، متنكر، مدسوس بذكاء صدفة بين أغراض وأشياء ضمن سقط متاع

twitter @mjanen٢٣

ما. أو أشياء نُسيت سهواً، تأتي بوقتها لتشحن عالم ذاكرتنا بقدسيات من نوع خاص، وتزودنا بتداعيات شرسة إزاء ذكرى قديمة مازالت متربصة في قاع صندوق أو زاوية درج خزانة ما.

هل يمكن للأشياء أن تسرد قصة حياة كاملة على طريقتها ويمكن أن تبوح بغلطة ما؟!.. أو أن تفشي سراً جميلاً؟!.. أو أن تثير فضيحة؟!.. أليس كثير من الأشياء يمكن أن يكون أجمل لو ظلَّ سراً؟!.. أم أنه لا يوجد سر يمكنه أن يقاوم نشوة الفضح؟!..

- «لا يوجد قفل دون أن يحمل دعوة ما للفضوليين، واللصوص؟!.. ربما لهذا نصح يوماً أحد الحكماء أنه من الأفضل تضليل اللص بدلاً من تحدّيه أو تعجيزه بالأقفال. من هنا جاءت فكرة وضع الصناديق داخل بعضها، وأقل الأسرار إثارة تُوضعُ في الصندوق الأول، لعلها تجعل اللص يكتفي بها ولا يمضي إلى أبعد منها ، فيرضيه سرٌّ مزيف.

هكذا كان «طراد» يحكي وهو الذي طالما أربكته «الكراكيب» ، تجرأ على اختلاس قطع أثاث كثيرة من فرش مضافة جده دندل ونقلها لداره. أشياء شكلت له أرقاً كيف يتصرف بفضل تواطؤ الماضي معها حين ينثر أشياءه كرموز سالفة؟!..

نصح «لورنس» «طراد» بإطلاق سراح تلك الأشياء العتيقة لأنها تسبب المزيد من بلبلة الذاكرة. رغم أنه عجز عن تنفيذ شيء من تلك النصيحة.

ربما ، بعض الأدباء يرفضون طي ملابس الماضي و لا يفكرون

twitter @mjanen٢٣

أبدا بترتيب خزائن التذكر رغم أنهم يقضون ساعات طويلة في تلك الأقبية التي تحتوي صناديق أسرارهم و رفوف مخلفات ماضيهم.
وحدهم يحتفظون بأشياء فقدت أهميتها وانتهت مدة صلاحيتها، يتقنون الاحتفاظ بالأشياء التي لن يستعملوها قط.. لكنها تستعملهم بذريعة الحنين. كل البشر يستطيعون تعزيل بيوتهم واعتبار كثير من أثاثهم «كراكيب» وبسهولة يرمون مجلاتهم العتيقة وكتبهم التي لن يعودوا إلى قراءتها يوماً. إلا «طراد».

«لورنس» يقول: «أخشى أنني أحن إلى وطن لم يعد موجوداً على الأقل كما هو في الذاكرة.. مجرد أنني أعرف أنه لم يعد بإمكاننا إشهار بنادقنا القديمة من جديد في وجه أحد، أمر يدعوني لمواصلة الغربة بكل مرح في بلد شعاره: أين تضع رصاصتك تضع المستقبل».

«طراد» الغارق بلعبة فتح الأدراج يسأل قائلاً: «نوستالجيا على الطريقة البدوية»؟!..

ينهض «لورنس» ويقرفص إلى جوار «طراد» وينهمك بنبش ما تحفظه الأدراج بشهية عالية ويقول:

- «أتعرف، اخترعت كلمة نوستالجيا في حزيران ١٦٨٨ كان الذي اخترعها أو ربما اكتشفها فقط لكنه سماها، طالب، ربما كان سويسريا و وقتها قام بجمع كلمة «nostos» التي تعني «عودة» وكلمة «algos» وتعني «ألم» في إطروحة طبية لوصف المرض الذي يعاني منه الجنود السويسريون حين يبتعدون عن جبالهم»..

twitter @mjanen٢٣

يحدس «طراد» مايريد قوله دون أن ينطقه ويقرأ في عيني «لورنس» القادم من أمريكا :

- «كفاك تسكعاً بين أضلاع التاريخ، تعال إلى ازدحام هذا الزمن، إلبسه إنه ثوبك».

«لورنس» يتجه إلى القبلة ويصلي صلاة العصر. «طراد» يفكر مبتسماً كيف أن «لورنس» ينتمي لواحدة من أكبر القبائل العربية على الأطلاق وقبل ما يقرب من مئتي عام رفضت هذه القبيلة عقد حلف مع القبائل النجدية حتى لا يضطروا إلى الصلاة خمس مرات في اليوم، لو أن ذلك الحلف عقد لكانت تغيرت خارطة الشرق الأوسط الحديث. لا تفاجئ «طراد» حقيقة أن البدو أصبحوا مؤمنين، بعد قرون طويلة مرت عليهم دون أن يؤمنوا بشيء، حقيقة تمضي متوارية على غير هدى تشطح صوب التطرف خلال ظلال صامتة ومواطئ سحيقة القرار لأقدام تائهة تضاعف خريفها: لا كلأ تبحث عنه، ما من شيء يستطيع الإجابة على أسئلة مفترق طرق.

في الخارج كان باشق يحوم وحيداً وعصافير وحمائم. يخرجان إلى شرفة القصر ويقول «لورنس» كلمة أخيرة قبل أن يغادر إلى غربته.. غريب، كنت أظن أن سماء الجارح غير سماء العصفور.

❖ ❖ ❖

ثمة مشاعر لا يمكن أن تجد لها رديفاً بين الكلمات، مشاعر

twitter @mjanen٢٣

أكثر مما نستطيع شرحه بالحروف، مثل شعورك حين تحس بحضور شخص ما.. أحدٌ ما، أحدٌ لا يوجد، لكنه سبَّب ارتباكك كله.

ذلك الطيف الذي تراه بين حين وآخر على امتداد الزمن أمامك وخلفك و جوارك.. مربوطاً فيك بخيط من حرير الأمس.. ماذا يهم لو لم تر الأنسان ذاته، لكنك تسمع حفيفه و تشم رائحته.. يجتاحك بهبوب غامض الاتجاه، يقبض عليك وأنت متسكع خارج مدارات السراب مطارداً تلك الأشياء الخاطفة من كلمات، نظرات، وجوه، دروب متعرجة، ملتوية، تغيب في ضباب البعد.

كان يجول مع أفراد بعثة أجنبية قادمة لاستكشاف قصر ابن وردان. مشى معهم ، يسوح بهم بين الأروقة البيضاء والضوء والجدران العالية.. والصمت الأكثر قدماً. جدران بلا سقوف.. السماء تسلط كل اتساعها وتؤسس لإحساسك المباشر بالأعالي الفسيحة.

يحسُّها تنظر إليه.. مثل ذات يوم، أصبح موغلاً في البعد الآن، عبر لحظة عميقة متحركة بيضاء، ويتهشم التاريخ ألف قطعة وقطعة.. ألف كمين وكمين، كان يجب أن يدخل القصر على أطراف أصابعه في أول الليل ويحرق البخور ليستحضرها لعلها تكون لائذة وراء جدار ما.. تمازحه.. فالموتى قادرون على دفن الأحياء.. أيضاً هكذا كان يهمس «طراد» لطيفِ «سلطانة» الافتراضي.. فالموتى يزورُون ماضيهم.. وحصان التذكر يخبُّ هابطاً أدراجاً خفية كل الممرات السرية المظلمة وبعيداً عن فجور الضوء أغمضي عينيك على أحلامك

twitter @mjanen٢٣

وخارج الوجود ذاته وربما حين نصبح لا شيء نتلاقى.. ونمحو الغياب ذاته، واصلي السير على الرمال التي أحببناها سوياً وعلى مهل تقدمي وسلِّمي الأشياء كلها للصمت الأكثر نقاء.

يصعد الطابق الثاني من القصر والأجانب يتبعون «طراد» في عيونهم دهشة الزمن ويشرح لهم عن تاريخ المكان.

في الشرفة كان المشهد مثل فيلم وثائقي واضحاً صريحاً مباشراً: كل شيء منظماً، سليماً، منطقياً، وقف المكان كله عارياً: لا أبواب ليطرقها أحد، لا أبواب ليوصدها أحد في وجه أحد.. مرحباً بكذبك أيها السراب.. عالياً طيّرها جوارحك البائدة، واضبط مشيتك على إيقاع قدمي سرحانٍ غابر..

مرحباً بشاربيك المنمقين، المفتولين إلى أعلى كما أنفك.

مرحباً بصمتك الذي يُريبكُ، مثل بوحك.

مرحباً بصدقك الذي يحيِّر أكثر من كذبك.. ومرحباً بكذا ألف سنة خلت واحمرت رؤوسها من الحناء.. وقامتك تبعثر في وجه التاريخ عظامه وأحشاؤه وحتى ملامح وجهه.

مرحباً، بحضرتك وأنت تخلط الصباحات بالآماسي كعاشقين وحدتهما لحظة نشوة مشتركة.

لا تتدعي التيه اتركه لنا، شيء لا مرئي يكنس رقعة الشطرنج ويخلفنا غرباء يأسفون على كل شيء.

وألف مرحباً بسراب كثعبان بعيني غزالة.

twitter @mjanen٢٣

كان الفراغ يعثر على طريقه في كل أنحاء القصر كل شيء كان مفتوحاً على الفلوات المنبسطة حوله. شريط التذكر يمر زائغاً مثل ثعلب الخدعة، وهناك وقف «طراد» يحدق في أفق ليس يمحوه أي شيء.

ووصل إلى يقينه، الصحراء لغزٌ والسراب تفسيرٌ.

خرج «طراد» وهو يشمُّ طريقه.

. . . .

. . . . .

لازالت شقائق النعمان تبزغ في الربيع.. لتثير فكرنا خلال لحظة فيها نؤكسد الذاكرة ، و نقرأ القادم.

twitter @mjanen٢٣

إصدارات دار ممدوح عدوان

- الأعمال المسرحية الكاملة. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٦).
- هواجس الشعر/ دراسة نقدية. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٦).
- أعدائي/ رواية. تأليف: ممدوح عدوان. ط٣ (٢٠٠٧).
- الجنوبي/ سيرة الشاعر أمل دنقل. تأليف: عبلة الرويني. ط٢ (٢٠٠٦).
- تفسير الأحلام/ قصص قصيرة. تأليف: الفارس الذهبي. ط١ (٢٠٠٧).
- جنون آخر/ مقالات. تأليف: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٧).
- النقد الذاتي بعد الهزيمة/ دراسة. تأليف: صادق جلال العظم. ط٣ (٢٠٠٧).
- تقرير إلى غريكو/ سيرة ذاتية. تأليف: نيكوس كازنتزاكيس. ترجمة: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٧).
- زوربا البرازيلي/ رواية. تأليف: جورج آمادو. ترجمة: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٧).
- حيونة الإنسان. تأليف: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٧).
- مختارات شعرية. تأليف: أمجد ناصر. ط١ (٢٠٠٧).
- تاريخ التعذيب/ دراسة. تأليف: بيرنهاردت ج. هروود. ترجمة: ممدوح عدوان. ط٢ (٢٠٠٨).
- أطياف ممدوح عدوان: شهادة الحياة وشهادة الابداع (حوارات منتخبة)/ دراسة. تأليف: أ.د محمد صابر عبيد. ط١ (٢٠٠٨).

twitter @mjanen٢٣

- حكاية الشيخ أبي خليل القباني والوالي مدحت باشا العثماني/ مسرحية.
تأليف: دلع الرحبي. ط١ (٢٠٠٨).
- لا غبار عليك. شعر. تأليف: لقمان ديركي. ط١ (٢٠٠٨).
- بنات نعش. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. (٢٠٠٨).
- مولانا. مسرحية. تأليف: الفارس الذهبي. ط١ (٢٠٠٨).
- دفاعاً عن الجنون. مقدمات. تأليف: ممدوح عدوان. (٢٠٠٩).
- الأعمال الشعرية الكاملة. شعر. تأليف: د. محمد مردان. ط١ (٢٠٠٩).
- الإلياذة. تأليف: هوميروس. ترجمة وتعليق: ممدوح عدوان. ط١ (٢٠٠٩).
- التفاتة العابر في ظله. شعر. تأليف: محمد أبو لبن. ط١ (٢٠٠٩)
- خطفني الديك. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط١ (٢٠٠٩)
- الخارطة الشعرية في الأغنية الرحبانية. تأليف. محمد منصور. ط١ (٢٠٠٩)

twitter @mjanen٢٣

سلسلة ذاكرة المسرح السوري

١.	أبو خليل القباني	ناكر الجميل
٢.	عبد الوهاب أبو السعود	وامعتصماه
٣.	وصفي المالح	طريق النصر
٤.	خليل هنداوي	هاروت وماروت
٥.	حكمت محسن	صابر أفندي
٦.	مراد السباعي	شيطان في البيت
٧.	حسيب كيالي	قارعوا الأبواب
٨.	سلمان قطاية	القضية والحل
٩.	محمد الماغوط	العصفور الأحدب
١٠.	وليد مدفعي	وبعدين؟!..
١١.	وليد فاضل	إيفا
١٢.	وليد إخلاصي	سهرة ديمقراطية على الخشبة
١٣.	سعد الله ونوس	طقوس الإشارات والتحولات
١٤.	فرحان بلبل	الممثلون يتراشقون الحجارة
١٥.	علي عقلة عرسان	رضا قيصر
١٦.	مصطفى الحلاج	الدراويش يبحثون عن الحقيقة

twitter @mjanen٢٣

١٧.	عبد الفتاح قلعجي	العرس الحلبي
١٨.	رياض عصمت	لعبة الحب والثورة
١٩.	ممدوح عدوان	ليل العبيد
٢٠.	حكيم مرزوقي ـ عبد المنعم عمايري	حلم ليلة عيد ـ صدى
٢١.	زيناتي قدسية ـ موفق مسعود	مجنون يحكي ـ الرجل الدائري
٢٢.	الأب إلياس زحلاوي	المدينة المصلوبة
٢٣.	أحمد يوسف داود	الخطا التي تنحدر
٢٤.	شوقي بغدادي	تلك الليلة
٢٥.	**الكتاب الشباب ج١**	
	ـ عدنان العودة	خيل تايهة
	ـ عمر أبو سعدة	ليلة
	ـ محمد أبو لبن	آخر العشاق
	ـ يم مشهدي	باريس في الظل
	ـ الفارس الذهبي	ريح
٢٦.	**الكتاب الشباب ج٢**	
	ـ هوزان عكو	بروانة أو الحرائق
	ـ كفاح الخوص	حكاية بلاد ما فيها موت
	ـ وائل قدور	الفيروس
	ـ ليندا الأحمد	الملحق
	ـ يامن محمد	قدم إلى الأمام قدم إلى الوراء

twitter @mjanen٢٣